

مذاهب فكرية معاصرة

GUSU5073



المحتويات

المذاهب الفكرية: تعريفها، نشأتها، تطورها

عناصر الدرس

التعريف بمصطلح "المذاهب الفكرية"

قبل أن نبدأ في سرد المذاهب الفكرية المخلفة وبيان حقيقتها لا بد من التقديم بالتعريف بهذا المصطلح المركب من لفظ المذاهب ولفظ الفكرية.

تعريف "المذاهب الفكرية":

أولًا: التعريف بلفظ: "المذاهب":

قبل الدخول في تَعريف لفظ: "المذهب" لا بد من الإشارة إلى؛ قاعدة تفسير اللفظ، وبيان معناه على ما يأتي، وهو: إن كان المراد بيان معنى اللفظ لغة؛ فيؤخذ المفهوم والمعنى حسب قواعد اللغة وأصولها، وإن كان المراد بيان مفهومه اصطلاحًا، فيبين معناه حسب مُراد المتكلم به صاحب الاصطلاح؛ لذا فالتعريف بلفظ: "المذهب" في المراحل الآتية:

ماهية المذهب وحقيقته لغة: "المذهب": اسم مصدر أَصل مادته: "ذَهَبَ" على وزن: "فَعَلَ" فِعْلٌ ثلاثي صحيح غير معتل، وكل معانيه وما تَصَرّف منه تدور على معنيين: "الحسن و "الذَّهاب إلى الشيء والمضي إلى طريقه" وأسماء المصدر له ثلاثة: "ذَهَابًا " و"ذُهُوْبًا" ، و "مذْهَبًا" والذي يعنينا هنا: مَصْدَرُه: "المذهب" على وَزْن: "مَفْعَل" من: الذهاب إلى الشيء والمُضي إليه .

حقيقته العرفية:

ولفظ: "المذهب" هنا، يُعْنَى به: المذهب الفكري ينتقل إليه الإنسان، وطَريقة فلسفية أو اجتماعية أو إيدلوجية أو نحوها، يسلكها المتابع لمقتضاها.

ماهية "المذهب" وحقيقته اصطلاحًا:

دارت كلمة المفكرين في بيان حقيقة مذهب الإنسان، على أمرين: على: "الاعتقاد" أو على "القول" وما في حكمه.

وعليه؛ قيل: مذهب كل أحد -عرفًا وعادة- ما اعتقده جزمًا أو ظنًّا. وقيل: مذهب الإنسان هو اعتقاده، فمتى ظننا اعتقاد الإنسان أو عرفناه ضرورة، أو بدليل مجمل أو مفصل، فهو مذهبه.

وقيل: مذهب الإنسان: ما قاله، أَوْ دَلَّ عليه بما يجري مجرى القول من تنبيه أو غيره، فإن عدم ذلك لم تجز إضافته إليه. وَلا تَبَاعُدَ فالخلاف الحاصل في العِبَارات لا في الاعْتِبَارَات؛ فالاعتقاد هو الباعث على القول. والغرض من بيان هذا أن مذهب الإنسان يقتضي آثارًا وأحكامًا تتعلق بصاحبه.

ثانيًا: التعريف بلفظ الفكر:

جاءتْ مادَّة "فكر" في (لسان العرب) بمعنى إعْمال الخاطر في الشَّيء، وفي (المعجم الوسيط): الفِكرُ مقلوبٌ عن الفرك، لكن يُستعمل الفِكرُ في الأمور المعنويَّة، وهو فركُ الأمور وبحثُها للوصول إلى حقيقتها. وجاء عند ابن فارس: "فكَرَ؛ الفاء والكاف والراء: تردّد القلب في الشيء، يقال: تفكَّر، إذا رَدَّدَ قلبه معتبرًا، ورجل فِكِّيرٌ: كثير الفكر".

وقد وردت مادة "فكر" في القرآن الكريم في نحو عشْرين موضعًا، ولكنَّها بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أمَّا من الناحية الاصطلاحيَّة ؛ فكما ورد عند ابن منظور : "إعمال الخاطر في الشيء" ، فقد ورد عند الرَّاغب الأصفهاني بأنَّه : "قوَّة مطرقة للعلم إلى معلوم ، وجولان تلك القوَّة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان ، ولا يُمكن أن يُقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلْب".

أمَّا عند المتأخرين ، فقد جاء في (المعجم الوسيط) "فكر" بمعنى : إعمال العقل في الشَّيء ، وترتيب ما يُعلم ؛ ليصل به إلى مجهول ، أو : "إعمال العقل في المعْلوم للوصول إلى معرفة مجهول. كما عرَّفه طه جابر العلواني بأنَّه : "اسم لعمليَّة تردّد القُوى العاقلة المفكّرة في الإنسان ، سواء أكان قلبًا أو روحًا أو ذهنًا ، بالنَّظر والتدبُّر لطلب المعاني المجْهولة من الأمور المعلومة ، أو الوصول إلى الأحْكام ، أو النسب بين الأشياء".

وبناء على ما سَبقَ يُمكن تعريفُ المَذاهبِ الفِكرية المُعاصرة بأنها : التيارات والطرائق التي يتخذها مجموعة من الناس ، ويعتنقونها ، ويسعون إلى نشرها وترويجها ، بكل الوسائل المُتاحة لهم. ولهذه المذاهب أدبياتها وأعلامها ومصادرها ومناهجها. وقد تكون هذه التيارات فلسفية ، أو اجتماعية أو دينية.

فالمذَاهب إذن جمع "مذهب" وهو : ما يَذْهَبُ إليه الشّخصُ ويعتقده صوابًا ، ويدين به سواء أكان ما يذهب إليه صوابًا في نفس الأمر ، أو كان خطأ ، ومعنى هذا أنّ المذاهب تَخْتَلف باختلاف مَصادِرهَا ، وباختلاف مفاهيم الناس لها ؛ من دينية وغير دينية. وما يتبع ذلك من اختلاف في فنونها : من فقهية ، أو لغوية ، أو رياضية ، أو علوم عقلية ، تجريبية ، أو فلسفات أو غير ذلك.

ويجب مَعرفةُ أنه لا يخلُو إنسانٌ أو مجتمع من مذهب يسير بموجبه مهما اختلفت الحضارة ، أو العقلية للشخص أو المجتمع. تمشيًا مع سنة الحياة ، ومع ما جُبل عليه

الإنسان، الذي مَيّزه اللهُ عن بقية الحيوانات بالعقل والتفكير، وحُبّ التنظيم والسيطرة على ما حوله، وابتكار المناهج التي يسير عليها إلى آخر الغرائز التي امتاز بها الإنسان العاقل المفكر عن غيره من سكان هذه المعمورة.

وقيل لها مذاهب فكرية: نسبة إلى الفكر الذي تميز به الإنسان، عن بقية المخلوقات التي تشاركه الوجود في الأرض، ويُعرفه بأنه صنعة العقل الإنساني، ومسرح نشاطه الذهني، وعطاؤه الفكري، فيما يعرض له من قضايا الوجود والحياة؛ سواء أكان صوابًا أو خطأ.

وقد نسبت المذاهب إلى الفكر؛ لأنها جاءت من ذلك المصدر، وهو الفكر، أي: أنها لم تستند في وجودها على الوحي الإلهي أصلًا أو استعانت به، وبما توصل إليه الفكر من نتائج جاءته، إما عن طريق الوحي أو التجارب، أو أقوال من سبق أو أفعالهم. وقد تكون تلك النتائج صحيحة وقد تكون خاطئة في نفس الأمر.

وأما بالنسبة لاستنادها إلى الوحي: فقد لا يكون ذلك، بل ربما كانت تلك الأفكار محاربة له؛ فتُنسب إلى مُؤَسّسيها؛ فيقال: الفكر الماركسي، أو الفكر الفلسفي اليوناني، أو الفكر الصوفي أو غير ذلك من الأفكار التي تنسب إما لشخصيات مؤسسيها أو لبلدانهم، أو لاتجاهاتهم وغير ذلك.

ومن هنا يتضح أنه: إذا أُطلق لَفظ الفكر؛ فإن المراد به هو ما يصدر عن العقل من شتى المفاهيم والمبتكرات الدينية أو الدنيوية.

ومن هنا سميت مذاهب فكرية؛ نسبة إلى المذاهب الذي تنسب إليه كل طائفة ونسبة كذلك إلى أفكارها التي تعتنقها؛ مبتكرة لها أو مقلدة، وقد انتشرت في العالم أفكار عديدة باطلة.

عوامل نشأة المذاهب الفكرية في الشرق والغرب

ليس في المذاهب الفكرية الضّالة ما يُغري العقلاء باعتناقها، إلا أنه كما يقال: "لكل بضاعة سوق، ولكل صائح صدى".

المذاهب الفكرية: منشؤها وموطنها المضياف هو الغرب النصراني، الذي تهيأ له ما لم يتهيأ لغيره من الدول، من أسباب الاندفاع إلى الثورات العارمة، على كل الأوضاع والمعتقدات، نتيجة أحوال تعيسة؛ أفرزتها أسباب مجتمعة، أدت إلى ظهور مذاهب فكرية عديدة، كما يظهرُ الطفح الجلدي على المريض. ومن تلك الأسباب ما هو ظاهر ومنه ما هو خفي:

أما الأسباب الخفية: فقد تعود إلى أمور سياسية في أكثرها: من حب السيطرة والتوسع، وانتشار مواضع النفوذ، وكذلك الرغبة في الانفلات من كل القيود التي كانت قائمة في ظل حكم رجال الدين النصراني، ثم ملء الفراغ الذي أحس به الأوربيون بعد إقصاء الدين ورجاله، والرغبة في إشغال الناسِ بأي جديد في المعتقدات، وخَلطِ الأُمورِ. ورُبّما تُوجد أسبابٌ أخرى هي أهم من هذه الأمور تحتّاج إلى بحث وتدقيق ووقت، بعد التأكيد على أن أبرزها كان بسبب الرغبة في الانفلات من قبضة رجال الدين النصراني وخرافاتهم، وكذلك سوء الأحوال في الحياة الأوربية المتمثلة في الحالات الاجتماعية والثقافية والدينية، التي كان يعيش الأوربيون في عهود سيطرة رجال الكنيسة من عداوات وتنافر، ومن انتشار الجهل والخرافات الجاهلية، ومن بُعد عن الدين الصحيح.

وكذَلِكَ اختلاط المفاهيم الفكرية الدينية النّصرانية الخرافية أساسًا؛ وإظهارها بالمظهر الديني مَمّا كانَ له الأثَرُ البَالغ في تشجيع أصحاب الآراء الثائرة على

الدّين النّصرَاني، على اختراع الآراء المُضادة له، وإلصاقها بالدين في البداية. والتي نشأت في أشكال مذاهب ونظريات مختلفة بعد ذلك؛ مُقتدية بانحراف الديانة النصرانية من الأساس، وقيامها على يد بولس اليهودي الوثني، الّذي أقام النصرانية على مفاهيم بشرية وقوانين وضعية مملوءة بالتناقضات والخرافات التي كانت محل ازدراء أصحاب العقول الناضجة وتبرمهم منها؛ سواء كانوا في الغرب، أو في الشرق.

بعد أن فقد النصارى إنجيل عيسى -عليه الصلاة السلام- بعد رفعه على أنه لم يكن ظهور الخرافات وحدها هي التي أزعجت الأوربيين بل كان لزوال طُغيان رجال الكنيسة الحافز القوي لظهور مختلف الأفكار والمَذاهب بعد الإطاحة بطُغاة الكنيسة، وتخلص النّاسّ من قبضتهم الفولاذية؛ فإن كل شيء له رَدُّ فِعل؛ فإنّ الأوربّيينَ وهم في مرحلة جديدة ماسة إلى كل الآراء؛ لسَدّ الفرَاغ بِبَدِيلٍ عن الدين النصراني. وتحقق بعد ذلك ما يُقال من أنّ "لكل صَائِح صدى". فإنّه بَعد انفلات الناس، عن قبضة الكنيسة، وتحوّلهم إلى مارد جَبّارٌ، ما كان أحدّ يُظهر رأيًا، إلا وجد من يَستَمِعُ له، ويأخذ به في البناء الجديد للحياة الأوربية، وأنّ يكون فيه إسهام في زيادة الابتعاد عن قبضة رجال الكنيسة.

وقد انضاف إلى تلك الأسباب أيضًا ما قام به رِجال الكنَيسة، قَبل الإطاحة بهم من الوقوف بحزم وكبرياء، أمام كل المفكرين من علماء الغرب، والحكم عَليهم بِأنّهم هَراطقة، يجبُ قَتْلُهم لردتهم -كما يرى الجامدون رجال الكنيسة- فأي: عَالم كان يُظهر رأيًا جديدًا في أي شيء في هذا الكون يُخالف عقلية رِجالِ الدّين كان يُعتبر قوله: كفرًا، وردة. فقامت المذابح لكل من كان يتصف بأنه حُرٌّ أو مُفكر، وقُتل الآلاف لأتفه الأسباب إلى أن تغلب الثائرون ومَرّغُوا أُنوفَ رِجَال الدين النّصراني الخُرافي في الوحل، وقامت على أنقاضه مَفاهيمُ ومذاهب شتى.

معنى الهَرطقة: الهرطقة: أساس التسمية في بداية إطلاقها هو: بَنزٌ أطلقتْهُ الكنيسةُ على كُلّ مُخَالِفٍ لهم في باطلهم للبطش به. ومعناها عندهم: الكذب والفجور والخروج عن الدين، والمراد بها: الفتك بمن ينسبون إليه هذه التسمية، ولاستباحة دمه، فرأي يراه عالم في الكون هرطقة، ومحاولة فهم الكتاب المقدس لرجل غير كنسي هرطقة، وانتقاد شيء يتصل بالكنيسة هرطقة، ومُساعدة واحد من هؤلاء أو الرضا عن اتجاهه هرطقة... وهكذا. ولقد كان من ضحايا هذا البنز كثير من المفكرين منهم: من أُحْرِقَ حَيًّا، ومنهم من أحرقت كتبه، ومنهُم من سُجِنَ وعُذّب عذابًا شديدًا، مثل:

١. "ويكلف" الذي نبش قبره وأحرقت جثته.
٢. "جون هيس" عميد جامعة براج الذي أحرق حيًّا.
٣. "لوثر كنج" وقد عانى الكثير منهم.
٤. "كلفن". ثم تتابع المفكرون إلى أن استطاعوا انتزاع سلطة الكنيسة وإخفات أصوات رجالها.

أما عَصر سُلْطَة الكنيسة: فهذه السُّلطة بَرزت في القرون الوسطى؛ حين كانت أوروبا تُعاني من انتشار الجهل وسيطرة الخرافات بسبب سيطرة رجال الكنيسة، وشدة قبضتهم على أتباعهم، إذ كانوا بمثابة الدولة الطاغية؛ فقرروا لأنفسهم صلاحيات لا حدود لها، صلاحيات دينية وسياسية؛ فوقَ ما يتصوّرُ العَقل؛ فلا حَقّ إلا ما قرره البابا وأعضاؤه، ولا باطل إلا ما أبطلوه، ولا حَلالَ ولا حَرامَ إلّا ما جَاء عنهم. والويل كل الويل لمن حاول الخروج عن قبضتهم في أي ناحية؛ دينية كانت أو دنيوية، فإنه يَنالُ عِقابًا لا هوادة فيه، تحت بنزه بالهرطقة التي اخترعوها لتبرير جرائمهم بالمخالفين، كما عرفت. ومن الأَمْثِلَة على مَظَاهر ذلك الطغيان، وعلى مدى صلاحيات رجال الدين في تلك الحقبة التاريخية ما يلي:

أولًا: اختراعهم الأسماء التي يستحلون بها دماء مخالفيهم، ومنها تسمية الهرطقة. ولقد تسلط رجال الكنيسة على كل من حاول أي نوع من إصلاح مفاهيم الكنيسة الخاطئة، ورموه بالهرطقة، وكان من أولئك الرواد في مجابهة الكنيسة، وكل من يتعلق بها، وكانوا ضحية هذا البنز من تقدم ذكر أسمائهم.

ثانيًا: فرضُ هيمنة رجال الدين على كل شيء دنيوي أو أخروي؛ فربطوا كل شيء بأيديهم، فلا ينالُ ما عند الله إلا بإرضائهم وطاعتهم.

ثالثًا: فَرَضُوا على النّاسِ احترام وطاعة رجال الدين، طاعة عمياء؛ قائمة على الذل والخضوع المُطلق، والاستسلام وعدم الاعتراض في أي أمر كان.

رابعًا: قَرّروا أنّه لا يَستَطِيعُ الإنسان أن يصل إلى ملكوت الله، إلا عن طريق واسطة، وتِلك الوَاسطة هم: رجال الدين الباباوات؛ فهم وحدهم الذين فوضهم الله تعالى، وعلى لسان المسيح -وقد كذبوا على الله ﷻ وعلى المسيح.

خامسًا: لم يجوزوا لأي شخص كان، مهما كان ذكاؤه وعلمه، أن يجرؤ على تفسير الكتاب المقدس إذا لم يكن من أعضاء مجلس البابا.

سادسًا: جعلوا مراسيم العبادة المتقلبةالمتقبلة عند الله، والطّريق إلى قبول التوبة: الاعتراف بالخطأ أمام الكاهن؛ الذي بيده محو وغفران الذنوب فور سرد المخطئ لأخطائه؛ سرية أو جهرية، وهو على كرسي الاعتراف، الذي شُبه دائرة المباحث العامة.

سابعًا: أنشئوا فكرة صكوك الغفران؛ وجعلوها من أهَمّ ما يَنْبَغي أن يُفَكّر فيه الشّخصُ لمستقبل حياته الأخروية، وهي في حقيقتها حيلة لنهب أموال الناس بالباطل، ولولا أن الناس قد سلبوا حتى مجرد التفكير؛ لما قبل أحد منهم هذه المهزلة، ولكن الذي يعتقد بوجود ثلاثة آلهة من السهل أن يقبل كل مستحيل.

وقد عرفت أنهم احتكروا كل شيء من الأمور الدينية والدنيوية. وجعلوها قصرًا عليهم، وبالتالي فليس على الإنسان إذا أراد السّعادة في الدنيا والآخرة، إلا أن يُقدِّمَ الهدايا العَينية والنقدية، والأموال المفروضة عليه، وغير المفروضة، ويَشتري صكوك الغفران، بأي ثمن يكون، ويتحبب إلى رجال الدين، ويتودد إليهم، وهم يتولون ما يهمه لمستقبل حياته في الآخرة، أو إرضاء الله عنه حسب زعمهم بسبب الصلاحيات الممنوحة له من المسيح ﷺ وحاشاه من أكاذيبهم.

ثامنًا: فرضوا على الناس نظام السُخرة والعشور؛ وذلك بأن يعملوا في الأرض التي تملكها الكنيسة يومًا كل أسبوع بدون أجر، وأن يدفعوا عشر أموالهم هبة لرجال الدين، الذين أصبحوا يأكلون ولا يشبعون.

تاسعًا: وقَفَ رِجَالُ الدّين ضد العِلْم وحقائقه النظرية والتجريبية موقفًا عدائيًّا؛ لأنّه خارجٌ عن نطاق الكتاب المقدس، الذي أعطى الباباوات صلاحية التدخل في كل أمور الحياة، ونشأ عن هذا الموقف العداء المستحكم فيما بعد، بين الدين الذي لا يعترف بالاختراعات التجريبية، ويعتبرها هرطقة، وبين العلم الذي شق طريقه وسط تلك الظلمات ونجح.

عاشرًا: تَبنت الكنيسة أفكارًا، ونظريات في علوم الجغرافيا والأحياء وغيرها، وقدّستها، ولم تسمح لأحد بمخالفتها، وحكمت على من خالفها بالكفر والإلحاد وإباحة دمه. وكان من نتيجة تلك الصلاحيات والهيمنة الكهنوتية: أن عاش رجال الدين؛ البابا وأعضاؤه، عيشة البذخ والتهتك والفجور؛ فوق ما كان يعيشه الأباطرة والملوك، وحينما قوي الفكر الحُرّ لرجال العلم والتجارب، كان لهؤلاء حساب قاس مع رجال الدين، ابتلى الله الظالمين بعضهم ببعض سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلًا. ولقد تَبَرّم بعضُ كِبار أتباع الكنائس من طغيان

رجال الكنيسة، من أصغر رتبهم إلى أكبرها، ومدى ما وصلوا إليه من جرائم واستهتار بالقيم والأخلاق، وبذخ لا حد له، وحتى تكون الشهادة منهم على حد قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦].

فقد قالت عنهم "كاترين السينائية": كما ينقل عنها "ول ديروانت": "إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة، أو غيرهم من رجال الدين، أو الطّوائف الدينية المختلفة، أو الأحبارِ مِنَ الطّبقاتِ الدُّنيا أو العُليا سواء كانوا صغارًا في السنّ أو كبارًا؛ لم تر إلا شرًّا ورذيلة تُزكم أنفك، ورائحة الضحايا والخطايا الآدمية البَشِعة؛ إنهم كلهم ضيقو العقل شرهون، تخلوا عن رعاية الأرواح، اتخذوا بطونهم آلهة لهم، يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة؛ حيث يتمرغون في الأقذار، ويقضون حياتهم في الفسق والفجور".

كما يصفهم "ماستيشو" بأنهم "خدمُ الشَّيْطَان مُنْغَمِسُون في الفسق واللواط والشره، وبيع الوظائف الدينية، والخروج عن الدين. ويُقِرّ بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقًا من رِجال الدين". وبعد أن ذكر "ديوارانت" ما سبق ذكر كذلك: أنّ سِجلات الأديرة احتوت على عشرين مجلدًا من المحاكمات؛ بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات".

حادي عشر: أنشئوا مَحاكم التفتيش: ومحَاكِمُ التفتيش أسوأ وصمة عار ارتكبها رجال الدين في حق العلم التجريبي، والفِكر الحُرّ والناس عموما؛ فلقد كان الجهل والغباء، والعِنَادُ سِمة عُقولِ البابَاوات، وأعضاء مَجَالسهم ينظرون إلى كل جديد بعين الريبة، والتخوف على مراكزهم الدينية أن تذهب بها فكرة، أو حركة أدراج الرياح؛ ليقينهم بأنها قائمة على شفا جُرف هار. لذلك طلب الراهب "ثور كماندا" إنشاء التفتيش لمقاومة العلم والفكر الحر، والنظريات

العلمية وكل من يخالفهم، فتم ذلك الكابوس؛ فعاش رجال الفكر في خوف شديد، ولم يجرؤ الكثير منهم أن يُعلن نظرياته واكتشافاته خوفًا من سلطة الكنيسة، التي كانت لا ترحم أحدًا خالف ما قررته.

ولقد كانت تلك المحاكم سيفًا مسلطًا على رقاب أصحاب الفكر، وعلى المسلمين بعد ذلك بخصوصهم؛ فحكمت في المدة من عام ١٤٨١م – ١٤٩٩م أي: في حدود ثمانية عشر عامًا على عشرة آلاف، ومائتين وعشرين شخصًا، بأن يُحَرّقوا وهم أحياء؛ فأُحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانية وستين بالشنق؛ فشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفًا وثلاثة وعشرين شخصًا بِعُقوبات مُختلفة فنفذت.

وكان أبْرَزُ العُلماء الذين حَاكمتهم الكنيسة في العصور الوسطى: "جَالِيليو" الذي قال: "بدوران الأرض حول الشمس". وقال كذلك: "بأن السماء أكثر من سبعة كواكب". مخالفًا ما جاء في رؤيا يوحنا في سفره الذي اضطره البابا "أريان الثامن" إلى أن يجثو على ركبتيه، وهو في السبعين من عمره، وأن يُعلن عن رجوعه عن آرائه وأنها هرطقة. وصفة اعترافه هكذا: "أنا غاليليو وفي السبعين من عمري، سجين جاث على ركبتيه، وبحضور فخامتك وأمامي الكتاب المقدس، الذي ألمسه الآن بيدي، أعلن أني لا أشايع، بل ألعن وأحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد: أنّ الأرض تدور". ومثله: "بافون" الذي أعلن عن رجوعه عن رأيه في تكوين الأرض، مما يُخالف ما جاء في قصة موسى. وصفة رجوعه: "أُعلن إقلاعي عن كل ما جاء في كتابي خاصًّا بتكوين الأرض. وحمله عن كل ما جاء به مخالفًا لقصة موسى".

وكذا: "جيورد أنو برونو" الذي أحرقته الكنيسة حيًّا وذرته في الرياح، و"شيكو داسكولي" الذي كان له شهرة في علم الفلك، بجامعة كولولينا الذي أحرقته

الكنيسة حيًّا في لفورنسا، و"دي رومينس" الذي قال: "إن قوس قُزح ليس ميثاقًا بين الله وبين خلقه، وليس قوسًا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده، إذا شاء كما قرره الكتاب المقدس؛ بل هو من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء. فجلب إلى روما، وحُبس حتى مات ثم حُوكمت جثته، وكتبه وحُكم عليها وألقيت في النار.

وهذه الأهمية لقوس قزح؛ إشارة إلى ما جاء في خُرافات الكتاب المقدس، من أنه علامة لله يتذكر به أهل الأرض؛ فلا يجعل المطر عليهم طوفانًا يغرقهم به كما أفادته النصوص الآتية من سفر التكوين. وكَلّم الله نوحًا وبَنِيه معه قائلًا: "وَهأنا مُقيمٌ ميثاقي معكم، ومع نسلكم من بعدكم، ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم. الطيور والبهائم، وكل وحوش الأرض، التي معكم من جميع الخارجين من الفلك أيضًا بحياة الطوفان، ولا يكون أيضًا طوفانًا لِيُخَرّب الأرض. وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم، وبين كل ذوات الأنفس الحية، التي معكم إلى أجيال الدهر، وضعتُ قوسي في السحاب؛ فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحابًا على الأرض، وتظهر القوس في السحاب، إني أذكر بميثاقي الذي بيني وبينكم، وبين كل نفس حية في كل جسد؛ فلا تكون أيضًا المياه طوفانًا؛ لتهلك كل ذي جسد، فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقًا أبديًّا بين الله، وبين كل نفس حية، في كل جسد على الأرض". وقال الله لنوح: "هذه علامة الميثاق، الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض".

ومن المفكرين الذين شملهم عقاب رجال الدين: "لينيوس" الذي استطاع بتحليله للماء أن يعرف سبب احمراره، وأنه يرجع إلى تكاثر نوع من الجينات فيه. ولكن حينما علم، بذلك رجالُ الكنيسة ثاروا عليه وناصبوه؛ العداء؛ لأن التعليل

عندهم لذلك، هو أن ذلك خارقة من الخوارق الربانية، تحدث عند غضب الله تعالى، وقد اضطر: "لينيوس" إلى التراجع خوفًا من رجال الكنيسة.

ومنهم: "كوبرنيوكس" الذي كانت له آراء فكرية، تخالف ما عليه الجامدون من رجال الكنيسة؛ الذي أفلته الموت من قبضتهم، ولكنهم لعنوه وهو في قبره، وصادروا كتبه وأحرقوها وحرموا قراءتها. ومنهم "نيوتن". الذي تبنى القول بقانون الجاذبية؛ فقد عوقب من قبل الكنيسة؛ لأنّ هذا القول معناه من وجهة نظر الكنيسة: انتزاعُ قُوّة التأثير من الله ﷻ إلى قوى مادية. ومنهم: "بلاج" الذي أظهر رأيه في أن الموت كان موجودًا، قبل آدم # وقامت لذلك ضوضاء وجلبة، وانتهى الأمر بصدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك، ولعل السبب في هذا الحكم هو اعتقادهم أن الموت، إنما وجد من أجل خطيئة، آدم فوجوده قبل آدم يعتبر أمرًا لا مبرر له وعبثًا، وأن الخطيئة كانت موجودة قبل آدم.

وغيرُ هؤلاء كثيرون لقوا مصارعهم قتلًا وحرقًا، وشنقًا وسجنًا مؤبدًا إلى الموت، بسبب ما كانوا يعلنونه من اكتشافات، أو آراء علمية؛ قابلة للتجربة والبحث، يستحقُّ صاحبها المكافأة، إن كانت صادقة أو عدم الاهتمام بها إن كانت غير صحيحة؛ لكن حكم الكنيسة يختلف. ولهذا فقد شُلت الحركة الفكرية في أوروبا زمنا طويلا إلى أن جاء القرن الخامس عشر وبدأ المفكرون ينفضون عن الناس غبار جاهلية البابوات وطغيانهم فنادى "مارتن لوثر" بحركته لإصلاح الكنيسة سنة ١٤٨٣م - ١٥٤٦م واعتبر صكوك الغفران من وسائل الذل، والعبودية التي يجب أن تنتهي. ثم جاء بعده "كالفن" سنة ١٥٠٩م - ١٥٦٤م. على نفس الاتجاه رغم أن حركة "لوثر" ومن سار على طريقته غيرت كثيرًا، من المفاهيم الخاطئة،

واعتبرت العقل مصدرًا من مصادر الفهم أيضًا إلا أنه يلاحظ أن تلك الحركات، لم تتحرر من تعاليم الكتاب المقدس، بل جعلته مصدر الحقيقة فيما يتصل بالإيمان، وله الكلمة الأخيرة ولو خرجوا؛ عن هذا لكانوا على جانب من الإصلاح، والتحرر من الخرافات.

ومن أسباب قيام المذاهب الفكرية في الشرق والغرب: ما أحس به الأوروبيون، وغيرهم من التخلف الذي كانوا يعيشونه، والغبن الفاحش الذي كانوا يعاملون به، وقد كان من الأسباب التي أيقظتهم على هذا الواقع المُؤلم: هو اتصال الغربيين وغيرهم، من طريق طلب العلم في البلدان الإسلامية، واحتكاكهم كذلك بالُمسلمين عن طريق التجارة، أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم يَطّلِعُون على الأوضاع، تحت ظل الإسلام والأوضاع التي يعيشونها في ظل حكامهم ورجال دينهم.

ومنها: ما قام به مفكرو الشرق، والغرب من نبش الحضارات القديمة، وإحياء الفلسفات اليونانية، والاستفادة، منها لقيام نظريات، ومفاهيم سموها جديدة؛ لإغراء الناس بها كالديمقراطية، والعلمانية، الرأسمالية، وغيرها من الأفكار التي أرادوا أن يسدوا بها فراغ بعدهم عن الكنيسة.

ومنها: مكائد اليهود، وحَبْكُهم المُؤامرات لإثارة الفتن في عامة العالم الغربي؛ لتغيير كل المفاهيم السائدة في ذلك الوقت، وتحطيم كل ما كان معاديا لليهود، والانتصاف من كل من أسهم بأي نوع من الأذى لليهود؛ حتى تم لهم ما كانوا يخططون له؛ فقامت الثورات التي تسفك فيها الدماء، والثورات التي يداس فيها الدين وتداس الأخلاق وجميع النظم المخالفة لليهود. وواقع الغرب اليوم أقوى شاهد على ذلك.

تطور المذاهب الفكرية في الشرق والغرب

وبناء على ما سبق فإن تطور المذاهب الفكرية المعاصرة مرت بمراحل أهمها :

أولًا : عصرُ سلطة الكنيسة : وقد تقدم تفصيل ذلك .

ثانيًا : عصر التنوير : واستمر الأمر على ما سبق ذكره حتى كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، والمعروف بعصر التنوير في تاريخ الفلسفة الأوربية ، وكان الطابع الفكري المميز لذلك العصر هو سيادة العصر كمصدر للمعرفة من غيره ، والمراد بهذا الغير الذي ينازعه السيادة في ذلك الوقت هو الدين -أي : الدين المسيحي- فعصر التنوير يقصد به العصر الذي انطلقت فيه الدعوة إلى إبعاد الدين عن مجال التوجيه ، وإحلال العقل محله. أو إخضاع الدين للعقل ، وإعطائه الحق في نقد الدين في أخص خصائصه ، وبذلك احتل العقل مركز السيادة ، وأخذ لنفسه الصلاحية التي كانت للكنيسة من قبل ، وهي توجيه النوع الإنساني أفرادًا ، أو جماعات من فلاسفة هذا الاتجاه : "ولف ولسنج" و"فيتشه" في ألمانيا ، و"فولتير" و"بيلي" و"لامتري" في فرنسا" .

ثالثًا : عصر الوضعية : أو سيادة مذهب الحس والاتجاه المادي ، بانتهاء القرن الثامن عشر انتهى عصر التنوير تقريبًا ، وابتدأ عصر آخر من عصور الفكر الأوربي ، تميز بسيادة الفكر المادي ، وظهر ذلك مع بداية القرن التاسع عشر ؛ حيث أخذت فلسفة هذا العصر تتجه نحو سيادة الطبيعة على الدين والعقل معًا ، وإلى اعتبار الواقع مصدرًا للمعرفة اليقينية مقابل الدين والعقل. وما الدين والوحي في نظر هذا الاتجاه ، إلا وهم أو خداع ، وما العقل إلا وليد الطبيعة التي تتمثل في الوراثة والبيئة والحياة الاقتصادية... إلخ. ومن هذا المنطلق كانت وضعية "كونت" ، ومادية "ماركس"

السمات المشتركة بين المذاهب الفكرية، وأسباب انتشارها

عناصر الدرس

السمات المشتركة بين المذاهب الفكرية

التيارات الفكرية التي نشأت خلال هذه القرون المتأخرة كثيرة فمنها: فلسفة هيجل الديالكتية، ومنها: المذهب العقلي أو العقلاني، ومنها الوضعية أو الواقعية، أو المثالية، ومنها: مذهب التطور، والماركسية والبراجماتية، والروحية والإنسانية. وغير ذلك. وهي وإن كانت تختلف في بعض خصائصها وسماتها؛ إلا أنها تنطلقمن مبدأ واحد، وتعتمد أساسًا فكريًّا مشتركًا هو حصر نطاق الوجود، وبالتالي: إذا صَرفنا النظر عن المذهب العقلي، حصر نطاق المعرفة في المادة وحدها، أما ما وراء ذلك من إله أو روحانيات، أو أمور غيبية كالجنة والنار والملائكة؛ فإن الفلسفة المادية إما أن تنكر وجوده أصلًا، وإما أن ترى إغفاله أي إهماله كأن لم يكن. حتى الاتجاه العِلماني الذي قام أساسًا على فصل الدين عن الحياة، يعتمد ما يقوم على العلم التجريبي فقط، دون ما عداه.

والفكر المادي الذي هو أساس هذه الاتجاهات غير العقلية كما تقدم جمعها، وإن كان نشأ ونما في أوربا فيما بعد القرن السابع عشر؛ إلا أنه قديم في البشرية، قِدَم الآفات والانحرافات فيها، ويُعتبر امتدادًا لفكر هؤلاء الماديين أو الدهريين، الذين أنكروا البَعث قديمًا، ونسبوا الموت للدّهرِ بدلًا من الله، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وكذلك أعداءُ الرِّسَالاتِ جَمِيعًا ماديون، ولذلك تراهم يتطاولون بالمادة وينكرون البَعث واليومَ الآخر، ويرونَ الجزاء للإنسان قاصرًا على متع الحياة الدنيا، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥] وقال

سبحانه: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٥ - ٣٧].

كما يحكي القرآن مقالة الماديين في شبه الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وقد بين القرآن الكريم أنّ هذا الذي طلبه الماديون في شأن التصديق بالرسالة الخاتمة ليس غريبا ولا غير معهود في تاريخ البشرية، وإنما هو أمر تكرر على عهد الرسالات السابقة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨] أي أشبهت قلوب قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد.

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣]. ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] فتشابهت قلوبهم وقال متأخرهم بما قال به متقدمهم. فالظاهرة العامة للماديين في كل عهد من عهود الرسالة: هو ركونهم دائما على المحسوس المشاهد فقط، ولا يعرفون غيره في مجال الإقناع والاقتناع.

الفرقان بين الإلحاد القديم والحديث: هناك فرقان بين الاتجاه المادي القديم والاتجاه المادي الحديث هما:

الفرق الأول: أن الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله أصلًا، وهو أبرز ما في الاتجاه المادي الحديث عمومًا، لم يكن ظاهرة منتشرة في القديم، وإنّما الذي كان شائعًا

هو الشّركُ بمعْنى مَنْحِ خَصَائِص الألُوهِيّة لغير الله تعالى، وإشْرَاك آلهة أُخرى مزعومة معه سبحانه. صحيحٌ أنّ الإلحَاد والشرك كلاهما انحراف في الفطرة الإنسانية، وانطماس في البصيرة، إلّا أنّ المُشركين قديمًا كانوا يعترفون بوجود الله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣] ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١] ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

هذا النوع من التوحيد المسمى توحيد الربوبية وهو توحيد الله بأفعاله كان يعترف به الكفار على زمن الرسول ﷺ لكنه لم يدخلهم في الإسلام وقاتلهم الرسول ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم؛ لأنهم لم يضموا إليه توحيد الألوهية، وهو توحيد الله بأفعال العباد؛ كالدعاء والنذر والنحر، والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة. أما الإلحاد الحديث: فهو إنكار لوجود الله أصلًا، كما أنه انتشر في العصور الحديثة انتشارًا واسعًا في دول أوربا بصورة ملفتة للنظر، وأصبح له حكومات تحرسه، ودول تحميه، فلقد غزا بلاد الإسلام حتى قام في ربوعها ناعقون يرددون سفاهاته، وينشرون ضلالاته. أما في الشرق من روسيا وغيرها فحدث ولا حرج.

الفرق الثاني: أنّ الإلحاد هذا الزمان يَضرِبُ بسيف من العلم، ويزعُمُ بأنه يقوم على سند من العلم، وتأييد من البحث. ذلك أنّ الصفة التي تتصف بها المادية قديمًا وحديثًا هي: أن الماديين يتصورون أن المادة حقائق مُحسة ملموسة، وليست فروضًا وراء الحس. والنّظرة العلمية في تصورهم: هي ما تَخضع للبحث

التجريبي، وما لا يخضع للبحث التجريبي لا يُسمى علميًّا في نظرهم. ومن ثَمّ أبعدوا مفاهيم الدين والغيب من مجال البحث العلمي؛ حيث لا يقوم عليه دليل عندهم، ووصل الأمر أن أصبح الدين في حس كثير من العلماء الأوربيين مثلًا للخرافة، وصاروا يدفعون عقيدة الإيمان بالله بحجة أن العلم يأباها، وشنوا حملة ضد الإيمان عامة، وضد السلام خاصة، وهذه النظرة الباطلة من أساسها؛ حيث لا علاقة بين العلم والإلحاد.

أسباب انتشار المذاهب الفكرية في العالم الإسلامي

إذا كان للغرب من وجهة نظرهم ما يبرر قيامهم بالثورات على الدين -والمقصود به الدين النصراني، الوثني الخرافي بطبيعة الحال- ولهم ما يبرر قيامهم بالثورات على رجال ذلك الدين، ولهم كذلك ما يُبرر نشوء مُختلف المذاهب الفكرية بينهم. إذا كان لأولئك مُبررات في كل ذلك، سواء أكانت مبررات مقبولة أو غير مقبولة؛ فما هو المُبرر لِقيامِ تِلك الأفكار والمذاهب في بلدان من أغناهم الله بالإسلام، وأعزهم به في الدنيا والآخرة، وشَهِد له إعلام الغرب من الموافقين ومن الحاقدين بأنه خير دين ينظم الحياة كلها، وأن تعاليمه ونُظمه فيها السعادة وحل كل المشكلات بطرق لن يهتدي إلى مثل عدالتها أحد من البشر؟!!.

إنه لأمر غريب أن يتطفل أحد من المسلمين على موائد الغرب الآسنة؛ ليبحث فيها عن النجاة والسعادة، في الوقت الذي يرى بأم عينيه ما يعانيه الغرب من الشقاء والحرمان، والحياة اليائسة. ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩]. نعم؛ إنّه لا مُبرر لقيام

تلك المذاهب في ديار المسلمين، ولكن قد حصل ذلك شئنا أم أبينا، فما هي أسباب ذلك؟ إنّ أعظم أسباب تأثر بعض المسلمين بما عند أعداء الإسلام إنما يعود إلى:

أولاً: جهل هؤلاء بدينهم، وما يحويه من مفاخر، وما يحويه من شمولية كاملة، حيث شهد الله تعالى له بهذا في كتابه الكريم بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فمن ردّ هذه الشهادة؛ فلا شك في جهله وكفره، وخروجه عن ربقة الإسلام، وجماعة المسلمين، وأنت تعلم أن هذا الجهل من هؤلاء يعود إلى أسباب كثيرة؛ إما لتفريطهم وإهمالهم، وإما لتربيتهم، وإما لاختلاطهم، وإما لغير ذلك من الأسباب الكثيرة.

ثانيًا: جَهلُهم بحقيقة ما تحمله تلك المذاهب الضالة من بؤس وشقاء، وأنهم تأثروا بها دون معرفة لحقيقتها المخزية، وما تحمله من دمار أخلاقي، واقتصادي، واجتماعي، وديني. وكل شيء يمت إلى الطريق الحق والصراط المستقيم؛ فأصبح حالهم تنطبق عليه هذه المقالة: "حُبّك الشيء يعمي ويُصم" ولا يمنع أن هؤلاء عملاء مأجورون أيضًا، ما أكثر أولئك الذين باعوا دينهم وضمائرهم.

ثالثًا: رغبة هؤلاء في الانفلات، والتحلل من كل القيم والأخلاق والعادات الحسنة، والفضائل. ورغبتهم في العيش على الطريقة الغربية؛ يعيشُونَ كما تعيشُ البهائم، ويأكلون كما تأكل الأنعام، دون أن يقف في طريقهم أي مانع شرعي أو عرفي.

رابعًا: نَشاطُ أعداء الإسلام، وقوة عزمهم على إفساد عقائد المسلمين، وإخراجهم من دينهم بأنواع الدعايات والمغريات.

خامسًا: بذل المساعدات المالية، وتحبيب الحياة الغربية إلى قلوب المسلمين، وتنفيرهم من حياتهم الإسلامية، وبَثُّ الدّعايات ضد الإسلام، وحُكّام المُسلمين، وعلماء الإسلام قاطبة؛ فقد صوروا لهم الإسلام أنه هو الواقف حجر عثرة في طريق تقدم المسلمين، ونهوضهم ووصولهم إلى صنع الطائرات والصواريخ و... إلخ. وصوروا لهم علماء الإسلام أنهم متخلفون وجامدون، إلى غير ذلك من أنواع الدعايات الخبيثة، التي سرت في عقول كثير من جهال المسلمين.

سادسًا: تأخّر بعض بلدان المسلمين في مناهجهم التعليمية، حيث أقصيت كل الدراسات إلا القليل، التي تُبَصّر المسلم بما يبيته له الغرب على أيدي عملائه من المنصرين والمستشرقين، ومن وافقهم ممن يدعي العروبة أو الإسلام.

سابعًا: الضعف النفسي الذي أصاب المسلمين، وانبهارهم ببريق الحضارة الغربية ورغبة المغلوب في تقليد الغالب ومحاكاته؛ لجبر ما يحس به من ضعف الشخصية أمامه.

ثامنًا: الضغوط الشديدة التي يتعرض لها ضعفة المسلمين؛ باستمرار في أكثر من بلد إسلامي، وإملاء الكفار لأفكارهم على تلك الشعوب؛ لتقبلها راغبة أو راهبة، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة التي تضافرت؛ لتهز من كان في قلبه مرض هزا عنيفًا. ولكننا على يقين أن الحق سيبقى، وأتباعه سيبقون إلى نهاية هذا الكون بإخبار الصادق المصدوق ﷺ بذلك.

لقد كان أساس دخول الحضارة الغربية إلى البلاد الإسلامية، وانتشار أفكارها المختلفة، هو شعور حكام المسلمين بتفوق الغرب عليهم في شتى المجالات التنظيمية والاقتصادية، وخصوصًا ما يتعلق بالنواحي العسكرية، والنظم التي

تسير بها الجيوش، والحاجة إلى السلاح الذي كان بيد الغرب؛ حينما صنعه الغرب النصراني والمسلمون في سبات عميق. ومن هنا بَرَزَ الشُّعور القوي لدى هؤلاء الحكام، بضرورة مد اليد إلى الغرب؛ لشراء الأسلحة التي تزخر بها المصانع الغربية، وتم ذلك فنشأت حاجة أخرى: وهي طلب من يقوم بالتدريب عليها، وكذلك طلب من يقوم بصيانتها، ولا بديل عن الغرب الأوربي في ذلك بطبيعة الحال؛ فاستقدموا المدربين والمهندسين والمستشارين، من شتى دول الغرب، ثم برزت حاجة أخرى وهي: توفير الكتب والمدرسين والمدارس للنشء الجديد في الدول الإسلامية، الذين أريد منهم أن يكونوا دائمًا عدة للجهاد، وتم ذلك.

ولكن لا يخفى عليك من هم الذين سيقومون بتلك المهام كلها للنشء الجديد؟! فالدول الإسلامية في بداية الصحوة من نومها، ولا تملك شيئًا من ذلك؛ فكان آخر الأمر أن ارتموا أمام خبراء الغرب الذين أتوا بكل ما أمكنهم لتغريب العالم الإسلامي، وفي أولهم الجيوش. ومن هنا بدأت عجلة التغريب تعمل في العالم الإسلامي، وبدأ الكثير من حكام المسلمين يتبعون سَنَن الغربيين في كل شيء؛ بدءوا ينظرون إلى التعاليم الإسلامية، وإلى القيم الإسلامية نظرة ضعيفة، فيها نوع من تفضيل الحياة الغربية عليها.

وكانت تركيا هي المثال القوي المُخزي على هذا السلوك، في آخر الدولة العثمانية، إلى أن تسلمها العِلماني المُلحد مصطفى كمال أتاتورك، الذي سلخها من كل شيء يمتُّ إلى الإسلام بصلة -كما هو معروف من تاريخه الشنيع- ثم ابتعث كثير من المسلمين أبناءهم للدراسة في الدول الغربية؛ ليتعلموا شتى الفنون التي كانت تنقصهم، كضرورة ملحة جديدة، ولكن بعد أن رجع هؤلاء إلى بلدانهم، لم يَقف في وجوههم أي حاجز؛ لرفع علم الحضارة الغربية في

بلدانهم، والمناداة ليلًا ونهارًا وسرًّا وإعلانًا، بالانضمام التّام إلى الحياة الغربية، وللحَاقِ بركبها الذي كانوا يرونه سفينة النجاة، ومصدر فخرهم وإعجابهم.

وبدأ هؤلاء ينفخون في أذهان المسلمين المبادئ الغربية، والعادات الاجتماعية عندهم؛ متخذين من بعض القضايا ذريعة لتوصيل الحضارة الغربية إلى الأذهان، مثل: زعمهم أن حِجَاب المَرأة ظُلم لها، وأنّ المُسلمين ينقصهم الدعوة إلى الحريات: حرية الكلمة، وحرية العقيدة، والدعوة إلى منع الطلاق، وتعدد الزوجات، ووجوب تعليم المرأة ومشاركتها الرجل جنبًا إلى جنب في ميادين العمل، وكذلك الدعوة إلى العودة إلى الحضارات القديمة، التي كانت قائمة قبل الإسلام، وإلى السلوك الإسلامي، وغير ذلك من الأمور التي نفذوا من خلالها إلى إنقاذ التعاليم الإسلامية في مكر وخديعة ﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ولقد افتتن بعض المسلمين بالحضارة الغربية وبريقها اللامع؛ لأسباب حملتهم على ذلك، تمنوها في مجتمعاتهم؛ فلم يجدوها كحال الحرية التي رأوها في العالم الغربي في الظاهر؛ فتمنوها دون رؤية ولا نظرة ثاقبة في حقيقتها، ومآل أمرها. ولعل الأوضاع التي يعيشها المسلمون في بعض الأماكن، تحت بعض الأنظمة التي تتظاهر بالإسلام؛ من عدم الاهتمام بحرية الفرد، ولا المجتمع، وسوقهم إلى ما يراد بهم طوعًا أو كرهًا دون مراعاة كرامة أحد، والتعسف المقيت في معاملتهم؛ لعل هذه الأوضاع أيضًا كانت من الأمور التي شجعت أولئك الذين فتنوا بالحضارة الغربية بكل ما فيها من حسن وقبيح، إلى المناداة بها، ومعلوم أن هذا الوضع ليس مبررًا لترك الدين، وما يأمر به أو ينهى عنه؛ لا من قريبٍ ولا من بعيد.

فإنه يمكن معالجة هذه الأوضاع السيئة، حين تُوجد بطُرق كثيرة غير الحضارة الغربية، والحرية الشخصية؛ التي أصبَحتْ يُراد بها العري والخناء، وعدم الحياء. في ظل تلك الحضارة المادية الزائفة. فإن الإسلام لم يهمل حلول أي مشكلة تتعلق بحياة الناس دينية؛ حكامًا أو محكومين، وتاريخه يتحدث بذلك في صوره المشرقات؛ ففي الإسلام ليس للحاكم إلا تنفيذ الشرع الإلهي على الجميع، وإذا خرج عن الدين ونادى بالكُفر البواح فلا طاعة له أيضًا، وإذا ظلم رعيته، فإن الله تعالى له بالمرصاد. ويحاسب كذلك عن تصرفاته في أموال المسلمين، ولا يستبد برأيه، ولا يكتم حريات الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، ولا يحكم لنفسه بحكم ينتفع به بظلمِ الناس، إلى غير ذلك من الأمور المعروفة في الإسلام.

أي أن الحَاكم ليس له مطلق الاستبداد، كما يتصور الجاهلون بالإسلام قياسًا منهم على ما اخترعه رجال الكنيسة، باسم الدين النصراني؛ فإن الإسلام يُوجِدُ في قلب الحاكم الُملتزم به الشفقة والرحمة والتواضع، ويؤكد على أنه يسأله الله يوم القيامة عن كل تصرفاته، وبذلك يكبح جماحه ويهذبه. ويتضح مما تَقَدّم أن الغرب النصراني لم يعد يهتم بمقارعة المسلمين وجهًا لوجه؛ مناظرات ومجادلات حول الأسس الإسلامية، التي قام عليها بناء الإسلام في قلوب أتباعه، لم يعد الغرب يهتم بذلك:

أولا: لأنهم يئسوا من زحزحة الُمسلمين عنها بالكلية عن طريق النضال الفعلي أو الفكري.

ثانيًا: لأنهم اكتشفوا طرقًا جديدة تختصر لهم المسافة الفارقة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وكان لهذا الاكتشاف وزنه وفائدته بالنسبة للغرب، ومن هذه الطرق: متابعة الأفكار الغربية التي قبلها المسلمون، وتنميتها في صدورهم،

وإطراؤها بالمديح، وزينوا لهم أن البداية والنهاية تكمن في تقبل المسلمين للتطور والتجديد في جميع النواحي السياسية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية. وأصبح مثل الغربيين ودعائهم، بالنسبة لبث تلك الأفكار في العالم الإسلامي: أصبح مثلهم أشبه ما يكون بالمُزارع الذي يتعاهد ما بذره كل يوم، في الوقت الذي فتحوا فيه شهية المسلمين للوصول إلى كل المغريات، التي تزخر بها الحضارة الغربية الجديدة، ولم يقف الغربُ عِندَ حَدِّ الوصول إلى تحقيق هذا الهدف بطريقة منفصلة لدى المسلمين؛ بل عملوا جهودهم على أن يصبح هذا الهدف هو الاتجاه العام لدى كل المسلمين.

وبالتالي تكون النتيجة من وراء تحقيقه هو: إقامة علاقات مشتركة على قدم المساواة بين الغرب وبين العالم الإسلامي، بعد توحد الأفكار والأهداف، ومن ثمّ تذويب العالم الإسلامي في بوتقة الحضارة الغربية إلى الأبد؛ فإن المغلوب ينظر دائمًا إلى الغالب بعين الإجلال والهيبة، ويُحِبّ محاكاته في كل تصرفاته سيئة كانت أو حسنة، وطبيعة صاحب الهزيمة النفسية أنه لا يفرق بين الغث والسمين في تعامله مع المنتصر.

قصور خطير: ظهرت النتيجة لدى العالم الإسلامي، في صورة شنيعة، يمثلها قصور المفكرين والعلماء المسلمين، في الإحجام عن دراسة العالم الغربي بجد، وبيان أفكاره والأخطار التي ستحل بالأمة الإسلامية، إن لم يضعوا حدًّا لذلك الغزو. لم يحصل هذا مع شدة حاجة أبناء المسلمين إلى تفهمه والحذر منه. بل إن الذي حصل هو ضِدُّ هذا، وهو اشتغال بعض المُفكرين دارسي الإنجليزية من المُسلمين بترجمة كتب أولئك في ميادين القصص الغرامية العابثة، والأخبار التافهة، وفي مغامرات بعض أقطاب الغرب وسيرهم، التي تمجد أقطابهم وتوحي للقارئ بعظمة أولئك في شتى الميادين، أو ما كان منها يُوحي بحياة

العصبية والوطنية والقومية، والتعالي على الآخرين، والعودة إلى الافتخار بما عفى عليه من حضارات قديمة، بزعمهم. وأنه يجب العودة لها تحت أشكال متعددة، وسَاعَدَهم أصحابُ الأموال الغربية بكل ما يحتاجونه لتحقيق ذلك.

و لعلنا نسمع ما حصل من الاحتفال المهيب في بعض السنوات بترميم تمثال "أبي الهول" وأنه بلغت تكلفة ترميمه عشرة ملايين دولار، وأن العمل استمر في ذلك قرابة عشر سنوات. وكان الاحتفال بالانتهاء منه يومًا مشهودًا؛ حضره رئيس الدولة وعدد غفير من الوجهاء، والأعيان، وسفراء بعض الدول العربية، وسفراء الدول الغربية، وتبرع "روكفيلر" المليونير اليهوديبمبالغ هائلة -غير مشكور عليها- للبحث عن الآثار الفرعونية، وبنى معهدًا لأجل ذلك على نفقته؛ لسد الحاجة إلى الفنيين؛ لنبش الآثار الفرعونية، في الوقت الذي كان الشعب المصري في أمس الحاجة إلى المساعدة المالية؛ لسد ما دمرته البراكين التي ثارت فيه، وأصبح كثيرٌ من السّكان بدون مأوى ولا غذاء، إلا من بعض المساعدات التي كانت تذكر إذاعة القاهرة أنها لا تكفي لإعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية.

وليس هذا فقط فقد أَتخموا العالم الإسلامي بالدعوة إلى إحياء ما يسمونه بالفن، بجميع أشكاله، وإيجاد كل ما يتطلبه الأمر من بناء مساكن، ومدارس، وإيجاد مدربين.. إلخ. وقد تحقق الكثير من إحياء هذا الفن، الذي كان أكثره موجهًا لتدمير الأخلاق الإسلامية، والعفة، ونزع الحياء من وجوه الفتيان، والفتيات الناشئين. وانتعشت حركة الفن هذه حتى أصبحت ذات رسالة؛ كما يعبرون عنها، وأصبح تحقيقها يعتبر -على حد زعمهم- رسالة ومفخرة وطنية، يجبُ تمجيدها وتقديسها، وحينما تتم المقابلة بين أحد الفنانين في الإذاعة، يقول له المذيع: ماذا تتمنى؟ فيقول: أتمنى على الله أن يوفقني لإكمال الرسالة؟!.

ونحن ندرك السبب من وراء هذا الاهتمام، من قبل الغرب بجوانب الفن المزعوم، والإنفاق السخي على نبش الآثار؛ لأنهم عرفوا أن هذه الأمور هي مقصد الكثير من الناس للتسلية، وأنها ذات أثر جذاب على كل الناس، مهما كان التفاوت بينهم في المعرفة والأعمار، أيضًا ومن الغريب أن تسمع كثيرًا من وسائل الإعلام عند المسلمين، يأتي مصدر البرامج فيها إما تمثيلية غربية، أو ترجمة لكتاب غربي، أو خدمة لكتاب غربي، كذلك حتى لُيخيل للسامع العادي أنّ الحضارة الإسلامية لا شأن لها إلا بالمساجد وإقامة الصلاة فيها فقط، وأنها لا بديل فيها عن تلك البرامج الغربية وهذا الظلم للحضارة الإسلامية سببه جهل أبناء الإسلام وكيد أعدائه فأصبح الإسلام بين أمرين أحلاهما مر بين جهل أبنائه وكيد أعدائه.

الدعوة إلى خلط الفكر الإسلامي، بالفكر الغربي بدعوى تقارب الحضارتين؛ والسير معا لخدمة الإنسانية: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٤] وإذا كان الخُلطاء يبغي بعضهم على بعض، وينتج عن ذلك شر وظلم؛ في الأمور الدنيوية فما بالك إذا كان في الأمور الدينية، حين يُراد خلط الحق بالباطل فما الذي يحصل من ذلك؟ إنه يحصل نتاج مشوه ومشئوم لا خير فيه، وظلم صارخ لا عدل فيه. وتقارب الحضارتين هو وجه آخر لدعوى الأديان؛ فكيف يتجاهل هؤلاء الدعاة الغربيون، ومن سار على طريقتهم من أتباعهم في العالم الإسلامي، من دعاة التغريب؛ كيف يتجاهل هؤلاء الفرق الهائل بين الدين الحق والدين الوضعي، وهو فرق يمثل الفرق بين الحق والباطل والعلم والجهل فأنى يجتمعان؟.

إنّ التقارب الذي يدعو إليه أصحاب الفكر الغربي: إنما يراد به جر المسلمين إلى الغرب، وذوبان الشخصية العزيزة للمسلم، في خضم التيار الغربي؛ بما يملكه

الغرب من وسائل الإغراء التي لا حد لها، ولعَلّ هذه الدعوة نبعت من جراء تراخي قبضة المسلمين على دينهم، والإسفين الذي دقته الحضارة الغربية الحديثة، وقوة التغريب المتنامي في العالم الإسلامي على أيدي المنصّرين والمستشرقين، وأتباعهم من المحسوبين على العالم العربي أو الإسلامي.

ثم إحساس هؤلاء بهذه الفجوات في المسلمين، ومن هنا وقر في أذهان أولئك الكتاب، وجميع القائمين على حركة التغريب: أنه يجب توجيه كافة الإمكانيات والجهود وتجييش الكل لخدمة تلك البذور النامية في أذهان المسلمين نحو حب الحضارة الغربية وأنها السبيل الوحيد للمسلمين إذا أرادوا التقدم والعيش الكريم بزعمهم، وأقطاب الغرب والتغريب كلهم، يشترطون -بالقول أحيانًا وبالفعل أحيانا أخرى- لهذا التواصل والاندماج أن يتم بعيدًا عن حقيقية الإسلام الذي سار عليها في عهوده السابقة، وأن يتم على فلسفة عصرية جديدة بزعمهم، وهي خدمة ظاهرة يراد من ورائها عدم الاهتداء بتعاليم الإسلام الثابتة.

ومن المعلوم مسبقًا: أنّه لو صار تقارب الحضارتين على هذا الأساس؛ لكان الخاسر فيها هم المسلمون بدون شك، حتى ولو كان التقارب أيضًا على دعوى النعرات الجاهلية، من قومية ووطنية، أو تسامح ديني وما إلى ذلك؛ فالنتيجة واحدة على حد قول الشاعر:

من لم يمت بالسيفِ مات بغيرهِ ❖ تعدَّدت الأسبابُ والموتُ واحدُ

فإن الهدف الأخير للغرب: هو استعمار بلدان المسلمين، وعودة جنودهم إلى ثكناتهم السابقة، ومحو الشخصية الإسلامية من القلوب، ولقد تفوق الغرب على غيره بحسب الترتيب، وإحكام الخطط بمكر ودهاء، وهو أمرٌ واقع وظاهر، وما حصل الآن من استعمار الغرب للعراق العربي المسلم، مما يندى له الجبين ويثير في النفوس الأسى والحزن والإحباط الشديد.

نتيجة خطيرة: الذي يبدو -والله أعلم- أن الحضارة الغربية ستلتف على العالم الإسلامي نهائيًا، ما دامت أوضاع المسلمين بهذا الحال، من الفقر والتقهقر، وعدم الاستفادة من العقول، ومما أودعه الله في داخل الأرض من الخيرات العظيمة. وما داموا بهذا التفرق الشنيع، وما دام اسمها "الدول النامية" فلن يمكنها الوقوف أمام الحضارة الغربية العاتية، التي استحوذت على كل ما يتطلع إليه البشر من التفوق في سائر الفنون؛ من اقتصاد وصناعة وتجارة، وطب وغير ذلك من الأمور التي سترضخ المسلمين لهم طوعًا أو كرهًا للحصول على أجزاء منها؛ وليس كلها.

فإن من احتاج إلى شيء خضع له، والإنسان أسير من أحسن إليه، وأعتقد أن ما يتبجح به بعض الناس، من أنّ العَالَم الإسلامي بخير، ولا ينقصهم أي شيء، أعتقد أن قائله إما أن يكون جاهلًا يريد تثبيط المسلمين وإلهاءهم عن النظر إلى واقعهم الضحل، كما أعتقد أن ثالثة الأثافي على المسلمين هي هذه الثغرة الهائلة، التي فتحها نظام العراق البعثي الصليبي الذي أعطى الغرب المتربص الضوء الأخضر، والفرصة السانحة؛ لتغلغل أفكارهم وانتشار حضارتهم ونصرانيتهم بكل صلف وكبرياء.وقد أصبح العراق في عهد طواغيته اليوم المثل الثاني -بعد فلسطين- على إذلال المسلمين وانكسار شوكتهم.

ومما يُلاحظ أنّ الدعوة إلى تقارُب الحضارة الإسلامية مع الحضارة الغربية، أحيانًا تأتي هذه الدعوة في شكل طلب صداقة؛ صداقة الذئب والحمل، أو علاقات حميمة بين الإسلام، والمسيحية في مقابل وقفة الجميع ضد التيار الشيوعي، وأنه يجب أن توجه كل الجهود ضده؛ فهو العدو المشترك، وقد انكشفت هذه الخدعة بسقوط الشيوعية.

وأحيانًا تأتي بدافع حُبّ تطوير الشعوب إلى التقارب، ومدارسة الجوانب والأمور التي يجب أن يقفها الجميع ضد الإلحاد، ما لم يكن ذلك التقارب على حساب الإسلام، أو هضم حقوق المسلمين؛ إلا أنه يتبين أن العالم الغربي، وضمن نفوذه السياسي، والاقتصادي ليس إلا عدو مبين، والأدلة على هذا كثيرة من أقواها: وقوف الغرب إلى جانب الشيوعية عندما يُحاط بها، وعداؤهم السافر للإسلام والمسلمين وخصوصًا في هذه الأيام.حيثُ أخرجت دول الكفر أضغانها على الإسلام والمسلمين؛ فصرحوا بكل وقاحة، بأنّ عدو حضارة الغرب هم المسلمون، والإسلام المتخلف بزعمهم، ولأن الكفر ملة واحدة؛ فإنك تجد أن أعداء الإسلام دائمًا، يقفون إلى جانب بعضهم بعضًا في محاربة لانتشار الإسلام، وحصاره ورميهم له بأنه غير متطور، ويجبُ تطويره كشرط أساس، لُمسايرته الحضارة الغربية.

ولا تسأل بعد ذلك عن هذا التطور الذي يدعون إليه، ولا عن نتائجه الوخيمة وعن الشر الكامن في مبادئه، ولا عن قيمة المجتمعات الإسلامية، في ظل هذا التطور المزعوم؛ فأين إذًا الدعوة إلى تلاحم النصرانية والمسيحية ضد الإلحاد، ما داموا لا ينظرون إلى الإسلام إلا بهذه النظرة الظالمة. ومن هنا وقع الكثير من الكتاب المسلمين -بحسن نية- في بعضهم، وبمكر ودهاء في أكثرهم، من دعوى مسايرة أحكام الشريعة الإسلامية للأحكام الوضعية الغربية؛ لكي يتم بناء هذا التمثال الهزيل، ثم ركبوا كل صعب وذلول لتحقيق هذا الادعاء الباطل المستحيل؛ فما من قضية غربية إلا ووجد لها من بعض كتاب المسلمين من يقول: إن الإسلام أيضًا قد اشتمل على بيانها؛ فلا ينبغي أن يعاب.

وأصبح الإسلام كأنه مذنب يحتاج إلى المحامين عنه؛ لامتصاص أخطائه وذنوبه أمام الحضارة الغربية؛ حسب دفاع هؤلاء، ولا شك أن دعوى مثل هذا التطور

هو قتل للإسلام على تؤدة، وأنه لن يتم إلا إذا تخلى المسلمون عن دينهم نهائيا. وهذا الصنف من المحامين خُدِعُوا في أنفسهم، وخَدَعوا غيرهم؛ فقد أوقفوا أنفسهم للاعتذار عن الإسلام أمام كل قضية يخالف فيها الإسلام ما نادت به الحضارة الغربية العصرية فحينما ظهرت الاشتراكية قالوا: والإسلام أيضًا فيه اشتراكية، بل وافتروا أن مؤسس الاشتراكية في الإسلام هو الصحابي الجليل أبو ذر > وحاشاه من إفكهم.

وحينما ظهرت الديمقراطية، قالوا: والإسلام أيضًا ديمقراطي، وحينما وجد تعدد الأحزاب، قالوا: والإسلام لا يمنع هذا، وحينما ظهر دعاة تحرير المرأة، وأن لها حق الانتخاب والوصول إلى الحكم، قالوا: والإسلام أيضًا قرر لها هذا، وتكلم هؤلاء عن الإسلام بما لم يحيطوا بعلمه؛ منهم الماكر المخادع، ومنهم من كان عن حسن قصد كي يدفع عن الإسلام تهمة عدم التطور، وصفة الرَّجْعِيّة التي وصفوا بها الإسلام كذبًا وزورًا، وهو دفاع المتقهقر غير الواثق بدينه ونصاعته لا دفاع المتيقن الثابت.

الآثار السيئة للمذاهب الفكرية المعاصرة

عناصر الدرس

مصطلح الفكر الإسلامي مصطلح جديد

قبل الشروع في الكلام على مختلف الآثار السيئة الناتجة عن المذاهب الفكرية المعاصرة، لا بد من التنبيه إلى أن مصطلح "الفكر الإسلامي" مصطلح جديد، ليس له مدلول شرعي محدد يمكن من خلاله أن نحكم عليه بإطلاق: وقد كَثُر في هذا العصر الذين يتكلمون عن الإسلام باسم الفكر، فمن جعل أساس ذلك الشرع والعلم بالكتاب والسنة سَلِم، وقام بواجبه الشرعي على أكمل وجه، ومن حاد عن ذلك وتكلم بالجهل، بل قد يعادي العلم، ويرى أنه ولى زمن الاهتمام بالعلم الشرعي عِياذًا بالله، فهو بحسب حيده عن الأصل، فمنهم من تكون أخطاؤه يسيرة، ومنهم من تبلغ أخطاؤه مبلغًا لا يمكن عذره فيها ولا التغاضي عنها، ومنهم من يسمى "مفكرًا إسلاميًّا". وإنما هو مفكر ليس بالإسلام وإنما يفكر برأيه وبطريقته وبما يهوى. فظهرت مدارس مختلفة في الفكر والتفكير، وظهر مفكرون متنوعون، وهذا الذي ظهر من الفكر والمفكرين وما يسمى "بالفكر الإسلامي" في العصر الحديث، كان لظهوره ونشأته أسباب؛ ومن أعظم أسباب ذلك:

كثرة الهجوم على الإسلام في العصر الحديث: فإن ابتعاد قلب الأمة عن عقيدتها وتاريخها، وعن حضارتها وعن ماضيها، وعن مؤهلاتها؛ نشأ في العصر الحديث مع المدِّ الاستعماري الذي كانت له وجهتان: وجهة عسكرية، ووجهة أخرى وهي الغزو الثقافي، والتبعية الثقافية؛ حتَّى صار في المسلمين من هو تابع في فهم الإسلام لأعداء الإسلام، متأثرًا بالمستشرقين وكتاباتهم المتنوعة، في تحليل أهداف الإسلام، وتحليل أحكامه، وتحليل آرائه، وتحليل تاريخه، وتحليل قضاياه... إلخ.

وغايتهم هي: الطعن في الإسلام، وقذف الشبهات بين أبناء المسلمين؛ لإبعادهم عن الإسلام، وعن الفهم الصحيح للإسلام؛ فقام طائفة من المسلمين في البداية يتكلمون عن تلك المسائل، التي طرقها المستشرقون أعداء الملة، وأعداء الدين، وأعداء هذه الأمة؛ تكلموا عنها بنفس منطقهم؛ لأجل أن يُقنعوا النّاسَ وأن تكون اللغة بينهم مَتَعارَفَة؛ فلم يردوا عليهم بالعلم، وإنّما رَدّوا على أفكار المستشرقين غير الإسلامية، بأفكار مماثلة في الصيغة وفي الاستنتاج والاستدلال، والأخذ والعَطَاء، والمراجع والمصادر ووسيلة الإقناع؛ حتَّى صار ذلك فكرًا مقابلًا لفكرٍ؛ فظهر الفكر الاستشراقي.

وفي المقابل ظهر فكر آخر سُمِّيَ فيما بعد الفكر الإسلامي؛ لأنه يقابل ذلك الفكر الاستعماري الاستشراقي، ولهذا أوّلُ ما نَشأ هذا الفكر، ونشأ المُفكرون كانَ للدّفاع عن الإسلام، وإلى رد هجمات المستشرقين، وهجمات أعداء الإسلام. فكل من أراد أن يرد، وكل من أراد أن يدافع من المثقفين، أو من العلماء أو ممن عنده بدايات علم، أو ممن عنده اطلاع وقراءة عامة، كتب في الدفاع عن الإسلام حمية له، وبيانًا لمحاسنه وردًا على المفتريات.

وهذه الرُّدود في كثير من الأحيان؛ يُشترط فيها العلم بأحكام الشريعة بتفصيل، بل وأحيانًا تحتاج إلى تدخل الأئمة المجتهدين من هذه الأمة، فضلًا عن طلبة العلم؛ فضلا عمن هو جاهل بأحكام الشريعة، ونتج عن ذلك فساد من جهتين؛ إحداهما: نشر الجهل، وبث الخطأ والباطل في الناس. والثانية: كون الردود التي يقومون بها هزيلةً؛ غير مؤدية لغايتها المرجوة.

فإذا كانت الكتابة بغير علم ولا هدى، أو يراد بها التملق أو الخداع، أو تقريب الأفكار الباطلة إلى الإسلام؛ فإنها لا يحق لها الانتساب إلى فكر علماء الإسلام وجهودهم، كما فعله الكثير ممن كتب في هذا المجال، عن تطور الإسلام

ومرونته، أو تقاربه مع الأديان الأخرى، بزعمهم. أو كانت في شئون سياسية بعيدة عن منهج الإسلام، ويحاول كاتبها أن يلوي أعناق نصوص الإسلام؛ لتنسجم مع رغبته في تقرير فكرته تلك، فإنها عمل شخصي، وليس هو المطلوب لإثراء العمل الإسلامي.

فهناك من يُحاول أن يُقَدّم الإسلام على أنه مَرِنٌ جدًّا، بحيث تتوافق نصوصه مع كل ما هب ودب من الأفكار، ولا شك أن هذا خطأ فاحش، وهناك من يقدمه على أنه سياسة أو اقتصاد، وهناك من يقدمه على أنه ثقافة اجتماعية، أو أنه حركاتٍ ثورية صاخبة، أو أنه زهد وعبادة وانزواء عن الناس.. إلى غير ذلك من الأمور التي وقع فيها الكثير عن قصد وعن غير قصد.

وهذه التجزئة لمفهوم الإسلام قاصرة، وغير مُفيدة، ولا تمثل حقيقة الإسلام الشاملة، ومزاياه العديدة التي طرقت كل جوانب الحياة، تحت عموميات شاملة، وقواعد يسبح في ظلها الفكر الإنساني، في شتى مجالات قدرته. على أنه لا محذور أن نقتصر على إشباع جزئية ما، وتقديمها على أنها من صميم الإسلام، إذا كانت كذلك في مقابل الرد على من يزعم أن الإسلام لا يتطرق إليها، أو أن المسلمين لا يعرفونها، ولكن مع بيان أن الإسلام شامل وكامل في بيان جميع القضايا، وأن تلك الجزئية، إنما هي نقطة في محيط الإسلام، مع ربطها ربطًا وثيقًا بالنصوص المؤيدة أو المانعة، وذلك لئلا نستدرج في التوسُع؛ فنقول على الإسلام، ونتكلف التدليل؛ ليتوافق مع الأفكار البشرية الوضعية.

ولا ريب أنّ الإسلام قد تطرق إلى كل ما يهم البشر في حياتهم، ولا ريب كذلك أن المسلمين كانت لهم جهود في خدمته، قدموها ابتغاء مرضاة الله، ونفع البشر من خلال اطلاعهم على مزايا الإسلام، وخصائصه العظيمة، التي كانت قابلة لكل ما يستجد في أذهانهم من علوم دينية، أو دنيوية مستحدثة؛ بِحُكم أن

الإسلامَ هو آخر الديانات، والمهيمن على الدين كله. وفي النهاية أعتقد أن ترك التعبير بكلمة المُفكر أو الفكر الإسلامي، واستبدالها بكلمة التفكير عند المسلمين هو الأفضل. والله تعالى أعلم.

الوسائل والمناهج التي يجب أن نسلكها لمواجهة الأفكار الهدامة

لا بد من بيان الوسائل والمناهج التي يجب أن نسلكها لمواجهة أفكار الشرق والغرب الهدامة:

لقد جاءت الحضارة الغربية كالسيل المزبد تريد أن تجتث كل شيء في طريقها، صالحًا أو غير صالح، دونَ تمييز؛ جاءت وهي تحمل مزيجًا هائلًا من العقائد، والطبيعة، والعمران والاجتماع، والتّجَارب المختلفة؛ في شتى الاتجاهات والفنون، إنّها خليطٌ يُحَيّر العقل؛ حيثُ يقفُ أمامها متسائلًا: هل أرفض تلك الحضارة برمتها، أم آخذ منها وأترك لها؟ ذلك أن أخذها يعني الاستسلام لها بكل ما فيها من خير أو شر، وأن مصير الأمة الإسلامية سيكون هو نفسه مصير الغرب في تعامله وفي جاهليته، وأن يتحمل تلك الأخطار التي تهدد المجتمعات الغربية في أخلاقها، وفي كل سلوكها، كما أنّ تَركها يعني تفويت منافع ومصالح نحن في أمسِّ الحاجة إليها. إذًا؛ فما هو الحل الذي ينبغي أن يسلكه الشخص الذي يريد الحفاظ على دينه، وقيمه الإسلامية، والاستفادة كذلك من الحضارة الغربية؟!! والجواب فيما يلي بالإيجاز:

الخيار الأول: وهو رفض الحضارة الغربية برمتها. هذا الموقف غير سليم ولا يؤيده العقل، ولا الواقع؛ لأنه يؤدي إلى انعزال العالم الإسلامي، وانطوائه، وبعده عن الأسباب التي تقويه اقتصاديًّا وحربيًّا أيضًا، وذلك لما أودعه الله في

العالم الغربي من أسباب القوة المادية، المشاهدة التي لا يجهلها أحد، في الوقت الذي تأخر فيه العالم الإسلامي، ولم يحققوا ما أراده الله منهم، من التقدم المادي، وأسباب القوة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

بعد أن دعاهم إلى استعمال عقولهم، وشحذ أفكارهم؛ للاستفادة من كل شيء، لا يصطدم مع دينهم الذي ارتضاه لهم، وأخبرهم في أكثر من آية؛ أنه سخر لهم كل ما في هذا الكون، وجعله هبة لهم، كما أرشَدَهم إلى بعض أدوات القوة، كرباط الخيل الذي يساوي الآن الطائرات والسُّفن الحربية، وإلى الحَديد الذي هو قوام الصناعات الحربية، وغيرِها قديمًا وحديثًا، وغير ذلك من أنواع القوة المادية.

كما أنّ لنا في رَسولِ الله ﷺ وأصحابه } أسوة حسنة، فقد كانوا يبادرون إلى الاستفادة من أي خبرة فيها نفع لهم، وقوة للإسلام؛ كحفرهم الخندق بمشورة سلمان الفارسي، وأمر رسول الله ﷺ لأبيٍّ أن يتعلم لغة اليهود واشتراطه ﷺ على بعض الأسرى أن يعلم أولاد المسلمين الكتابة، وغير ذلك مما فيه نفع المسلمين، وزيادة قوتهم. ولن تجد قطرًا من الأقطار منطويًا على نفسه، غير مستفيد من خبرات الآخرين في شتى المجالات، التي لا تتعارض مع دينه، إلا وجدت ذلك القطر مُتخلفًا في كل شئونه الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، ووجدت الجهل والخرافات؛ قد طغت على أهله، كما تطغى الفيضانات على ما حولها، بل ووجدت ذلك القطر يتنفس الصعداء بين فترة وأخرى، في شكل عِصيان مَدني، وتَمَرّد عَسكري، وشَغَبٍ بصور مختلفة؛ لما يُحِسّه أهله من الغُبن

في عيشتهم المتخلفة، والقلق الذي يساورهم على مستقبلهم، ومستقبل أولادهم من بعدهم.

إلا أن هذا لا يعني أن يفتح العالم الإسلامي ذراعيه للحضارة الغربية، بكل ما فيها من سلبيات؛ لا تقرها الشريعة الإسلامية، كما فعل الكثير من المسلمين، سواء أكان ذلك في شكل أفراد أو جماعات، أو دول؛ فلقد لهثوا للحاق بركب الحضارة كما يسمونه دون تروّ وتأنٍّ؛ فكانت العاقبة ما يراه كل مسلم من تفشي الأوضاع الفاسدة، وانتشار الرذائل الغربية، بشكل واضح في أكثر الأقطار الإسلامية، إلا من رحم الله تعالى، وهم قليل بالنسبة لغيرهم، فأقصي الحجاب للمرأة، وخرجت سافرة بل ولا يسترها إلا القليل من الثياب التي تجعلهن كاسيات عاريات، وأحيانًا شبه عاريات.

ولم يعُد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في كثير من ديار المسلمين أي مكان؛ فيهم لابتداع ما يسمونه بالحرية الشخصية له، وانتشار الجريمة بشكل رهيب، وقس على ذلك شئون الحياة المُختلفة التي يَسبحُ فيها العالم المادي، ومن تأثر به على طريقة عيشة البهائم. ولا أظن أحدًا في حاجة إلى ذكر أسماء تلك البلدان الإسلامية، التي غمرتها الحياة الغربية، بكل ما فيها من عهر وسخافة ومجون، تحت أسماء بَرّاقة خادعة، كالتطور. والإنسان العصري والتقدمي، وما إلى ذلك. فكانت النتيجة أن أدخلوا رءوسهم في الحياة الغربية على رجل واحدة؛ لأن الهدم أسهل من البناء، فهدموا دون بناء، فقد حققوا سيئات الغرب ورذائله، ولم يتمكنوا من تحقيق الجانب الآخر المشرق، المتمثل في تلك النهضة الجبارة، في ميدان الصناعة التي تزخر بها بلاد الغرب.

الخيار الثاني: وهو أخذ الحضارة الغربية على علاتها؛ ما طاب منها وما خبث: ويعبُّها كلهفة الظامئ المتلهف إلى الماء العذب، دون التفكير في الفوارق الطبيعية

بين تلك الحضارة، وحضارة الإسلام في السياسة، والتفكير، والنظم الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وسائر السلوك كما حصل في تركيا بعد أن تأخر خلفاؤها، في القوة المادية والقوة الدينية، وتمالأ عليها الأعداء من كل جانب؛ حيث سقطت فريسة الحضارة الغربية، على يد زعماء افتتنوا بما عند الغرب من التقدم المادي، والإلحاد الذي لا حد لجماحه.

لقد واجهت تركيا الضعيفة طوفان الحضارة الغربية القوية، دون تبصر ووعي، وبعقلية غير متفهمة للأوضاع الجديدة، بل تواقة إلى العلمانية الملحدة، خصوصًا وقد برز شبابٌ كانت ثقافتهم غربية، تمامًا ينظرون إلى الإسلام وإلى تعاليمه، على أنه عقبة كأداء في سبيل رقيهم وتقدمهم. وأن على الحضارة الغربية أن تقوم على أنقاضه راضية مطمئنة، كما شاء لها أولئك الثائرون أمثال "أتاتورك" وأتباعه الذين نادوا بإلحاق تركيا بالحضارة الغربية في ذلك، ما وسعهم من الدعاية لهذا الاتجاه، وقلبوا ظهر المجن لكل حضارة يمت إليها الأتراك بصلة، وخصوصًا الحضارة الإسلامية، وأتاتورك هو الشخصية الهامة التي كان عليها وزر تحويل تركيا إلى ركاب الحضارة الغربية، وهو أعدى أعداء الإسلام في وقته، عاقبه الله بما يستحق.

ووجد كذلك مفكرون متحمسون للحضارة الغربية، ونشرها بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات، مثل: "سيد أحمد خان" الهندي و" قاسم أمين" المصري صاحب كتاب (تحرير المرأة) وكتاب: (المرأة الجديدة) و"طه حسين" الذي كان من كبار المتعصبين للحضارة الغربية، ومن كبار المفاخرين بها وكان يود لو أن العالم الإسلامي كله وخصوصًا مصر تنسلخ من كل ماضيها، وتتقدم باحترام لتتقمص الحضارة الغربية بكل ما فيها.

وعلى مُستوى أولي الأمر من الرؤساء مثل: "الحبيب بورقيبة" الذي ظهر إلحاده وعداؤه للدين الإسلامي، ولنبيه العظيم في تصريحاته التي كان يُلقيها في المناسبات مثل: تهجمه على القرآن الكريم، ووصفه له بالتناقض، وتهجمه على الرسول ﷺ وأنه بدويٌّ يجوب الصحراء، ويؤمن بالخرافات. وغير ذلك من كفرياته، وقد طلب إليه كثير من العلماء منهم الشيخ العلامة ابن باز -رحمه الله- أن يتوب ويرجع إلى الإسلام. والحاصل؛ أن هذا المسلك مرفوض، ولا ينبغي للمسلمين أن يقعوا فيه؛ فإن طريق الحضارة الغربية مملوء بالمخاطر الأخلاقية والدينية والعاقل من اتعظ بغيره وقد أسفر الصبح لذي عينين.

الخيار الثالث: وهو الأخذ من تلك الحضارة بحذر وترو دون اندفاع: فلا ينظر إليها على أنها هي المثل الأعلى للحياة أو المورد العذب؛ وإنما يُنظر إليها على أنها متاع الحياة الدنيا، وأنه سيفارقها أو تفارقه؛ فهي عرض زائل مهما بدت في المظهر الأنيق والصور الخداعة البراقة. فيعتقد المؤمن اعتقادًا جازمًا أن الحياة السعيدة إنّما هي الحياة الآخرة؛ التي جعلها الله ثوابًا لأوليائه، وأن ما وجد على ظهر الأرض من أنواع المتع المباحة؛ فإنما هي عون له من الله على الاستعداد لتلك الحياة، يتمثل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]. فيجمع بين الدنيا والآخرة، أو يجمع الدنيا في يده لا في قلبه، فلا يفتتن بها افتتان من يسمون أنفسهم، أصحاب التجديد الذين لا هَمَّ لَهم إلا الحياة المادية وزخرفها، أو جماعة التغريب الذين ينظرون بكل تقديس واحترام إلى الحضارة الغربية على أنها هي كل شيء في هذا الوجود. لا حرج على المسلم أن يستفيد من أي أمر لا يتعارض مع دينه، لا حرج عليه، من أن يستفيد من مصانع الغرب، وآلاته المختلفة، ما دام ذلك لم يصل إلى أن يكون على حساب دينه وقيمه، أو

تقليدًا أعمى لا يُفَرّق فيه بين المفاهيم الغربية، والمفاهيم الإسلامية، كما هو حال كثير من الأقطار الإسلامية مع الأسف.

ولذلك لا يَحتاج الشخص إلى تفكير عميق، أو دقة ملاحظة، كي تتبين له تلك الأوضاع، التي تردت فيها تلك الأقطار عن وعي أو عن غير وعي، حيث كانوا كحاطب ليل، أو كتلميذ صغير أمام أستاذه، ينظرون إلى الغرب بكل انبهار، ونسوا أنهم يملكون ما لا يملكه الغرب من القيم والمبادئ الإلهية، التي لا يُوجد لها مثيل في تنظيم الحياة البشرية، من جميع الجوانب.

ونسوا كذلك أنه يجب أن يكونوا هم القدوة للغرب المتحير في سلوكه، المتخبط في جهله، وأن تقدمهم إنّما هو ظاهر من الحياة الدنيا، وأنّ السعادة كلها في أيدي المسلمين، لو أرادوا تحقيقها، حينما يعتزون بدينهم، ويوصلون إلى تلك القلوب الخاوية، والأفكار البالية في العالم الجاهلي؛ فيرتوون من معينه الفياض، ويخرجون من حياة الفسق والفجور، والظلم والطغيان إلى عدل الإسلام ونوره المشرق دائمًا.

بعض الآثار السيئة التي خلفتها المذاهب الفكرية المعاصرة

١. **فساد الاعتقاد:** أعظم فساد حل بالأمة الإسلامية بسبب انتشار المذاهب الفكرية المعاصرة، هو العقائد الباطلة، التي انتشرت في الناس، وأخذت مكانًا لها في أفهامهم وقلوبهم، فانتشر الإلحاد حتى آل الأمر ببعض المسلمين أن اعتنقوا الإلحاد المطلق أو النسبي، وارتدوا عن الإسلام، وأعلنوا الكفر البواح، حيث جهروا بإنكار الخالق، وتشبثوا ببعض النظريات التي حتى عند أصحابها لا تساوي شيئًا، ولا تشتمل على حجة ولا برهان، وإنما هو التقليد الأعمى الذي جرهم لترديد كلمات أحيانا لا يعرفون معناها كالببغاوات.

ومنها: مسالك الفلاسفة المنتسبين للإسلام، من الباطنية وغيرهم، ممن ظهر مقصده من الطعن في الدين، ونقض أصوله التي أجمعت عليها الأمة، والمعلومة لدى المسلمين بالضرورة، من القول بقدم العالم، أو إنكار البعث أو بعض تفاصيله كالبرزخ ونحوه. ومثلها: العقائد الضالة التي نشأت في هذه الأمة، والتي سعى لإحيائها المستشرقون، بنشر أفكارها، أو تحقيق وطباعة كتب أصحابها، لابن عربي، وابن سبعين وجلال الدين الرومي، وبعض كتب المعتزلة، ونحوهم ممن تأثر به بعض المسلمين بأفكارهم، عبر هذه القنوات الخطيرة، ودعم بعض الطرائق البدعية في بلاد المسلمين، وتمويلهم مثل الطرق الصوفية، والزاوية التي تتبناها، وتشجيع انتشارها في بلاد المسلمين باسم الإسلام المعتدل، أو نحو ذلك من العبارات الرنانة في هذا العصر للتمكين لهم، وإعطائهم مصداقية ما عند المسلمين.

وهذا أمر ملموس في الواقع من حال المسلمين، وتوجهاتهم الفكرية في هذا العصر، لا سيما مع ظهور المسالك الإعلامية الحديثة كالقنوات الفضائية، والإنترنت ونحوها.

٢. عدم تطبيق الشريعة الإسلامية: إن من أكبر الرزايا التي حلت ببعض المجتمعات الإسلامية، وبغيرها هو: إقصاء الشريعة الإسلامية، أو التهاون في تطبيقها، أو الاحتيال لتمييع أحكامها عمدًا، أو تحت مبررات شخصية كثيرة، سواء أكانت صادقة أم كاذبة. إنّ العالم الإسلامي يُعاني في هذا الزمن من ظاهرة الانبهار، بما عند أعداء الإسلام، ويُعاني من ظاهرة التخلف المفروض عليهم؛ لأن أراضي المسلمين مشهورة بخصوبتها وكثرة ثرواتها، كما يعاني من تكالب أعداء الإسلام عليه، كما يعاني من جهل أبنائه، وكيد أعدائه، وحلول الكوارث والانهزامات على أيدي اليهود والنصارى والمجوس والملاحدة.

تداعت عليه الأمم كما تداعى الأكلة على القصعة، كما أخبر النبي ﷺ بذلك، وصارت كثرة المسلمين لا تفرح كثيرًا، بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السيل، حين صاروا يتكففون الشرق والغرب، يَستمدون منهم قوانين معيشتهم، ويطبقون أفكارهم الضالة، ويحكمون دساتيرهم الوضعية. فكثير من المسلمين لا هم بقوا على دينهم، يعتزون به ويفتخرون بالانتماء إليه، ولا هم وصلوا إلى ما وصل إليه أعداؤهم من التقدم المادي، فكانت النتيجة أنهم خسروا دينهم ودنياهم؛ فعادوا باللائمة على الشريعة الإسلامية، وهي حجة الكاذب المنقطع.

ومن العجيب: أنهم يحكمون على الإسلام وهم لا يُحَكِّمونه، ويتهجمون عليه وهم لا يعرفونه، ولم يجربوه في حياتهم اليومية، إنهم متحيرون ضاقت صدورهم به، من جراء الضغوط المختلفة عليهم خارجيًّا وداخليًّا، المسلمون الحقيقيون يُطالبونهم بتطبيق الشريعة الإسلامية، وأعداء الإسلام يطالبونهم بإقصائه وإحلال مذاهبهم المختلفة محله، هذا في الوقت الذي اضمحلت فيه شخصياتهم التي كادت أن تنصهر في بوتقة الحضارات الجاهلية الشرقية والغربية.

لقد توالت صيحات أعداء الإسلام، يُصَدّق بعضهم بعضًا أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو التأخر والرجعية والجمود، وأن في نبذها التقدم والتطور، وصدق المغفلون هذا الهراء، فإذا بهم يصيحون إلى جانب سفاكي دمائهم، بمثل صيحاتهم، يتبعونهم كما تتبع الشاة الذئب من الرعب. ولم يبخل عليهم أعداء الإسلام بإطلاق الألقاب الفخمة والعبارات الرنانة ليتموا استبعادهم لهم من ناحية وليستجلبوا بهم غيرهم ممن لم يقع تحت تأثير شبهاتهم؛ كاستدراج الفيل المدرب العميل لبقية الفيلة ليدخلوا الحظيرة، كما أوصى بذلك "زويمر".

يجب أن يَعرف كل من لا يطبق الإسلام: أن الشريعة الإسلامية كاملة لا ينقصها شيء، وقد شَهِدَ رَبُّ الكون وخالقه بأنها كاملة، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال النبي ﷺ: ((لقد جئتكم بها بيضاء نقية؛ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)). أكمل الله بالإسلام الدين وأتم به النعمة ورضيه لعباده، فما بعد هذا كله؟!! هدي الإسلام في العقيدة واضح تمام الوضوح، وهديه في الأحكام والعقوبات واضح تمام الوضوح، وهو سبيل الأمن والاستقرار، وهكذا في كل شأن من شئون الحياة، فلماذا لم يجربه الهاربون عنه ليتفيئوا ظلاله، وليعيشوا الحياة السعيدة الخالية من الشقاء والحرمان والأحقاد والذل والتبعية لمن ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ألم يعلم المنهزمون من المسلمين أنّ أهل الحضارات القديمة العريقة، قد تركوا حضاراتهم حينما عرفوا الحضارة الإسلامية وسموها العجيب، وأنّ أهل الديانات قد تركوا دياناتهم عن طواعية، ورغبة في الإسلام؛ حينما علموا شأنه العظيم، وصاروا جنودا بواسل لحمايته والدفاع عنه؛ لا تأخذهم في الله لومة لائم، ألم يعلموا أن الله أعز أسلافهم بالدين حينما حكموه. لقد انحصر الحكم الإسلامي لشعوب العالم، بعد خروج العرب الفاتحين، ولكن العقيدة الإسلامية ظلت حية في قلوبهم، لم تنحصر ولم تضعف، وظل حنينهم إلى الإسلام وأحكامه العادلة خفاقًا في قلوبهم، رغم ما يُحيط بهم من جبروت حكام ضالين، محاربين للإسلام وأهله، ليلًا ونهارًا سرًّا وإعلانًا.

وعلى الذين يَدّعون الإسلام، أو يحكمون باسم الإسلام، وهم يستحيون أن يعبروا به، عليهم أن يفيقوا، وأن يعلموا أن عزهم ومجدهم ودوام حكمهم هو في تطبيق الشريعة الإسلامية، لو كانوا يعقلون. وأن يعلموا أن في قتل القاتل حياة

لبقية الناس، وفي قطع يد السارق أمانًا للأموال لتبقى محفوظة لأهلها دون تعد عليها، وأن في تحريم الربا والغش مفخرة للإسلام؛ وكله مفاخر. وفي تحريمه الخمر حفظًا للعقول، وفي رجم الزاني المحصن حفظًا للأعراض، وصيانة للأنساب، وبُعدًا عن الأمراض.

وهكذا فإن في كل أحكام الشريعة الخير والسعادة، والعيش الهنيء الذي يزعمون أنهم يريدونه لشعوبهم وأوطانهم، وهم يصدون عن الإسلام؛ فلماذا لم يردوا هذا المنهل العذب. أي: إلى الحكم بالشريعة الإسلامية لمن يبيح في دستوره التعامل بالربا علنًا، أو تحليل المحرمات كالخمر والزنا، وإقامة بيوت الدعارة وحمايتها. ومحاربة دعاة الإسلام، وتلفيق التهم ضدهم للتنفير عنهم. واختراع ما يُبيح قَتلهم، ومحاربة التعليم الإسلامي ومدارسه، وإهمال المساجد أو تخريبها، والاستهزاء بها وإباحة أنواع المجون من رقص النساء، أمام أولئك الحكام الجهلة بالإسلام في حفلات صاخبة، وسمر فاضح.

إن كثيرًا من أبناء المسلمين هم حرب لا هوادة فيها ضد الإسلام وتطبيق الشريعة، خلفوا الاستعمار، وصاروا أشد وطأة على شعوبهم، وأكثر فحشًا من أيام الاستعمار؛ لأنهم ماجنون بطبعهم وزيادة على ذلك يحبون التزلف إلى سلفهم رؤساء الاستعمار الملحدين. وشجعوا بذلك قادة الكفر والإلحاد؛ فتبجحوا بأنّ ما هم عليه هو الصحيح والصواب، وما عليه المسلمون هو الضلال بدليل أن المسلمين رموا دينهم خلف ظهورهم وتلطفوا لهم لإعطائهم دساتيرهم التقدمية الجاهلية، بدل التشريع الإسلامي.

ومن الملاحظ أن وسائل أعداء الإسلام الإعلامية: المقروءة، والمسموعة، والمشاهدة، كلها تتكتل في صف واحد، رغم ما بينهم من الخلافات، لمواجهة أي حركة إسلامية، أو أي نشاط للدعوة إلى الإسلام، وترمي القائمين بذلك عن

سهم واحد، وواقعنا المعاصر أقوى شاهد، خصوصًا بعد ما يسمونه الإرهاب على مدينتي نيويورك وواشنطن، واستغلالهم لهذا الحادث استغلالًا فاحشًا.

وأقصيت الشريعة الإسلامية وتطبيقها في معظم ديار المسلمين، وحرم على الخطباء والوعاظ، ورجال الفكر طرق الجوانب التي تَمَسّ مُعالجة الإسلام للقوانين المدنية، والتي استوردتها الحكومات الموالية للشرق أو الغرب، أو تبين خطورة المذاهب الفكرية الضالة. وحددت فيها العقوبات الصارمة بحجة أن طرقها يفضي إلى التدخل في السياسة العامة للدولة. أو هو خروج عليها، ومن خرج على الدولة، فقد أخل بالأمن وناصب الشعب العداء؛ فتصدر القرارات العاجلة باسم الشعب بمعاقبة كل من يجرؤ على مخالفة النظام العام للدولة.

فأين حرية الكلمة التي يتشدقون بأنها مضمونة لكل فرد، بل هي حيل وتضليل، والشعب بريء من تلك الحيل الإجرامية، لعملاء أعداء الإسلام من العلمانيين وغيرهم، بل إن كلامهم باسم الشعوب يشبه كلام الجني من داخل الإنسان بعد أن يصرعه، ولا أعتقد أن شخصًا يشكُّ في أن العالم اليوم يعيش في فراغ حقيقي؛ فالنصرانية أفلستْ فهي تقدم دينًا غير معقول، وخرافات سخيفة، واليهودية دينهم المادة والعنصرية، والشيوعية ماتت في عقر دارها.

والمذاهب الفكرية تتطاحن فيما بينها للاستعلاء في الأرض، ولم يبق من منقذ سليم وحيد للبشرية غير الإسلام، الذي ارتضاه الله ﷻ وتكفل بحفظه، ورَدّ كيد أعدائه إلى نحورهم على مر الزمن، وصلح به أمر البشر قديمًا، وسيصلحهم حديثًا حينما يجربون تطبيقه ويوفقون للالتزام به، والناس عظة واضحة في الحياة السعيدة التي تنعم به الدولة التي تطبق الشريعة الغراء.

تابع الآثار السيئة للمذاهب الفكرية المعاصرة

عناصر الدرس

انتشار فساد الأخلاق والقيم

استكمالًا للآثار السيئة التي آلت إليها المذاهب الفكرية المعاصرية، نتكلم على ما نتج عنه أيضا من فساد الأخلاق، ومحاولة إفساد المرأة، والتفكك الاجتماعي وما سبب من ضعف في الأمة الإسلامية:

انتشار فساد الأخلاق والقيم:

لقد رزأ العالم الغربي والشرقي، من تبعهم في أعز ما يجب الحفاظ عليه في السلوك، وهي: القيم، والأخلاق، وطيب السلوك، التي مَيّز اللهُ بها الإنسان من الحيوانات، لقد كانت البشرية -فيما عُرف من تاريخهم- في غاية الحفاظ على التمسك بالأخلاق والحشمة، والحياء، بل منذ أن طفق آدم وحواء -عليهما الصلاة والسلام- يخصفان عليهما من ورق الجنة، والتمسك بالأخلاق الحسنة، والبعد عن سيئها، فطرة في النفوس. حتى إذا اجتالت الشياطين من اجتالتهم من حثالة البشر، فإذا بالأمر ينعكس تمامًا، بعد أنْ انْتَكست أخلاقُهم، وفسدت فِطرهم، وترددوا في مهاوي الضلال، وتنكروا للفضيلة، بل رأوها عارًا وتخلفًا، ورأوا الثياب التي هي زينة للإنسان كالريش للطائر، رأوها تأخرًا، وانحطت قيمهم حتى صارت أخس من الحيوانات، وصدق قول الله تعالى عليهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

لقد تمالأ الشرق والغرب، كُلُّهم بقيادة اليهودية العالمية، على إفساد أخلاق المسلمين، ونَشر الرّذائل بينهم بكل وسيلة، وما أكثر تلك الوسائل التي دخلت كل بيتٍ -إلا من رحم الله- امتلأت بها البيوت والأسواق والواجهات. ولك أن

تعجب حينما تقرأ في أساطير الملاحدة، أن الإنسان كان في بداية حياته عاريًا، لا يَعْرِفُ اللباس، ولا ستر العورة، ثم ترقى قليلًا قليلًا إلى أن عرف اللباس، وبعد فترة -ولحاجة في نفس يعقوب- عادوا ونادوا بأن ترك المرأة لباس الحشمة، وخروجها شبه عارية أو عارية، هو التقدم بعينه والرقي الحضاري. هكذا ودون إبداء أي تعليل لهذه النقلة الغريبة.

وأصبحت المرأة سلعة رخيصة للرجل، يقضي منها حاجته متى أراد، وأصبحت هي عارية، والرجل يلبس الثياب الفضفاضة، وهي تعاني الحرّ والبرد في سائر جسمها -اللهم ما تستر به السبيلين- والرجل يلبس لكل حالة لبوسها في دعة وسكون. وانتشرت مَحلات الخمور، التي تزكم النفوس، تحت حماية القوانين الوضعية، وما دامت الخمر أم الخبائث؛ فماذا تتوقع من وجود الخبائث التي شب عليها الصغير، وشاب عليها الكبير؟ ولك أن تسأل عن عدد المجرمين، وعدد المجانين، والمعتوهين، وكم عددهم في المستشفيات وفي السجون، إنها أعداد تبعث الرعب والأسى على مستقبل هذه البشرية.

وانتشر الزنا بصورة تتنزه عنها الحيوانات، وظهر عالم من الأولاد غير الشرعيين، وبنيت بيوت الدعارة علنًا، وتحت حماية القانون، وقد جاء في الحديث الشريف: "أنه ما انتشر الزنا في قوم إلا سلط الله عليهم عقابًا لم يكن في أسلافهم". وقد عرفنا هذا العقاب في زماننا، إنه مرضٌ نقص المناعة: "الإيدز" الذي جعلهم يجرون جُثث موتاهم إلى المقابر كل يوم، دون أن يجدوا له الدواء المضاد. وانتشر الربا وعاد الناس إلى تطبيق العقيدة الجاهلية الأولى فيه؛ حيث كانوا يقولون: "إنما البيع مثل الربا"؛ فقامت البنوك الربوية الشاهقة البناء، ونَشِطَت الشركات في ابتلاع أموال الناس، تَحت مُسَمّياتٍ مُختلفة خادعة،

ودِعَايات بَرّاقة، وصار من بقي فيه عرق ينبض ببقية خافتة من الخوف، أو الحياء يسميه فائدة ليتحاشى تسميته ربا.

مع أنّ هذه الحيلة، قد أخبرنا الرسول ﷺ عنها مبكرًا، حيث ذكر أنه "سيأتي أقوام يستحلون الخمر والحرير والمعازف، ويسمونها بغير اسمها". وهذا هو الحاصل في زماننا، دخل إباحة الزنا، تحت تسمية "الحرية الشخصية"، ودخل إباحة الربا تحت تسمية "الفائدة"، ودخل قتل كبار السن، ومن لا يريدونه تحت تسمية "الموت الرحيم". ودخل رفض الدين وتركه تحت تسمية "حرية الأديان" أو "حرية التدين"، ودخلت قلة الحياء، ونبذ الحشمة، تحت تسمية "التقدم" وترك الماضي، ودخلت أشياء وأشياء كثيرة لا تحصى تحت تسميات كاذبة وعناوين خادعة، ويا ويل البشرية من شر أشرارهم.

كما انتشرت ظواهر سيئة في جميع نواحي الحياة من غش وكذب وجشع لا حد له، واستغلال القوي للضعيف، وماتت -أو في طريقها- أخلاق وفضائل كانت عند الناس في قمة أولوياتهم، كفضيلة الكرم، والإيثار، والتواضع، والشهامة، وأخلاق كثيرة لم يعد لها وجود في أذهان كثير ممن مسخت فطرتهم المذاهب الفكرية الضالة؛ من اشتراكية، ورأسمالية، وعِلمانية، وغيرها من المذاهب المادية، التي وضعت نظريات فَلسفية تدلل بها على صحة فكرهم النابذ للقيم الأخلاقية.

حيث يرى أنه لا عبرة بالمثل والأخلاق، تحت إطار هذا العالم المادي الملحد، وذلك كالمذهب الوضعي المثالي، والمنطقي، والبراجماتية، ونحوها، وجنت على القائمين بها قبل غيرهم، حينما جعلتهم يعيشون في فوضى وقلق واضطراب، يصل إلى حد الجنون، لا يحسون بهدوء ولا راحة نفسية، ولا عَاطِفَة حُبٍّ نحو الآخرين -غير المجاملات العابرة. وجوههم مقطبة، وأفكارهم

شاردة، ولم يعد للرحمة تلك المكانة التي تبوأتها قبل ظهور قرن الشيطان، فوق المذاهب الفكرية، ولم يعُد للعدل والإنصاف أي مكان يحط رحاله فيه -إلا القليل- وذهب حتى ذكر أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وجاء الجيل الذي لا يأكل الوالد في مطعم ولده، أو الولد في مطعم أبيه، إلا بدفع القيمة نتيجة حتمية لإعراضهم عن هدي الله ﷻ، واتباعهم لأهواء الضالين، وقراصنة المال، الذين لا يتكلمون إلا في المال، ولا يضحكون إلا للمال، ولا يعملون إلا للمال، ولا يعطون شيئًا إلا ليأخذوا ما هو أثمن منه.

إن من المؤسف والداعي للرثاء، حال الذين يتهجمون على النظام الإسلامي، في الأخلاق والسلوك العام والخاص، إننا نرثي لحال أولئك الذين لا يعرفون عن الإسلام شيئا وهم يناصبونه العداء، ونرثي لجهلهم ونرحم حالهم وشقاءهم. ونكون أشدّ حُزنًا لحال من يَدّعي الإسلام، وهو يُحاربه ويتهجم على نظامه الاجتماعي، عن جهل أو عن معرفة، فحِينَما نَسمع من يدعي الإسلام، ثم يقول عن قتل القاتل: إنه وحشية، وعن قطع يد السارق: إنه همجية، وعن عقوبة الزنا بقسميها: إنه تدخل في الحرية الشخصية، وعن الحِجَاب: إنه ظُلمٌ للمرأة، وطمس لها، وعن الحشمة والعفة والوقار: إنه من مخلفات الماضي البغيض المتخلف. وعن أشياء أخرى كثيرة، حث الإسلام على التمسك بها، أو الانتهاء عنها يقول عنها: إنها غير صالحة في زماننا، أو إنها كانت لقوم مضوا وانتهوا وانتهت معهم تلك المفاهيم. وحينما ينبري بعض الكُتاب السفهاء، أو بعض الكاتبات السفيهات؛ ليتباكوا على النظام الأخلاقي، الذي أرشد إليه الإسلام، بأنه غير حضاري، إنّما هم أدوات في أيدي أعدائهم، وأعداء دينهم. باعوا ضمائرهم، بل ودينهم بثمن بخس، وليس لهم عند الله -إن لم يتوبوا- من خلاق.

والذين يجتهدون في نشر الخلاعة والمجون، في وسائط الإعلام المختلفة، إنّما هم عبيد لليهود، وخدم لهم من حيث يشعرون، أو لا يشعرون، وحينما يدعون إلى تأخر الزواج بين الشباب والشابات، إلى ما بعد فتور فوران الشهوة فيهم، وبالتالي يُقدمون لهم كل وسائل الإغراء لاقتحام الشهوات الجنسية. إنّما هم يطبقون جزءًا من المخطط المرسوم لمحو الفضائل، وإشاعة الفواحش. لأن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف؛ لأن فطرهم انعكست وصار العالي سافلًا والسافل عاليا في نظرهم. والذين يدعون إلى تحديد النسل؛ لئلا يحصل الانفجار السكاني بزعمهم، وبالتالي فلا يجدون لقمة العيش، أو يدعون إلى الحد من الإنجاب، محافظة على رشاقة المرأة وتألقها، إنّما هم مُخادعون كاذبون، يُنَفّذون جزءًا من المخطط اليَهودي، إذ إن اليهود والنصارى يشجعون تكاثر النسل بينهم، وقد سمعنا من إذاعة إسرائيل: أنهم احتفوا واحتفلوا بامرأة أنجبت ثمانية أولاد، وكرموها وأعطوها عدة جوائز.

لقد انصب اهتمام أعداء الإسلام، أعداء الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن على نشر فساد الأخلاق وضياع القيم، فلماذا؟!! يأتي الجواب تلقائيًّا: لأنهم يعرفون أن في فساد الأخلاق، وضياع القيم تفتيتًا للروابط الاجتماعية كلها؛ فتنتشر الرذائل، التي تعجل بهدم كيان ذلك المجتمع، الذي تنتشر فيه. حيثُ ينتشر الكذبُ والغِشُّ وقطع صلة الأرحام، والعداوةُ والبَغْضَاءُ والتّهاجُر، وعدم الثقة بين الناس، واختفاء الأمانة، وانتشار الدعارة والفجور. ومساوئ كثيرة هي أشبه ما تكون بالمسامير في النعش.

وتنتشر الرّشوة بكل مظاهرها سرًّا وجهرًا بين أصحاب النفوس الضعيفة؛ فتضيع الحقوق، وتختل موازين العدل بين الناس؛ ولهذا فسدت ضمائر كثير من الموظفين، فتجد المظلوم يصبح ظالمًا، وصاحب الحق يصبح معتديًا، وباذل

الرِّشوة يصبح صادقًا محقًّا، ناهيك عن اختلاس الأموال العامة، بِمُجَرّد الحصول عليها بأي سبيل، إذ لا رادع يردعه عن ذلك. كما ينشأ عن فساد الأخلاق: الاحتكارات المحرمة شرعًا، والإثراء عن طريقها، وكذا تهريب المخدرات للحصول على المال من جهة، ولإفساد حياة المسلمين من جهة أخرى.

نشر الفساد عن طريق استخدام النساء

هذه القضية تُعْتَبرُ مِن أَشَدّ وأخطر الوسائل المُستخدمة من قبل أعداء الإسلام لتضليل الناس، وإبعادهم عن دينهم وعن الفضائل، والحاجة إلى معرفته ملحة، واعلم بأن أعداء الإسلام قد انطلقوا إلى هدم الإسلام عن طرق كثيرة، من أبرزها حربه عن طريق النساء مستخدمين وسائل لا تكاد تحصر ومن أهمها: إغراء الشباب والاستيلاء على ولائهم عن طريق غرائزهم الجنسية، عن طريق النساء المتصنعات، اللائي لا يرددن يد لامس، حيث يوصلونهن إليهم، عن طرق ماكرة كثيرة ودعايات مغرية.

قتل الاحتشام: عن طريق إغراء الفتيات بشتى الأزياء الفاجرة، تحت الدعايات الباطلة بأنهنّ سيحزن على إعجاب الرجال، وعلى الجمال، وعلى الدلالة على أنهن متقدمات متحضرات، ثم عن طريق موضة أنواع أدوات التجميل. بادر أعداءُ الإسلام إلى: اتخاذ تعليم المرأة ذَريعةً لإفسادها، ووسيلة لإضلال الناس بها، وفُتح الباب لها على مصراعيه، وفق خطة مدروسة لإخراج الفتاة المسلمة عن دينها، وتم لها ذلك، حيث تخرج الدارسة، وهي على وفق ما جاء في المخطط المبيت لها، وليس على وفق ما أراده الإسلام لها، في حثها على تعليمها.

قال زويمر: "تعليم المرأة بؤبؤ عيني"انتهى كلامهوالإسلام يوجب على المرأة أن تتعلم، ولكنه التعليم الذي ينفعها في دينها ودنياها. التأثير على المرأة المسلمة في مجال الفنون الجميلة، وزينة المرأة، وكيفية وصولها إلى إغراء الرجل؛ لأنها تأثرت بما استخدمه الغُزاة من وسائل الإعلام القوية: "سينما – مسرح – قصص هادفة – صحف – مجلات – إذاعة – تلفزيون" وغير ذلك. كلها تضافرت وصدق بعضها بعضًا للتأثير، فأغرمت بالرّسم، والنحت، والأزياء، والموسيقى، والتمثيل، والتصوير، وشراء أدوات تلك الفنون بباهظ الأثمان. التركيز الجاد من قبل أعداء الإسلام على انتشار الاختلاط بين الجنسين، وسُفُور المَرأة، وتَمّ لهم هذا، وكانت له نتائج وخيمة، الأمرُ الذي أدّى إلى هدم الأخلاق والآداب الإسلامية، بِسَبب ضعف الوازع الديني، والدّعاية القوية العارمة؛ لتهوين أمر الفاحشة، ونبذ الحجاب، فالتهبت الغرائز الجنسية، وعرضت الصور الماجنة في كل وسيلة إعلامية يصدق بعضها بعضًا.

وسبب هذا التكالب منهم على هذا المسلك، هو: معرفتهم التامة بأن الاختلاط والسفور، هما من أقوى الأسباب لانهيار المجتمعات وتمييعها وقتل هممها. ولقد تكاثرت الظباء على خراش، وبلغ السيل الزبى، وانفلت الأمرُ من أيدي ولاة الأمر من الآباء والحكام في ثورة عارمة معلنة أو غير معلنة، وقد جعل المخدوعون من المسلمين نصب أعينهم هذه المقالة الحمقاء: "متى نلحق بركب الدول المتقدمة؟". ظانين أن هذه القبائح هي التي تنقذهم أو هي التي تنقصهم.

وكان من جراء تلك الموجة العارمة: أن نسي الرجل المسلم، والمرأة المسلمة: أنّ وراءهم حسابًا وعِقابًا أخرويًّا لاستحلالهم ما حرمه الله عليهم؛ فاتجهوا لإشباع شهواتهم الحيوانية، ولم يَعُد التماسك الاجتماعي بينهم قويًّا، بل تآكل، ثم

حَدَث أن تَفَاخر كُلٌّ من الرَّجُل والمرأة في اقتناء أجمل الثياب، وسائر المظاهر، ثم اتجهوا إلى أدوات التجميل التي تصنعها المصانع اليهودية والنصرانية، وانتشرت الفتن والخيانات، وفقدت الحشمة والحياء بين الجنسين. وقد انتشرت خديعة كبرى، يرددها كثير من الناس، دون أن يعرفوا مصدرها الخبيث، وهي خديعة: أن النساء المحجبات هن يُردن إخفاء قبحهن، بينما السافرات لا يتعرضن لأي أذى، سائرات لا يلتفتن لأحد، ولا يلتفت إليهن أحد، واثقات من أنفسهن، وتمت هذه الحيلة على كثير من النساء المسلمات؛ فنبذن الحجاب خوفًا من هذه الدعاية الكاذبة الضالة المضلة. وقد اخترع أعداءُ الإسلام وأعداء الفضيلة؛ لتقوية هذه الحيلة طرقًا شيطانية منها:

توجيه بعض العاهرات الفاجرات، أن يتسترن بمثل الألبسة التي تتستر بها المؤمنات العفيفات الشريفات، وأن يسرن في الأسواق العامة، ويتعرضن للفُسّاق، وهُنّ في هذه الألبسة الساترة المزورة، فظَنّ من لا يعرف سر هذه المكيدة أنّ الأمر على حقيقته. ويُراد من وراء هذه المكيدة إعطاء الأدلة على أن المُحَجّبات فاسقات. وكذلك لمضايقة المُحَجّبات أيضًا من ناحية أخرى، توجيه فريق من الفساق المأجورين، أن يتعرضوا للمتسترات العَفِيفات في الطرقات العامة، ويؤذونهن في عَفَافِهن، بفسق من القول، أو الغمز أو اللمز أو اللمس. ويُراد من هذه المكائد: مُضايقة المحجبات كي ينبذن الحجاب، ومن المتوقع: أنّ المرأة المسلمة، إذا لم تكن عندها حصانة كافية من المعرفة بالإسلام، ومعرفة بثواب الصابرين: من المتوقع لها أن تنهار أمام تلك الضغوط كلها، وهو ما حصل بالفعل حتى أصبحت بعض النساء تستحي أن تلبس ثياب الحشمة، وكاد أن يتحقق ما توقعه الفاجر "فرويد" من أنه: لا بد من التركيز على ذَمّ الحشمة عند النساء؛ حتى تُصبح عيبًا في نظرهن.

النوع الثاني: هو السكوت الذي يكون بيانًا بدلالة حال المتكلم مثل السكوت من النبي ﷺ عن معاملات عاينها ولم ينكرها، فيكون سكوته بيانًا للجواز، ويدل في موضع الحاجة إلى البيان على البيان؛ إذ لا يُقرّ أحدًا على محظور.

النوع الثالث: السكوت الذي جُعل بيانًا لدفع التغرير والضرر عن الناس، مثل: المولى يسكت حين يرى عبده يبيع ويشتري، فجُعل إذنًا دفعًا للغرور عن الناس، وكذلك سكوت الشفيع جُعل ردًّا بهذا المعنى. وقال الشافعي: "لا يكون السكوت إذنًا بالتصرف؛ لأن السكوت عن النهي محتمل، فقد يكون للرضا بتصرفه، وقد يكون لفرط الغيظ، أو قلة الالتفات، والمحتمل لا يكون حُجة"، ولهذا ورد عن الشافعي أنه قال: "لا ينسب لساكت قول".

النوع الرابع: ما يدل على تعيين تمييز معدود تُعُورِفَ حذفه ضرورة طول الكلام بسبب ذكره، مثل: ما إذا قال رجل: لفلان عليَّ مائة ودينار، أو مائة ودرهم. قال الحنفية: "العطف جُعل بيانًا للأول، وجعل من جنس المعطوف، وكذلك لفلان علي مائة وقفيز حنطة". وقال الشافعي: "القول قوله في المائة؛ لأنها مجملة، فإليه بيانها، والعطف لا يصلح بيانًا؛ لأنه لم يوضع ،له كما إذا قال: مائة، وثوب، وشاة، ومائة، وعبد".

ووجه قول الحنفية: أن هذا يُجعل بيانًا عادة ودلالة، أما العادة: فلأن حذف المعطوف عليه في العدد متعارف ضرورة كثرة العدد وطول الكلام، يقول الرجل: بعت منك هذا بمائة وعشرة دراهم، وبمائة وعشرين درهمًا، وبمائة ودرهم، ودرهمين على السواء، وليس كذلك حكم ما هو غير مقدر؛ لأنه لا يثبت دينًا في الذِّمَّة ثبوت الأول، وأما الدلالة فلأن المعطوف مع المعطوف عليه بمنزلة شيء واحد كالمضاف مع المضاف إليه للتعريف، فإذا صلح العطف

للتعريف ؛ صحَّ الحذف للمضاف إليه بدلالة العطف، والعطف إذا كان من المقدرات صلح للتعريف، فجُعل دليلًا على المضاف إليه، وإذا لم يكن مقدرًا مثل: الثوب، والفرس؛ لم يصلح للتعريف، فلم يصلح دليلًا على المحذوف.

وتختلف أنواع البيان تبعًا لاختلاف ما يحتاج إلى بيان، وقد مرَّ بيان المحتاج إلى البيان، وأنواعه.

التفكك الاجتماعي والضعف الحاصل في أوضاع المسلمين

مرت على المسلمين أحداث ومؤامرات وفتن، بعضها تلو البعض الآخر، فرقت بينهم، وجعلتهم أحزابًا، بتخطيط بارع من قبل أعدائهم، ولم يعد لقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] مدلولٌ خاصٌّ في نُفوسهم، ورادع قوي عن التفرق والتحزب، واستحكم الهوى في النفوس. وأعجب كل ذي رأي برأيه، واختلفت الولاءات، فبدلًا أن تكون الموالاة بين المؤمنين ضد أعدائهم، أصبح كل فريق من المسلمين يُوالي جهة من أعداء الإسلام، ويستعينُ بعضهم على بعض بأعداء دينهم، وأصبح بأسُهم بينهم شديدًا، وقُلوبهم شَتّى، وتَمَكّن أعداؤهم منهم؛ فضربوا بعضهم بعضا، وأحْكَمُوا بينهم الخلافات. وكانوا هُم الحَكم بين المُسلمين على بعضهم بعضًا، وهم المُمولون للجميع بالسلاح؛ ليضربوا عُصفورين بحجرٍ واحد، يُجربون أسلحتهم عليهم، ويبيعونها منهم.

وهذا الواقع المرير؛ الذي تعيشه الأمم الإسلامية اليوم، من الذل والهوان، والتمزق والانكسار، أمام أعداء الإسلام، ما هو إلا نتيجة للتفكك المقيت، الذي حل بالمسلمين نتيجة عدم قبضهم على دينهم بجد وإخلاص، وليس هذا

فحسب بل قد ظهر هذا التفكك في جوانب مختلفة في حياة المسلمين، وهي كثيرة يصعب حصرها هنا، من اجتماعية، واقتصادية، وسياسية.

أهم الأسباب التي تظهر أنها مؤثرة جدا على مجرى الحياة العامة بين المسلمين:

تراخي قبضة المسلمين على دينهم: وهذا السبب هو السبب الأكبر -في اعتقادي- الذي أدى بالمسلمين إلى الضعف العام، وهوان المسلمين، ذلك أن المسلمين من ناحية العدد كثير، ومن ناحية العدة؛ فإنهم يملكون عدة كثيرة جدًّا، بغض النظر عن مساواتها بما عند أعدائهم، ولو قارنت عدد المسلمين وعُدّتهم اليوم، وعددهم وعدتهم في صدر الإسلام، وزمن الفُتوحات؛ لتحيرت أشد الحيرة، ولتساءلت كما تساءل الكثيرُ ممن لم يلتفت إلى هذا الجانب الهام من حياة المسلمين، فإنه ما دام العدد موجودًا والعدة موجودة، فما الذي ينقصنا إذا، أليس أعداء الإسلام يألمون مثلما نألم، ونرجو من الله ما لا يرجون؟ وهو فارق كبير جدًّا.

ولكن يأتي الجواب الصحيح الذي غاب عن أذهان كثير من المسلمين: أنّ السبب في ضعف المسلمين وهزائمهم هو: تراخيهم في قبضتهم على دينهم، وليس العدة والعتاد، وهو غفلتهم عن السِّر في سبب النصر على الأعداء، وغفلتهم عن معنى قول الله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. هو تحاكمهم إلى أعداء الإسلام وتوجههم إليهم لأخذ القوانين الجاهلية بدلا عن الشريعة الإسلامية. هو تلك التيارات الجارفة، والبُحور المتلاطم أمواجها، وسباحتهم فيها من: اشتراكية، وشيوعية، وشيعية، ورأسمالية وعِلمانية و.. إلى آخر تلك المذاهب التي مسخت شخصيات المسلمين. هو الذل الذي أصاب المسلمين، والذي أعاد للأذهان حال المسلمين،

وذلهم أمام هولاكو وجنوده. هو هذا العري والتبجح بالمعاصي وانتشار الرذائل دون نكير كاف. وأي عذر ونصر يكون لشخص حكمه بغير ما أنزل الله، وعمله خبط عشوائي دون الاهتداء بالكتاب والسنة، وليس في قرارة نفسه أن النصر هو من عند الله تعالى.

وقف أحد الصحابة الكرام يوم فتحت إحدى القلاع الحصينة للكفار، وقف يبكي فسئل عن ذلك، وأنّه يوم فرح وسرور؛ فما الذي يبكيك؟ فأخبرهم > بأنّ الذِي جَعَل الُمسلِمين يَصِلُون إلى هذا الخير والنصر: إنّما هو تمسكهم بدينهم، فلو تركوه لتركهم الله تعالى كما ترك أولئك الكفار، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يأمن مكر الله تعالى.

واقرأ ما يكتبه كثير من السُّفهاء والسفيهات في الاستهزاء بالدين وبتعاليمه، خصوصًا في قضية الحجاب والعقوبات في الجنايات، واقرأ مدحهم وإعجابهم بما عند الكفار من أنظمة جاهلية، يُسمونها متطورة، اقرأ واسمع وتذكر: حَتّى ترى بنفسك مدى تمسك كثير من المسلمين بدينهم في هذه العصور -عصور الفتن والشرور- واسألهم ما بال القومية والوطنية والشعوبية والقبلية، وغيرها من النعرات الجاهلية؛ قد أحلوها محل العقيدة الإسلامية وأخوة الدين. وكيف طَبّقوا هذا الكلام الفاجر؛ بحيثُ قَدّس كُلُّ أهل بَلَدٍ بلدهم وسموه بلدة: كذا وكذا المقدسة. من أين لهم هذا التقديس؟ وما هو دليلهم على أنها مقدسة؟!! ثم اسألهم: أي كفر سيوحد بينهم؟ أليس الكفر هو الذي يفرق الناس ويطغى بعضهم على بعض؟ وكيف جاز لهذا المجرم أن يستهين بجهنم، إلى هذا الحد؛ فيرحب بها في تحد صارخ وعنجهية حمقاء؟!!!

أليس أحوال المسلمين اليوم تُنذر بشر مستطير، وتفلت تام؟ أليس هو تراخ عن العقيدة التي أعز الله بها أسلافنا، ولن تقوم لنا قائمة إلا بالتمسك بها؟

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]. والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. هو عدم الوحدة والتفكك السياسي: حينما كانت الدولة الإسلامية دولة واحدة، كانت قوية يُحْسَبُ لها ألف حِسَاب، ولكن حينما أصبحت دولًا وزُعماء كثيرونَ جاءها الإفرنج؛ فإذا هي كهشيم المحتظر، وعرفوا أن التفرق خذلان، ولكن ولات حين مناص، ولكن ولات حين مندم.

لقد كان المسلمون دولة واحدة، وتحت حاكم واحد، قلوبهم كقلب رجل واحد، هدفهم واحد، وكلمتهم واحدة، أشرقت بهم وبعدلهم الأرض، وقوي المسلمون وانتشر نور الإسلام في بقاع الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ولا زالت آثارهم شاهدة بأمجادهم إلى يومنا الحاضر. ثم خَلف من بعدهم خَلفٌ نجح فيهم تخطيط أعدائهم، وتمت المؤامرات عليهم بدقة، وزاد الطين بلة، حِينَما وطئت أقدامُ المستعمرين بلادهم، حيث كانت الوطأة شديدة عليهم؛ فقسموا بلاد المسلمين، وجعلوهم دويلات، يحكمونهم مباشرة، أو بواسطة عملاء من أهل كل بلد، هم أشد على قومهم من المستعمرين، وظل المسلمون قرونًا، وهم تحت جبروت وطغيان الإفرنج. حتى إذا تنبهت الشعوب للغبن الواقع عليهم من استعمار أعدائهم لهم، وتحكمهم في كل مواردهم وحربهم لدينهم، وإقصاء الحكم بالشريعة الإسلامية، وطَمس اللغة العربية، وإثارة الفتن والعداوة بين المسلمين على طريقة "فَرِّقْ تَسُد". حينما تنبهت الشعوب هبت لمحاربة المستعمرين، وإخراجهم من أراضيهم بالقوة، وسالت الدماء، وانتهكت الأعراض، وتم في ظاهر الأمر النصر لهم، فهل خرج المستعمرون فعلًا من ديار المسلمين وانتهت آثارهم النجسة؟.

الواقع: أن المستعمرين كانوا في غاية الذكاء والترتيب والمكر: قسموا بلاد المسلمين تقسيمًا تعسفيًّا ظالمًا، بحيث يبقى أهل البلاد في حزازات وشجار دائم على الحدود، وهو ما عانته الدول الإسلامية إلى اليوم؛ إذ أصبحت كل دولة تطالب بجزء من أراضيها تحت الدولة الأخرى المجاورة، وكثيرًا ما تقوم الحروب بينهم ليحتكموا في النهاية إلى ذلك العدو الذي سبب هذا الحال. قبل أن يخرجوا رتبوا لهم عملاء؛ هم أشد على أبناء جنسهم من أولئك المستعمرين، فضمنوا بقاءهم في صورة أخرى هي أشد من الأولى، ولا زالت مفاهيمهم ومناهجهم سارية على أغلب تلك الشعوب التي تدعي التحرر، وتَتشدق به في الوقت الذي كانوا فيه عالة على المستعمر في كل شئون الحياة، حتى في التشريع والتعليم.

وما دام الحال هكذا؛ فلا بد أن تأتي النتيجة الحتمية التي أرادها المستعمرون أثناء حكمهم لدويلات المسلمين، وهو وجود التفكك السياسي، وما يتبعه من العداوة والصراعات المشتعلة، وحال المسلمين اليوم من إحدى العجائب إذ يتمنون الوحدة الإسلامية، والجرائد تكتب والإذاعات تصيح، والزعماء يصرحون ويلمحون، ولكن هذا الوضع شيء والواقع شيء آخر. وكأنما طلب الوحدة واللهفة لتحقيقها معناه العكس تمامًا، وكأنها معلقة بالثريا. كان للخلاف المذهبي دور ظاهر في تفكك المسلمين، وتأجج الخلافات فيما بينهم، بسبب ضيق أفق بعضهم من المتأخرين، وجهلهم بأسباب قيام تلك المذاهب، ولجمودهم على ما وجدوه مدونًا عمن تعصبوا له من المتقدمين. ناهيك عن الخلافات العقدية، التي أدت إلى ظهور الفرق المبتدعة، مما كان سببًا في شق عصا المسلمين، وظهور الفرقة والنزاع بينهم.

ومن الأسباب الحروب: فقد توالت على المسلمين حروب وفتن كثيرة ومؤامرات شرسة منذ بزوغ فجر الإسلام إلى يومنا الحاضر. بدأت تلك الحروب والمؤامرات والرسول ﷺ حي، وتمثلت في مواجهات عسكرية بين المسلمين وأعدائهم من قريش، ومن سائر العرب عباد الأصنام، نصر الله فيها نبيه وأتباعه نصرًا مؤزرًا. والحقيقة أن تلك المواجهات لم تكن سببًا في فرقة المسلمين، بل كانت سببا قويًّا في تلاحمهم وتعاضدهم، حيث كانوا كالجسد الواحد، لم يستطع أحد من أعدائهم أن يقف في طريق مدهم الذي كان ينساب انسياب النور في الظلام بإذن ربهم.

ولم يمت النبي ﷺ حتى أقرّ الله عينه بدخول الناس في دين الله أفواجًا، ثم خلفه خيرة أتباعه فتولى أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي { فكان الإسلام فيها في أوج قوته وإشراقه، رغم ما كانت تظهر هنا وهناك من منغصات لا تمثل أي تهديد حقيقي للمسلمين، اللهم إلا ما حصل في عهد علي > حيث انفتحت أبواب الفتن، وبدأ التفرق وظهور المتربصين بالإسلام. وكانت أقوى الفتن تلك الثورة العارمة الهوجاء التي قام بها الخوارج في وجه الخليفة الراشد علي > .

ثم جاءت الدولة الأموية؛ فإذا بالمسلمين يستعيدون قوتهم الميمونة، وإذا بهم تعلو كلمتهم، ويتابعون نشر نور الإسلام في معارك؛ تَمّ النّصر فيها للمسلمين تباعًا شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وفي آخر الدولة الأموية أصاب المسلمين الوهن؛ فإذا بالفتن تثور كالليل المظلم في أكثر من مكان من بلدان المسلمين. فتسلمت الرّاية الدولة العباسية، وكان خلفاؤها الأوائل أصحاب نفوذ وكلمة، وقوة إلى أن دخلها الضعف؛ فهان المسلمون وتفرقت كلمتهم، وهو من سيء

إلى أسوأ، وتوالت المؤامرات المختلفة على الإسلام والمسلمين. وكان أخطر الحروب التي مرت بالمسلمين تتمثل فيما يلي: الحروب الصليبية. الحرب مع التتار. مؤامرات اليهود.

وهؤلاء نسوا أن أسلافنا المسلمين إنما كانوا ينتصرون بحبهم لربهم وتحكيمهم لدينه، والعمل بأوامر الإسلام، والانتهاء عن نواهيه، وأنهم كانوا على قلب رجل واحد، هدفهم واحد، وتفكيرهم واحد، فنصرهم الله تعالى جزاء لإخلاصهم وتوجههم إليه ﷻ.

وأما اليوم: فقد توزعت أهواء المسلمين، وجعلتهم عالة على أعداء الدين، فهذا شيوعي، وهذا بعثي، وهذا اشتراكي وذلك ديمقراطي وهذا تقدمي وذلك رجعي.. إلى آخر هذه الترهات الحمقاء التي ذل المسلمون وتأخروا بسبب تمسكهم بها، واعتزازهم بغير دينهم وشرع نبيهم.

والحاصل: أنه لا بد أن يَحصُل التفكك الاجتماعي في أوضاع المسلمين وذلك: في غياب الوعي الإسلامي، لا بد وأن يحصل التفكك المقوت بين المسلمين شاءوا أم أبوا. حين نشأت الأحزاب المتعارضة؛ كل حزب بما لديهم فرحون. بعد أن تفرق المسلمون في الولاء السياسي: فيممت كل طائفة وجهها لدولة من دول الكفر، وفقدوا الولاء والبراء الحقيقيين اللذين جعلهما الله علامة بين المؤمنين في ولايتهم لله ولرسوله والمؤمنين. حين نشأت العصبيات البغيضة التي أماتها الإسلام، وأحيتها الجاهلية حيث دان المسلمون بالقومية والوطنية والعنصرية، وغيرها من الجاهليات المنتشرة التي غزتهم عن طريق أوربا.

حينما فصلت السياسة عن الدين؛ فأصبح الحاكم بذلك يجب أن لا يكون دينيًّا؛ لكي يَعُمّ عدله جميع الشعب، وإلا كان متعصبًا لجهة بزعمهم، ونسوا أنه يكون

متعصبًا ضد الدين إذا لم يتعصب له كما هو الواقع. حين ظهرت الحركات البدعية، وقوي زعماؤها وفرضوا بدعهم بكل سبيل. حينما انعدمت الثقة والأخوة الإسلامية بين الشعوب، ولم يعودوا كالجسد الواحد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. حين عَمّ التكالُبُ على الدُّنيا، وطلب الشهوة، والعلو في الأرض بأي ثمن كان. حين أصبح بعض المائعين ممن جرفتهم الحضارة الغربية، يستحي أن ينتسب إلى الإسلام لئلا يقال له: رجعي متخلف. وإذا كان الحال كما ذكر سابقًا وأشد أيضًا، فما هي طريق العودة التي تعيد للمسلمين عزتهم؟

طريق العودة: لن تعود للمسلمين عزتهم ومنعتهم إلا إذا عادوا إلى دينهم وتمسكوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ فإنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، اعتزاز المسلمين بدينهم وترك السير في المؤخرة وراء العالم الغربي المتدهور وترك الاعتزاز بالقوميات والوطنيات بعيدا عن الدين الحنيف. أن يكونوا قدوة العالم في جميع المعاملات والسلوك وسائر الأخلاق الحميدة. أن يتم تحاكمهم إلى الإسلام في جميع شئونهم، وأن يرفضوا التحاكم إلى غيره من الأنظمة أو الجمعيات أو الدساتير الجاهلية. الاهتمام التام بتربية النشء على الأسس الإسلامية الصحيحة وعلى أيدي مدرَّبين ومدرسين أكفاء على العقيدة ليصبح هذا النشء هم رجال الغد، في حركة مستقلة في التعليم عن التعليم الغربي في جميع مرافق التعليم دينيًّا ودنيويًّا.

الجد في القضاء على كل أنواع الجاهليات: عن طريق تعميق العقيدة، وليس عن طريق قرارات أو عقوبات، بل كما فعل النبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام. رفعُ رايةِ الجِهَاد بِكُلّ أنواعه في الوقت الذي يسمح بذلك من نصرة المسلمين من

المُجاهدين، ودَعمِهم بالسلاح والرجال، وترك الخوف من إطلاق كلمة الجهاد، التي أعز الله بها المسلمين في عصورهم الأولى؛ حين تدعو الضرورة لذلك. بذل الاجتهاد في نشر التوعية الإسلامية العامة، من قبل كافة المسلمين؛ لما فيه رفعة الإسلام وعزة المسلمين، العلماء في مجالهم، والتجار في مجالهم. أن يُسْنَد حُكم المُسلمين إلى رجالٍ أكفاء لهم معرفة بالعقيدة الصحيحة في كل بلد، واليوم نجد أكثر الشعب مسلمين والحاكم نصراني، أو شيوعي، أو بعثي، أو اشتراكي.

لا بُدّ أنْ يستقِلّ العالم الإسلامي في كل شئونه عن العالم الغربي في الصناعة، وفي التجارة، وفي وسائل التعليم كلها، وفي كل الجوانب. وما على الشخص منهم إلا أن يخلص نيته، ثم يبدأ العمل ويستعين بالله تعالى، ويستشعر عظمته وقدرته، والله تعالى لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، ما دام ذلك العمل يقصد به وجه الله، ومصلحة المسلمين عامة، وما دام على وفق ما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ.

الرأسمالية

عناصر الدرس

تعريـــــــف الرأسماليـــــــة

في سـياق الكـلام علـى المـذاهب الفكريـة المعاصـرة نعـرض في هـذه لموضـوع الرأسمالية لاعتباره واحدا من هذه المذاهب الهدامة، التي تناقض الـدين، وتنابذ مصالح الإنسان، ومقاصد العدالة:

تعريف الرأسمالية:

الرأسمالية: نظـام اقتـصادي ذو فلـسفة اجتماعيـة وسياسـية، يقـوم علـى أسـاس إشباع حاجات الإنسان الـضرورية والكمالية، وتنميـة الملكيـة الفردية والمحافظة عليها، متوسعًا في ذلك مفهوم الحرية. معتمدًا على سياسة فصل الدين نهائيًّا عـن الحياة، ولقـد ذاق العلـم بـسببه ويـلات كـثيرة، نتيجة إصـراره علـى كـون المنفعـة واللذة هما أقـصى مـا يمكـن تحقيقـه مـن الـسعادة للإنسان، ومـا تـزال الرأسمالية تمارس ضغـوطها، وتدخلها السياسي والاجتماعي والثقافي، وترمـي بثقلـها علـى مختلف شعوب الأرض.

ويظهـر أن المقـصود بالرأسماليـة أنهـا نـسبة إلى رأس المـال وامتلاكـه، إذ هـو أبـرز سمات هذا المذهب، وقد قيل في التعريف بها أقـوال كـثيرة، يمكـن أن نوجزهـا في أنها ذلك النظام المنحصر أبرز مظاهره في الأمـور الاقتـصادية، مـن حيـث التملـك والبيع والشراء، والإنتاج والتصدير للأفراد أو الجماعـات. دون تـدخل في الدولـة في شئونهم، أو الحد من نشاطهم في اقتنـاص كـل وسـيلة للحـصول علـى الثـراء، من شتى الطرق في حرية تامة.

وعـن حقيقـة الرأسمالية يقـول فتحـي يكـن: "لا تعتـبر الرأسمالية مـذهبًا تعتمـده الحكومات، بل هي نظام اقتـصادي يقـوم علـى أسـاس تملـك الأفـراد والـشركات

لكل وسائل الإنتاج". فالرأسمالية نظام اقتصادي في أساسه، ولكنه قائم على فصل الدين عن الحياة الاقتصادية تمامًا؛ لئلا تتقيد به بل تنفلت منه كما تريد، وهذا الإيضاح للرأسمالية هو الحاصل من عدة تعريفات ذكرها الباحثون حول حقيقة الرأسمالية ومعانيها. وكلها تدور كما سبق حول ملكية الفرد، أو الأفراد لأدوات الإنتاج، وتحقيق الأرباح في منافسة حرة. وبعض العلماء يعرفها بأنها تخزين -أو احتكار على الأصح- أصحاب الأموال لمنافعهم، وبيعها وقت غلاء الأسعار. وقيل: إنها تحكُّم فئة أو فئات لوسائل الإنتاج التي هي الأرض، ورأس المال، والعمل بعيدًا عن تدخل الدولة قبل تطويرها في آخر الأمر.

وكل تلك التعريفات متقاربة في المفهوم للرأسمالية الجشعة، التي تسحق الفقراء، وتثري الأغنياء على حد ما جاء في مفهوم التوراة: الغني يزاد له والفقير يؤخذ منه، بل يظهر لي أنها ليست تعريفات، وإنما هي وجهات نظر غير القول بأنها فصل الدين عن الحياة.

وأما ما يتعلق بسمات الرأسمالية، فإنها تميزت بخصائص حول نظام الملكية الفردية للأفراد والجماعات، ودور الحكومة تجاه المنتجين والمستهلكين كما يلي:

أولا: لكل فرد الحرية المطلقة في التملك والتصرف لعناصر الإنتاج، التي بيده بعكس ما قامت عليه الاشتراكية الشيوعية تمامًا.

ثانيًا: لكل فرد الحرية في ممارسة أي نشاط اقتصادي يستطيعه، إنتاجًا واستهلاكًا وتصديرًا دون أي قيد.

ثالثًا: أوجد النظام الرأسمالي حافزًا قويًّا للأفراد والجماعات على الإقبال على العمل والمنافسة فيه، والتسابق إلى تسويق ما يملكونه، والذي ينتج عنه أحيانًا هبوط الأسعار لكثرة الموارد. مما أدى بأمريكا وغيرها من كبار المنتجين إلى أن

يتلفوا كثيرًا من المحاصيل الزراعية خوفًا من هبوط الأسعار، بل أحيانًا يعطون الزارع مبلغًا من المال في مقابل تركه لزراعة بعض المحاصيل، حسب ما ذكره الدكتور. غازي القصيبي.

رابعًا: إن الحكومة لا دخل لها في شيء مما يفعله المنتجون والمستهلكون بأموالهم، وقد كان هذا المفهوم معمولًا به في بداية قيام الرأسمالية، ولكنه وبمرور الزمن تبين أنه مفهوم خاطئ لكثرة ضحاياه من الفقراء، وما نتج عنه كذلك من التفاوت بين الناس في معيشتهم بطريقة غير عادلة. فتطور الأمر إلى أن رفاهية المواطنين وعيشتهم عيشة كريمة أمر لا يتم بإلقاء الحبل على الغارب، فشعرت الحكومات أن عليها واجبًا نحو الجميع، وأن عليهم أن يوجدوا سبيلًا للتقارب بين الجميع في المعيشة، فالتزمت الحكومات بما يلي:

أولا: إصدار التشريعات اللازمة لحماية العمال.

ثانيًا: فرض الضرائب لإعادة توزيع الدخل والثروة.

ثالثًا: القيام ببعض المشاريع التي يحجم عنها الأفراد، مثل خدمات التعليم والصحة وغيرها، مما تعود مصلحته على الجماعة، ويتطلب ذلك رأس مال كثير.

رابعًا: إصدار التشريعات بمنع الاحتكارات، وقد تلجأ الدولة إلى التأميم لبعض المرافق والمصالح كالكهرباء والمناجم.

خامسًا: أخذت الدولة الرأسمالية بأسلوب التخطيط بغية تحقيق أهداف التنمية، ولا سيما بعد الأزمات الاقتصادية التي مُنِي بها العالم.

وهكذا يتضح أن تلك المزايا كانت إيجابية ومفيدة، فإطلاق الحافز الفردي أدى إلى تجدد النشاط في العمل والإنتاج، وإتاحة المنافسة بين الأفراد والموارد، وإتاحة

الحرية الاقتصادية أدت إلى الإخلاص في العمل. لكن هذه المزايا المفيدة لم تتحقق كما يلزم إلا قليلًا من حيث إنها شجعت فعلًا الحوافز الفردية والجماعية، لكنها لم تجعل لها ضوابط وقيودًا تمنع الغلو في الجشع، أو الظلم على الآخرين أو التذكير بالله تعالى وثوابه وعقابه، أو الرحمة بالفقراء وسلبهم واستعبادهم. بل وصلت الرأسمالية إلى حد أنها تنعدم فيها حتى الفضائل القليلة التي عرفها مجتمع الإقطاع، كالنخوة والشهامة والفروسية... أما الفضائل ومنبعها في ظل النظام الرأسمالي، فهي الربح بأي وسيلة وسبب. فانعدم فيها الجانب الروحي الذي ينبع عنه الخلق الكريم، والإيثار وحب الآخرين، والرغبة في ثواب الله تعالى.

نشأة الرأسمالية، وتطورها وأسسها، وأقسامها

نشأة الرأسمالية وتطورها:

وصف الدكتور نظام محمود بركات الرأسمالية بأنها: مذهب ناتج عن ظهور المدرسة الطبيعية، التي سادت أفكارها فرنسا في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي تقديس حقوق الإنسان، وتركه يعمل كما يحب تحت شعار "دعه يعمل... دعه يمر". أي: أن الإنسان حرٌّ في كل تصرفاته الاقتصادية، ينطلق كما يشاء بعيدًا عن تعاليم الدين أو الأحكام، وربما يقصد بالمدرسة الطبيعية الإلحاد، الذي كان قبل ظهور الشيوعية "كارل ماركس".

وأشهر من دعا إلى هذا المذهب هو "جوب ستيوارت مل"، الذي نشط في الدعوة إلى قيام الأفكار الفردية خصوصًا في الجوانب السياسية، و"هربرت سبنسر"،

الذي دعا إلى إتاحة الحرية الفردية للشخص دون أي تدخل من الدولة غير الحماية العامة. وغيرهما ممن جاء بعدهما. وهذا يدل على أن الرأسمالية في بدايتها كانت نظامًا سيئًا غاية في الجشع، وعدم مراعاة مصالح الغير، ثم تطورت يقول الخطيب: "وقد أدخلت على النظام الرأسمالي بعض الإجراءات للتقليل من مساوئه، كالتأمينات الاجتماعية والنقابات... إلخ. والتي لا تعتبر من صميم هذا النظام". وحتى هذه التعديلات لم تكن على المستوى المطلوب للحد من جشع الرأسمالية العاتية.

وقد خطت بريطانيا أول الخطوات في تطوير الرأسمالية، ثم تلتها أمريكا، ثم بقية الدول الأوروبية، فتدخلت في شئون المواصلات والتعليم، ورعاية حقوق المواطنين، وسن القوانين ذات الصبغة الاجتماعية كالضمان الاجتماعي، ورعاية الشيخوخة والبطالة والعجز والرعاية الصحية، وتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة. ويجب أن يدرك الناس أنه مع كل هذه التطورات لا زالت الرأسمالية شرًّا مستطيرًا، وأنها بخلاف ما جاء به الإسلام نحو المال والتعامل معه.

للرأسمالية أسس تقوم عليها، والتي يندرج تحتها كل الأنظمة المنتمية لهذا الاتجاه أو المذهب، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- البحث عن الربح بشتى الطرق والأساليب، إلا ما تمنعه الدولة لضرر عام كالمخدرات مثلًا.

- تقديس الملكية الفردية، وذلك بفتح الطريق لأنْ يستغل كل إنسان قدراته في زيادة ثروته وحمايتها، وعدم الاعتداء عليها، وتوفير القوانين اللازمة لنموها واطرادها، وعدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية، إلا بالقدر الذي يتطلبه النظام العام وتوطيد الأمن.

- المنافسة والمزاحمة في الأسواق Perfect Competition.

- نظام حرية الأسعار Price System، وإطلاق هذه الحرية وفق متطلبات العرض والطلب، واعتماد قانون السعر المنخفض في سبيل ترويج البضاعة وبيعها.

أقسام الرأسمالية:

قسم الباحثون الرأسمالية إلى أنواع مختلفة في الظاهر، والذي يبدو لي أنها في النهاية تصب كلها في مصب واحد، هو الوصول إلى رأس المال، واقتناصه بكل طريقة يتمكنون بها.

١. الرأسمالية التجارية: وفيها يظهر دور التاجر وطريقة وصوله إلى المال بعد اندحار نظام الإقطاع المتسلط، الذي يجعل الكل للإقطاعي الشره، فبعد زواله أصبح بإمكان التاجر أن يشتري السلع، ويبيعها أينما أراد، ويتمكن من الحصول على الربح وهو أمر لا غبار عليه. إلا أن هذه الرأسمالية أدركها عرق السوء، فإذا بها بعد أن ازدهرت تحولت إلى نظام احتكاري بفعل كبار الأثرياء، وتواطئهم مع السلطات. فأصبح التاجر الصغير لا يملك القوة في تسويق منتجاته أينما يريد، بل لا بد أن يبيعها إلى شخص مراد ومكان مراد، وبسعر مراد شعر التاجر أم لم يشعر، إذ لم يعد له مطلق الحرية في منتجاته، وفي بيعها كما تدعي الرأسمالية.

ثانيًا: الرأسمالية الصناعية: وهذه الرأسمالية تتعلق بأمور الصناعات والآلات، التي حلت محل العمال، وصار لها الثقل الأكبر والتميز الواضح عن الأعمال اليدوية لما تنتجه من وفرة. ولئن كان نفع هذه الآلات لا ينكر إلا أنها

أصبحت كيانًا قائمًا بذاته قسيمًا للعمال، تدار من قبل الملاك أصحاب الثروة الكبيرة، وبالأجر الذي يحبونه بخلاف الحال قبل ظهور هذه الآلات. فقد كان العامل يملك آلته بيده، فأصبحت الآلة الصناعية منافسة مما اضطر العمال للخضوع لها، بالتالي تحكم أصحابها في تشغيل العمال أو تركهم، وبالأجر الذي يحلو لهم.

ثالثا: نظام الكارتل: وهو نظام احتكاري والكارتل: كلمة ألمانية الأصل، وهو نظام جائر يقوم على تمالؤ الشركات الكبيرة على اقتسام السوق العالمية فيما بينها؛ لتصبح منطقة نفوذ لهم. وبالتالي يتحكمون في تحديد الأسعار، واحتكار ما فيه وعن هذا النظام تقول (الموسوعة الميسرة): "كارتل اتفاق بين منتج سلعة معينة على تحديد أسعارها، أو توزيع الأسواق بينهم، أو تحديد الكمية التي ينتجها كل منهم. وقد تقتصر على المنتجين في بلد معين، وقد تكون دورية في نطاقها، بحيث تتناول كبار المنتجين في البلاد المختلفة، وتعتبر ألمانيا موطن هذا النوع من الاتفاقات، ولكنها موجودة صراحة أو ضمنًا في كثير من بلاد العالم.

والاقتصاديون لا ينظرون بعين الارتياح لهذا التنظيم؛ لأنه يضعف روح المنافسة، ويقوي السلطة الاحتكارية، ويحمي المنتج عديم الكفاءة، ويقيد المنتج الذي يتمتع بكفاءة عالية. وفي ذلك إضرار بالمستهلك، ومساس بالتقدم الاقتصادي، غير أن الظروف الاقتصادية، التي تمر بها بعض الصناعات قد تجعل من المصلحة قيام هذا النوع من الاتفاقات في الأمور المشروعة". وقال عنه الدكتور. محمود الخطيب: "الكارتل تكتل بين مؤسسات، ولكن تحتفظ كل مؤسسة باستقلالها، وفي هذا التكتول تحدد الأسعار، وحصة كل منتج من الإنتاج، وتقسم الأسواق فيما بينها".

رابعًا: نظام الترست: ويقصد به تمكين إحدى الشركات من التفوق في المنافسة بتغلبها على ما سواها من الشركات الأخرى، بغرض تحطيم أي منافس لها، فتستحوذ على سائر السلع، وتتحكم في القيمة، فلا يبقى أمام المستهلك إلا الرضوخ والرضا بالأمر الواقع. قال الدكتور محمد إبراهيم الخطيب عن نظام الترست: "الترست تكتل بين مؤسسات، ولكن بعكس الكارتل، حيث تندمج عدة مؤسسات في مؤسسة واحدة، وتتحكم بالتالي في السوق".

أسباب ظهور الرأسمالية

عرفت مما سبق مدى الإحباط والبؤس الذي عانته أوربا في عصورها الوسطى، وسيادة نظام الطبقات البغيض، الذي جعل الناس سادة وعبيدًا وأغنياء وفقراء. قسم يعيش فيالثريا وآخر في الثرى بمباركة الكنيسة، وطغاتها الجبارين المتواطئين مع الحكام، والأباطرة وغيرهم في تخدير الشعوب الأوروبية النصرانية على الرضا بكل تلك الأحوال المخزية؛ كي يحصلوا على النعيم الأبدي، أو دخول ملكوت الله -كما هو تعبيرهم- لأتباعهم المغلوبين على أمرهم.

واستمر الحال فترة من الزمن كانوا يشعرون فيها بهذا الغبن الغليظ، وكما هو الحال فإن سنة الله تعالى ألا يدوم الشر أو الخير دائمًا، فبدأت تباشير الخروج تلوح في الأفق إثر ظهور هذه الدعوات المختلفة على طريقة: بعض الشر أهون من بعض. فحينما بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين، بدأت تظهر هنا وهناك وبين آونة وأخرى حركة تمرد ناشئة تطمح إلى إزالة ذلك الكابوس البغيض، فقام الكتاب والمفكرون والفلاسفة بشحذ أذهان الناس، وإنهم في وضع يجب الخروج منه بأي ثمن كان لنيل الحريات، وأهمها الحرية الفردية في التملك، وإبداء الرأي والكلمة.

وتضافرت تلك الجهود يقوي بعضها بعضًا إلى أن خرج الكتكوت من البيضة، فإذا هم في نظام جديد أو معبود جديد يسمى المال الذي نقلهم نقلة قوية، وحولهم من النظام الإقطاعي والرقيق في تدرج حثيث إلى النظام الرأسمالي. وقد ذكر الأستاذ الخطيب أن الذي ساعد النظام الرأسمالي على الظهور عدة عوامل، كانت الرياح التي تجري فيها بما تشتهي السفن، أذكرها هنا بإيضاح وتصرف وهي:

أولًا: ظهور الدعوات القومية في غرب أوربا التي كانت دافعًا قويا في البداية للتجمع والاتحاد، ثم تجاوزها الأوروبيون بعد أن عاشوا مفاسدها فترة من الزمن، إذ أصبح التنافس على المال والتكالب عليه بين كل قومية وأخرى على أشده. فتركوها وسموها رجعية، فتلقفها المتطفلون من المسلمين ونصارى العرب؛ ليدخلوا بها ذلك النفق الضيق الذي خرج منه أهل أوربا.

ثانيًا: زيادة عدد السكان ولا سيما سكان المدن بسبب هجرة الناس من الأرياف، والقرى إلى المدن طلبًا للرزق، والتنعم بحياة العيش في المدن، فكثرت الأيدي العاملة وبالتالي البطالة. فتطلع الناس إلى أي نظام ينقذهم، وقد أصبحت هذه الهجرة الجماعية مصدرًا لأهل المدن، وسببًا لانتشار البطالة فيما بعد.

ثالثًا: هروب رقيق الأرض إلى المدن: وكان هؤلاء يباعون من الأثرياء تبعًا للأرض التي هم عليها حيث تباع الأرض بما عليها من تراب، ونباتات ومزارع وعمال. وقد مكنهم هروبهم إلى المدن الكبيرة من الاختفاء بها، والتكسب مظلة الحرية الفردية في جمع المال وتوفيره، والتنافس عليه فنشطت الرأسمالية.

رابعًا: مطالبة أهل المدن باستقلالهم عن نفوذ سادة الإقطاع، بعد أن اعتمدوا على ما أظهرته الحركة الصناعية من آلات، وأدوات أفادتهم في تطور الاقتصاد،

عن طريق البر الزراعي، والبحر بثروته السمكية الهائلة الممنوحة من الله تعالى للجميع، فاشتد التنافس بين الجميع.

خامسًا: ظهور النهضة العلمية والفكرية، وحركة الإصلاح للدين النصراني المنهار، تحت وطأة العلم التجريبي وعلماء الاكتشاف، حيث جعلت الناس كلهم يتسابقون ويتنافسون في جمع المال.

سادسًا: انضمام الملوك القوميين إلى مساندة التجار، وإعطائهم الحرية التامة في التملك الفردي أو الجماعي حسب قاعدتهم: "دعه يعمل.. دعه يمر".

ويمكن أن يضاف إلى ذلك استشراف الناس للخروج عما هم فيه من الغبن الفاحش، والتطلع إلى الجديد، لعله يساعدهم على الحياة التي يتطلعون إليها. ولا تنس دور اليهود في قيام الرأسمالية، فإن اليهود وراء كل جريمة ووراء كل مصيبة، بل ووراء كل البنوك الربوية، هم الذين يتحكمون فيها هبوطًا وارتفاعًا، وهم الذين رتبوا لسيادة أصحاب رؤوس الأموال لبناء النظام الاقتصادي الربوي الجشع.

وإذا أردت مصداق هذا الكلام، فاقرأ ما سجلوه على أنفسهم في قراراتهم الجهنمية (بروتوكولات حكماء صهيون). حيث أكدوا على التزامهم بدعم أي نظام فيه مضرة للجوييم، واشتغالهم بأوضاعهم التي عزم اليهود على زعزعتها على مر الزمن انتقامًا واحتقارًا للجوييم لعدم ظهورهم لشعب الله المختار، وقد عرف عن اليهود تفوقهم في استغلال الأحداث على أتم الوجوه.

وقد أكد الأستاذ محمد قطب أن اليهود لم يكونوا هم مصدر كل الأحداث، كما يتصور البعض، ولكنهم يعرفون كيف يستفيدون منها، وكيف يوجهونها لمصالحهم وتحقيق أهدافهم، لا أنهم هم أصحاب الاختراعات الفكرية كلها.

وهناك عامل آخر أسهم أيضًا في ظهور الرأسمالية لا يقل -في نظري- عن أهمية العوامل السابقة، وهو دور السادة زعماء الإقطاع، وكبار الملاك الذين أرادوا الالتفات مرة أخرى للسيطرة على الطبقات الفقيرة، من حيث يشعر هؤلاء أو لا يشعرون.

فكان دورهم الجديد هو تمويل مشروعات النظام الجديد، مقابل أرباح محددة يقطفون ثمارها دون عناء أو تعب بتشغيلهم الفقراء، ويظهر أن هؤلاء هم الذين كانوا وراء قيام البنوك الربوية، والتي حلت أخيرًا محل سادة الإقطاع في الزمن القديم، حيث لم يختلف الأمر في التسميات فقط. لأنه لم يظهر أي مبدأ نبيل يسمو بأخلاق الإقطاعيين، ويوجد في قلوبهم العطف الحقيقي، والقناعة النفسية، أو مراقبة الله تعالى والرغبة في ثوابه والخوف من عقابه؛ لأن التغييرات السياسية، والثورات الحاقدة لا تعطي شيئًا من تلك الأخلاق الحميدة. بل هي أوضاع تزيد في القلب السقيم سقمًا، وهكذا فقد كان لأصحاب رؤوس الأموال الصولات والجولات في الميدان، حيث أصبحوا فيما بعد هم الطبقة العليا، والمسيطرون الحقيقيون على الطبقات الدنيا.

وانتقل أهل أوربا من حكم الإقطاعيات القديم، وطبقة النبلاء إلى حكم الإقطاعيات الجديدة، وطبقة النبلاء الجدد، فكان الخلاف لفظيًّا بين الحالين، إذ لم يستطع الفقراء أن يدخلوا المنافسة في الرأسمالية، لعدم تمكنهم من وجود رؤوس الأموال لإقامة المشاريع الضخمة، التي تتطلب أموالًا كثيرة. فازداد الأغنياء غنًى وثروة، وازداد الفقراء فقرًا وحاجة، وتضاعف البلاء على الفقراء لعدم وجود أي وازع من الدين، أو الفضيلة لدى الرأسماليين، الذين لا حد لجشعهم ورغبتهم في امتلاك أكبر قدر من المال بأي طريق كان من الربا والاحتكار والغش والحيل، واستبعاد المحتاجين؛ فنشأت العداوات الشديدة بين

الفريقين، إذ كان الفقراء ينظرون إلى أصحاب رؤوس الأموال بأنهم ظالمين جائرين لا رحمة لديهم، بينما كان الأغنياء ينظرون إلى الفقراء على أنهم حاسدون لهم، ومنازعون لهم ما في أيديهم. شأن كل الأنظمة الجاهلية، والأخلاق التي لا تقوم على هدى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ التي تجعل الشخص يؤثر على نفسه غيره، ولو كان به حاجة وفاقة، كما قال الله تعالى في ثنائه على الأنصار في إيثارهم المهاجرين إليهم: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

وبكل الأحوال، فسواء أكان هذا النظام الجاهلي المقصود به استغلال، أو كان المقصود به التوصل إلى حلول اقتصادية عادلة تضمن السعادة لكل الأطراف، التي تشمل الأغنياء والفقراء. سواء هذا أو ذاك، فإنه لا يمكن لأي نظام جاهلي أن يسعد أتباعه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وأول شيء افتقدته الرأسمالية وجود الرحمة والعطف على المحتاجين الفقراء، فقد حملتهم تبعة فقرهم تحت مبرر خادع. وهو أنهم لم يعملوا ولم يعرفوا طرق الوصول إلى المال لبلادتهم وجهلهم، فهم كما حكى الله عن قارون أنه قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨].

ولم ينظروا إلى أنفسهم وإلى عمالهم، حيث إن أصحاب رؤوس الأموال لا يعملون نصف ما يعمله، ويكده عمالهم لسد حاجاتهم الضرورية، بينما أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يبالون بجمع المال تحت أي سبب، سواء أكان مشروعًا أو غير مشروع. عن طريق الربا أو عن طريق المخدرات، أو عن طريق بيع الأعراض أو الاحتيالات، وما إلى ذلك، نجد هؤلاء يعيشون في منتهى البذخ والإسراف، كما قيل في المثل: الكلب يشبع والنمور جياع.

لقد وقعت الرأسمالية في مساوئ كثيرة -كأي كل نظام جاهلي- فالحرية الاقتصادية التي تمنحها لأتباعها، وتتبجح بها لم تكن صافية، فالعامل تحت وطأة الحاجة يجب أن يعمل الذي يريده صاحب رأس المال، إذ لا خيار أمامه إلا القبول. وأيضًا لا خيار في مقدار الأجرة التي يفرضها صاحب رأس المال؛ لأنه إذا أبى ذلك، فإن ما وصلت إليه البطالة والعاطلين عن العمل كفيلان بأن يوجد له من يقبل تلك الأجرة في الوقت، الذي يشتد فيه جشع المحتكرين، وسيطرتهم على الأسواق والموارد الوافدة إليه.

وكنتيجة طبيعية إزاء هذه الأوضاع، تفاقمت الهوة بين الأثرياء والفقراء، واختل التوازن السليم في الاستفادة من الثروات.

تابع الرأسمالية

عناصر الدرس

قوانين الرأسمالية، وانتشارها، والتأسيس ومشاهير دعاة الرأسمالية

نكمل الكلام على الرأسمالية، وبيان قوانينها، وأماكن انتشارها، وتأسيسها وأهم الدعاة إليها، وأهم الجوانب المتعلقة بنقدها وإبطال مسارها:

للرأسمالية أو للرأسماليين قوانين يسيرون بموجبها ويطبقونها بكل صرامة، وقد أجملها الأستاذ فتحي يكن في الأمور الآتية:

١. قانون البحث عن الربح.

٢. قانون المزاحمة والمنافسة.

٣. قانون التمركز والقدرة على الإنتاج وحصره.

٤. قانون السعر المنخفض.

وهذه القوانين كما ترى كلها تلهث، وتتلهف على اقتناص الأموال وجمعها وحصرها في نهاية الأمر بيد الأثرياء أصحاب رؤوس الأموال. فإن الذي يهمه فقط كيف يصل إلى الربح لا يهمه أن يظلم العامل، وأن يقلل أجرة عمله إلى الحد الأدنى، وأن يعتبره خدعة الناس، وسلبهم أموالهم تحت أي مبرر ذكاءً وفطنةً يستحق عليه المدح. وهذا القانون هو السبب لوجود قانون المزاحمة والتنافس بين الرأسماليين الجشعين، إذ صار بعضهم يأكل بعضًا، كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله.

أماكن انتشار الرأسمالية:

انتشرت الرأسمالية وقويت في العالم الغربي والدول الصناعية: بريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان وأمريكا، وتتزعمها اليوم في العالم كله أمريكا، التي تسمي نفسها

الدولة العظمى الوحيدة في العالم، أو القطب الواحد والمتحكم في الأسواق الصغيرة والكبيرة. وقد تبعت أمريكا كثيرٌ من الدول الغربية، وسارت على خطاها وعلى خطاياها أيضًا حذو القذة بالقذة. وأما دول العالم الإسلامي، فهي متأرجحة ما بين الالتفات إلى الشرق الاشتراكي، والالتفات إلى الغرب الرأسمالي، وبعضها رفض تطبيقها رسميًّا، وإن كان قد أخذ ببعض مبادئها، وهم ما بين مستقل ومستكثر، منها بحكم قوة الروابط، وضعفها مع الغرب إلا من رحم الله.

وإنه لمن العار أن تتطفل بعض الأنظمة التي تنتسب إلى الإسلام على فتات موائد الشرق والغرب الآسنة، ويتركون النبع الصافي السلسبيل العذب. وهو النظام الإسلامي الذي سعدت به البشرية قرونًا طويلة، من قبل أن يظهر النظام الوضعي الرأسمالي الاشتراكي الجاهليان بصورة شرهة، وتخبطهما في شتى الاتجاهات.

التأسيس ومشاهير دعاة الرأسمالية:

كانت أوروبا محكومة بنظام الإمبراطورية الرومانية، التي ورثها النظام الإقطاعي Feudal System. لقد ظهرت ما بين القرن الرابع عشر، والسادس عشر الطبقة البرجوازية Bourgeois تالية لمرحلة الإقطاع ومتداخلة معها. تلت مرحلة البرجوازية مرحلة الرأسمالية، وذلك منذ بداية القرن السادس عشر، ولكن بشكل متدرج، فقد ظهرت أولًا الدعوة إلى الحرية Liberation، وكذلك الدعوة إلى إنشاء القوميات اللا دينية. ظهر المذهب الحر (الطبيعي) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا، حيث ظهر الطبيعيون Phisiocrates Les، ومن أشهر دعاة هذا المذهب:

-"فرنسوا كَنزني" Francois Quensnay: وولد في فرساي بفرنسا، وعمل طبيبًا في بلاط لويس الخامس عشر، لكنه اهتم بالاقتصاد وأسس المذهب

الطبيعي. فلقد نشر في سنة ١٧٥٦م مقالين عن الفلاحين وعن الجنوب، ثم أصدر في سنة ١٧٥٨م الجدول الاقتصادي Tableau Economique، وشبَّه فيه تداول المال وتداخل الجماعة بالدورة الدموية. وقد قال "ميرابو" حينذاك عن هذا الجدول بأنه: "يوجد في العالم ثلاثة اختراعات عظيمة هي: الكتابة والنقود والجدول الاقتصادي".

-"جون لوك" Jonn Locke: المولود سنة ١٦٣٢، والذي مات سنة ١٧٠٤م: صاغ النظرية الطبيعية الحرة، حيث يقول عن الملكية الفردية: "وهذه الملكية حق من حقوق الطبيعة، وغريزة تنشأ مع نشأة الإنسان، فليس لأحد أن يعارض هذه الغريزة". ومن ممثلي هذا الاتجاه أيضًا "تورجو" Turgot و"ميرابو" Mirabour و"جان باتست ساي" J.B. Say و"باستيا".

ظهر بعد ذلك المذهب الكلاسيكي، الذي تبلورت أفكاره على أيدي عدد من المفكرين من أبرزهم: "آدم سميث" وهو أشهر الكلاسيكيين على الإطلاق، ولد في مدينة "كيركالدي" في اسكتلندا. ودرس الفلسفة، وكان أستاذًا لعلم المنطق في جامعة "جاسكو". سافر إلى فرنسا سنة ١٧٦٦م، والتقى هناك بأصحاب المذهب الحر، وفي سنة ١٧٧٦م أصدر كتابا بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم، هذا الكتاب الذي قال عنه أحد النقاد وهو "أدمون برك": "إنه أعظم مؤلف خطه قلم إنسان".

-"دافيد ريكاردو" David ricardo: ولد سنة ١٧٧٢، ومات سنة ١٨٢٣م، قام بشرح قوانين توزيع الدخل في الاقتصاد الرأسمالي، وله النظرية المعروفة باسم قانون تناقص الغلة، ويقال: بأنه كان ذا اتجاه فلسفي ممتزج بالدوافع الأخلاقية لقوله: "إن أي عمل يعتبر منافيًا للأخلاق ما لم يصدر عن شعور بالمحبة للآخرين".

-"جون استيوارت مل" J. Stuart Mill: ولد سنة ١٨٠٦م، ومات سنة ١٨٧٣ ، يعدُّ حلقة اتصال بين المذهب الفردي والمذهب الاشتراكي ، فقد نشر سنة ١٨٣٦م كتابه (مبادئ الاقتصاد السياسي).

-اللورد "كينز" Keyns: ولد سنة ١٨٨٣ ، ومات سنة ١٩٤٦ ، صاحب النظرية التي عرفت باسمه ، التي تدور حول البطالة والتشغيل ، وقد تجاوزت غيرها من النظريات ، إذ يرجع إليه الفضل في تحقيق التشغيل الكامل للقوة العاملة في المجتمع الرأسمالي. وقد ذكر نظريته هذه ضمن كتابه (النظرية العامة في التشغيل والفائدة والنقود) الذي نشره سنة ١٩٣٦م.

-"دافيد هيوم": ولد سنة ١٧١١ ، ومات سنة ١٧٧٦ ، صاحب نظرية النفعية Pragmatism التي وضعها بشكل متكامل ، والتي تقول: بأن الملكية الخاصة تقليد اتبعه الناس ، وينبغي عليهم أن يتبعوه ؛ لأن في ذلك منفعتهم.

- "أدمون برك" من المدافعين عن الملكية الخاصة على أساس النظرية التاريخية أو نظرية تقادم الملكية.

نقد الرأسمالية وموقف الإسلام منها

وسيتم الكلام على نقد الرأسمالية من خلال النقاط التالية:

عيوب الرأسمالية:

- الرأسمالية نظام وضعي يقف على قدم المساواة مع الشيوعية وغيرها من النظم ، التي وضعها البشر بعيدًا عن منهج الله ، الذي ارتضاه لعباده ولخلقه من بني الإنسان.

- **الأنانية:** حيث يتحكم فرد أو أفراد قلائل بالأسواق تحقيقًا لمصالحهم الذاتية، دون تقدير لحاجة المجتمع أو احترام للمصلحة العامة.

- **الاحتكار:** إذ يقوم الشخص الرأسمالي باحتكار البضائع وتخزينها، حتى إذا ما فقدت من الأسواق نزل بها؛ ليبيعها بسعر مضاعف يبتز فيه المستهلكين الضعفاء.

- **لقد تطرفت الرأسمالية في تضخيم شأن الملكية الفردية،** كما تطرفت الشيوعية في إلغاء هذه الملكية.

- **المزاحمة والمنافسة:** إن بنية الرأسمالية تجعل الحياة ميدان سباق مسعور، إذ يتنافس الجميع في سبيل إحراز الغلبة، وتتحول الحياة عندها إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، وكثيرًا ما يؤدي ذلك إلى إفلاس المصانع والشركات بين عشية وضحاها.

- **ابتزاز الأيدي العاملة:** ذلك أن الرأسمالية تجعل الأيدي العاملة سلعة خاضعة لمفهومي العرض والطلب، مما يجعل العامل معرضًا في كل لحظة لأن يُستبَدل به غيره، ممن يأخذ أجرًا أقل، أو يؤدي عملًا أكثر أو خدمة أفضل.

- **البطالة:** وهي ظاهرة مألوفة في المجتمع الرأسمالي، وتكون شديدة البروز إذا كان الإنتاج أكثر من الاستهلاك، مما يدفع بصاحب العمل إلى الاستغناء عن الزيادة في هذه الأيدي التي تثقل كاهله.

- **الحياة المحمومة:** وذلك نتيجة للصراع القائم بين طبقتين؛ إحداهما مبتزة يهمها جمع المال من كل السبل، وأخرى محرومة تبحث عن المقومات الأساسية لحياتها، دون أن يشملها شيء من التراحم والتعاطف المتبادل.

- **الاستعمار:** ذلك أن الرأسمالية بدافع البحث عن المواد الأولية، وبدافع البحث عن أسواق جديدة لتسويق المنتجات، تدخل في غمار استعمار الشعوب

والأمم استعمارًا اقتصاديًّا أولًا، وفكريًّا وسياسيًّا وثقافيًّا عامة، وذلك فضلًا عن استرقاق الشعوب، وتسخير الأيدي العاملة فيها لمصلحتها.

- الحروب والتدمير: فلقد شهدت البشرية ألوانًا عجيبة من القتل والتدمير، وذلك نتيجة طبيعية للاستعمار، الذي أنزل بأمم الأرض أفظع الأهوال وأشرسها.

- الرأسماليون يعتمدون على مبدأ الديمقراطية في السياسة والحكم، وكثيرًا ما تنجح الديمقراطية مع الأهواء بعيدة عن الحق والعدل والصواب.

- إن نظام الرأسمالية يقوم على أساس ربوي، ومعروف بأن الربا هو جوهر العلل التي يعاني سمنها العالم أجمع.

- إن الرأسمالية تنظر إلى الإنسان على أنه كائن مادي، وتتعامل معه بعيدًا عن ميوله الروحية والأخلاقية، داعية إلى الفصل بين الاقتصاد وبين الأخلاق.

- تعمد الرأسمالية إلى حرق البضائع الفائضة، أو تقذفها في البحر خوفًا من أن تتدنى الأسعار لكثرة العرض، وبينما هي تقدم على هذا الأمر تكون كثير من الشعوب في حالة شكوى من المجاعات التي تجتاحها.

- يقوم الرأسماليون بإنتاج المواد الكمالية، ويقيمون الدعايات الهائلة لها دونما التفات إلى الحاجات الأساسية للمجتمع، ذلك أنهم يفتشون عن الربح والمكسب أولًا وآخرًا.

- يقوم الرأسمالي في أحيان كثيرة بطرد العامل عندما يكبر دون حفظ لشيخوخته، إلا أن أمرًا كهذا أخذت تخف حدته في الآونة الأخيرة، بسبب الإصلاحات التي طرأت على الرأسمالية والقوانين والتشريعات، التي سنتها

الأمم لتنظيم العلاقة بين صاحب رأس المال والعامل. ونتيجة للعيوب الفاضحة التي ظهرت، وتداعت على الرأسمالية ما زال أصحابها يسعفونها بالإصلاحات الواحدة تلو الأخرى؛ لترقيع عيوبها وتدارك نقصها، وأنى لهم ذلك إذا كان الأصل فاسدًا، فما نتج عنه كان كذلك، ومن هذه الإِصلاحات التي طرأت على الرأسمالية ما يلي:

- كانت إنجلترا حتى سنة ١٨٧٥م من أكبر البلاد الرأسمالية تقدمًا، ولكن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت كل من الولايات المتحدة وألمانيا، وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت اليابان.

- في عام ١٩٣٢م باشرت الدولة تدخلها بشكل أكبر في إنجلترا، وفي الولايات المتحدة زاد تدخل الدولة ابتداءً من سنة ١٩٣٣م، وفي ألمانيا بدءًا من العهد الهتلري، وذلك في سبيل المحافظة على استمرارية النظام الرأسمالي.

- لقد تمثل تدخل الدولة في المواصلات والتعليم، ورعاية حقوق المواطنين، وسن القوانين ذات الصبغة الاجتماعية، كالضمان الاجتماعي والشيخوخة والبطالة والعجز والرعاية الصحية، وتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة.

- لقد توجهت الرأسمالية هذا التوجه الإِصلاحي الجزئي بسبب ظهور العمال، كقوة انتخابية في البلدان الديمقراطية، وبسبب لجان حقوق الإِنسان؛ لوقف المد الشيوعي الذي يتظاهر بنصرة العمال، ويدعي الدفاع عن حقوقهم ومكتسباتهم.

الآثار السيئة للرأسمالية: وقد كان لتلك القوانين الرأسمالية آثارها السيئة شأن الباطل دائمًا، وشأن الأنظمة الوضعية، وتنقسم الآثار السيئة للرأسمالية إلى قسمين، حسب تقسيم الدكتور علي جريشة.

الآثار النفسية والاجتماعية: فقد ظهرت في ضعف الوازع الديني، وقوة الوازع الدنيوي المادي، واستغراق حياة الناس في السعي على الرزق والمكاسب والأرباح، ففقد الإحساس بالآخرين، ونشأت قوة الدواعي إلى التعالي والكبرياء والأحقاد والحسد، وإلى ظهور البطالة، كما هو الحال في الدول الرأسمالية الصناعية. حيث أسهمت الآلات الحديثة في إدارة الأعمال بدلًا عن العمال، فأصبح كثير من العمال عاطلًا دون عمل.

الآثار السياسية: ظهرت واضحة في سيطرة أصحاب رؤوس الأموال على الحكم؛ لتمكنهم من شراء الأصوات لصالحهم، وتوزيع الرشاوي على حساب المنافسين على السلطة، كما ظهرت أيضًا على الناخبين لنفس السبب السابق. فآلت السلطة في النهاية إلى يد أصحاب رؤوس الأموال، بغض النظر عن وجود الكفاءة أو عدمها فيهم، فإن العامة لا يهتمون بوجود الكفاءة في الشخص بقدر ما يسديه إليهم من المنافع، فابتعد الفقراء عن السلطة تمامًا.

موقف الإسلام منها:

الرأسمالية تنظيم جاهلي اقتضته الظروف المعيشية التي مرت بها أوربا في عصورها المظلمة، دعا إليه بعض الساسة والمفكرين والكتّاب للخروج من أغلال رجال الكنيسة، وعن الأوضاع الاقتصادية المتردية. وقد يبدو أن لهم مبررات كثيرة في تلك الثورات الهائجة، إلا أنهم يؤخذ عليهم أنهم لم يطرقوا باب الإسلام، ولم يطلعوا على ما فيه من حلول تسعد بها البشرية، ولو طبقوها على امتداد تاريخ وجودهم. بل كان اهتمامهم كله يتركز على محاربة الدين وأنظمته كلها، واستبدال كل ذلك بقوانين الرأسمالية.

ولقد أتت الرأسمالية بحلول كثيرة، بعضها تتوافق مع الإسلام وأكثرها تخالفه، ومع ذلك فإن في الإسلام حكمًا واحدًا تجاه كل من يخالفه، ويشرع من دون الله تعالى أحكامًا وضعيةً، قال الله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. فالإسلام لا يقر أي نظام أو تشريع للبشر بعضهم للبعض الآخر، بل ويعتبره حكمًا جاهليًّا وتطاولًا على حق الخالق العظيم. ويفترق النظام الرأسمالي عن التشريع الإسلامي في جوانب كثيرة جدًّا؛ لأن الإسلام يمقت الشح والتكالب على المال والحرص عليه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

بينما النظام الرأسمالي قائم على هذه الصفة الذميمة، كذلك فإن الإسلام يدعو إلى الرحمة والعطف والتكافل الاجتماعي بصورة منظمة تكفل لكل ذي حق حقه، وقد خلت الرأسمالية من ذلك، كما أنه ينظم حياة الناس، وتعايشهم فيما بينهم، فلا يجعل الحلال ما حل في يد الشخص، والحرام ما حرم منه. ولا يقر أن يعيش الناس تحت طبقات متفاوتة، لا يلوي بعضهم على الآخر ينسحق فيها الفقراء ويلاقون مصاعب الحياة دون أن تمتد يد المساعدة إليهم؛ لأن الإسلام يأبى هذه الأوضاع، ويشنع على أصحابها. بينما الرأسمالية تقوم على هذا الأساس، كضرورة لا مفر منها للانتعاش الاقتصادي كما يزعمون.

وإذا كان الإسلام قد حرم الشح وذمه، فإنه حرم الاحتكار الذي يضر بالمصلحة، وأكد أنه ((لا ضرر ولا ضرار)) والاحتكار من مزايا الرأسمالية، كما أكد تحريم الربا بل اعتبره حربًا سافرة ضد الإنسانية، وضد التشريع الإلهي. بينما تجد هذه الجوانب من مقومات الرأسمالية قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]. فأي نظام حر رأسمالي حرم الربا؟ بل إن النظم الجاهلية، كما

يعرف الناس تسمي الربا فائدة، أما الإسلام فإنه يعتبر النظرة إلى المادة وحدها دون ضوابط، ولا رجوع إلى السمو الروحي والأخلاق الفاضلة والتسامح، ولين المعاملة يعتبرها الإسلام حياة بهيمية غير لائقة بالبشر يأكل أصحابها كما تأكل الأنعام.

لأن الإسلام يوازن بين حياة الجسم، وحياة الروح التي أغفلتها الرأسمالية، واهتمت فقط بالحياة الجسمية، والوصول إلى إشباع النداء الجسماني بكل وسيلة مشروعة كانت أو غير مشروعة. كما أن الإسلام يعتبر الحرية التي ليس لها ضوابط وحدود فوضى لا استقرار فيها ولا سعادة من ورائها، بينما التنافس الحر وهو تنافس أشبه ما يكون بتنافس الكلاب على الجثة الميتة. فإن أصحاب رؤوس الأموال يتهاوشون أحيانًا فيما بينهم على الاستحواذ على مصادر الموارد، وإزاحة المنافس كما تفعل السباع بفريستها، وهذا دأبهم دائمًا.

قيل: إن بعض هؤلاء الرأسماليين الجشعين قيل له عند موته: ماذا تتمنى؟ فذكر أنه يتمنى لو أنه يملك من المال كذا وكذا، ويتمنى لو أن شفايف النساء كلهن تجتمع له في شفة فيقبلها؛ لأن غرضه في هذه الحياة هو الوصول إلى مآربه، والاستمتاع بكل ما يراه دون ضوابط أو ضمير. ومما سبق يتضح أن نظام الإسلام، حتى وإن وجد بعض التوافق بينهما فقد تبين لك:

أولًا: أن الرأسمالية نظام بشري اقتضته الظروف المعيشية في الغرب لمبررات عديدة، بينما الإسلام نظام إلهي فالفرق كبير.

ثانيًا: كما أن الإسلام نسبة إلى الاستسلام لرب العالمين، والرأسمالية نسبة إلى الاستسلام للمال، وكيفية جمعه وادخاره.

ثالثًا: تضمن الرأسمالية للفرد حرية الملك دون أي قيد، أما الإسلام فإنه وإن أباح حرية التملك، لكنها حرية منظمة محكومة بالقاعدة المشهورة في الإسلام: ((لا ضرر ولا ضرار)).

رابعًا: لا تعارض الرأسمالية قيام جمع المال بالوسائل التي يحرمها الإسلام، ويحذر منها كالربا والغش والاحتيال والاحتكار، بينما الإسلام يحرم كل ذلك.

خامسًا: الرأسمالية تشجع على المنافسة والمزاحمة في العمل، وإيجاده وإنجازه دون حد، والإسلام يشجع ذلك لكنه ينظم تلك المنافسة، فلا يجعلها على شرعية: من عز بز ومن غلب استلب، دون مراعاة الفقراء أو تحطيمهم اقتصاديًّا.

سادسًا: ليس في الرأسمالية نظام التكافل الاجتماعي كالزكاة، ودورها في سد حاجات الفقراء بدون من ولا أذى، حيث يأخذ الفقير حقه دون أي شعور بالذلة لأحد، بينما يوجد في الرأسمالية نظام عائدات الضرائب، التي يعطي الشخص بمقدار ما يسمح به رصيده.

سابعًا: الرأسمالية تعطي للفرد الحق في مطلق التصرف فيما له دون أي اعتبار، حتى ولو أنفقه في العبث والإسراف وأنواع المحرمات، بينما الإسلام يعطيه الحرية ويحدد له مسار الإنفاق المشروع وغير المشروع، فحرم إنفاقه في أشياء كثيرة، كالخمر والقمار والميسر وأنواع اللهو.

ثامنًا: لا يوجد في الرأسمالية بعض قضايا التكافل الاجتماعي المفيد كالإرث مثلًا، فإن الرأسمالية لا ترى بأسًا أن يجعل الشخص أمواله بعد موته في أي محرم، ولو كان ذلك المال يصرف على كلب المالك أو خنزيره. أما الإسلام فإنه يعترف بالحفاظ على الانتفاع بالمال في كل طريق شرعي، ومنه الإرث فإنه ملك شرعي للمال، وكذلك مثل: الوصية، الهبات، الصدقات، ونحو ذلك مما رغب فيه الإسلام.

تاسعًا: الإسلام يجعل الشخص حسيب نفسه، فيثير فيه المراقبة الذاتية لله تعالى في الخوف من عقاب الله تعالى، والطمع في ثوابه، فلا يسمح أن تكون النظرة موجهة فقط للربح، وهذا الجانب لا يوجد في الرأسمالية، فكل واحد حبله على غاربه فيها. وقد حاول النظام الرأسمالي إيجاد البديل كدعوى الإنسانية، وبعض قوانين العقاب المالي أو البدني، لكنها لم تثمر الثمرة المرجوة أو الموجودة في مراقبة الله وحده.

عاشرًا: قانون المنافسة والمزاحمة في العمل أدى إلى ظهور الغربة الجامحة لدى المالكين إلى البحث عن السعر المنخفض، وتخفيض أجور العمال، بل والتحايل لإسقاطها بينما الإسلام ينهى عن كل ذلك. فلا يبيح الغبن لا في البيع ولا في الشراء ولا في الأجرة، فهو يعطي الأجير أجرته قبل أن يجف عرقه، وفيه الخيارات في البيع التي حددها الفقهاء، كما يحرم الإسلام كل وسيلة تؤدي إلى الخصام والعداوة والاختلاف.

حادي عشر: الحريات في الرأسمالية لا تقف عند حد، فإن حرية الكلمة يدخل فيها حرية التبجح بالفجور والإلحاد، والحرية الشخصية يدخل فيها استحلال جميع الفواحش. وحرية الأديان يدخل فيها إباحة الإلحاد إضافة إلى ما فيها من الغبن الفاحش، وظلم الفقراء، أما الحرية في الإسلام فهي مصونة بضوابطها الشرعية في مراعاة الحقوق كلها حق النفس وحق الغير.

ثاني عشر: يعيش الرأسمالي في قلق دائم بعد أن افتقد اليقين بأن الله هو الرزاق لجميع خلقه، وقد ظهر قلقهم في ما يسمونه الانفجار السكاني أو ندرة الموارد، وزيادة الحاجات، وما إلى ذلك مما يجعل الناس يعيشون في قنوط وتخوف. متناسين

ما تأخذه الأمراض والحروب، والحوادث من نفوس في كل ساعة لا يعلم عددهم إلا الله -تبارك تعالى.

ثالث عشر: ينعدم في الرأسمالية العطف والتراحم والمحبة، بسبب قيام المجتمع الرأسمالي على النظام الطبقي طبقة الأثرياء الرأسماليين، وطبقة الفقراء العمال، فالطبقة الأولى لا يهمهم إلا جمع المال، وتوفير المكاسب بأي وجه يكون. ومما يدل على الجفاء في النظام الرأسمالي: هو حرق المنتجين لبعض منتجاتهم حفاظًا على ارتفاع الأسعار، رغم أنين الجياع في أكثر من مكان من الأرض. أما الإسلام فإنه يجعل من أوليات العلاقة بين الناس العطف والإنصاف والإيثار، وحسن المعاملة بأن يحب الشخص لأخيه ما يحب لنفسه، ورتب على نبذ الشح الفلاح، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

الطبيعيون، والمذهب الوضعي الإلحادي

عناصر الدرس

سيادة الطبيعة على الدين والعقل معًا بانتهاء القرن الثامن عشر

بانتهاء القرن الثامن عشر انتهى عصر التنوير تقريبًا، وابتدأ عصر آخر من عصور الفكر الأوربي تميز بسيادة الفكر المادي، وظهر ذلك مع بداية القرن التاسع عشر، حيث أخذت فلسفة هذا القرن تتجه نحو سيادة الطبيعة على الدين والعقل معًا. وإلى اعتبار الواقع مصدرًا للمعرفة اليقينية مقابل الدين والعقل. وما الدين والوحي في نظر هذا الاتجاه إلّا وهم أو خداع، وما العقل إلّا وليد الطبيعة التي تتمثل في الوراثة البيئية والحياة الاقتصادية.. إلخ. ومن هذا المنطلق كانت وضعية "كونت" وماركسية "كارل".

ترجع نواة هذا المذهب إلى القرن الخامس قبل الميلاد على يد الفيلسوف الإغريقي "بروتا جوراس"، ثم تطور بعمل الفيلسوف الفرنسي "بايل" في النصف الثاني من القرن السابع عشر، الذي رفض التعليل العقلي للحقائق الدينية، أي: رفض أن يقوم من العقل دليل على وجود تلك الحقائق. وكان لذلك أثره في دفع الحياة العلمية في فرنسا إلى الواقعية، وصار مفهوم العلم في فرنسا آنذاك مقصورًا على التجربة الطبيعية والإنسانية، أي: التي يجربها الإنسان في محيط الطبيعة فقط دون غيرها.

ثم عرف بهذا المذهب في القرن الثامن عشر الفيلسوف الإسكتلندي "هيوم"، الذي رأى أن مهمة العقل متوقفة على ما تأتي به الحواس والتجارب، والربط بين المدركات الحسية في العالم الخارجي. إلّا أن المذهب لم يأخذ مكانه في تاريخ الفلسفة كمدرسة، إلّا على يد الفيلسوف الفرنسي "أوجست كونت" في القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك التاريخ عرف بالمذهب الوضعي، فـ "أوجست كونت"

يعتبر المؤسس الأول للفلسفة الوضعية، وهي الفلسفة التي لا تعتبر شيئًا ما حقيقيًّا، إلا ما جاء إثر التجارب الحسية.

واعتبر "أوجست كونت" أن العقل الإنساني مر بحالات مسماة بقانون الدورة الثلاثية، أو قانون المراحل الثلاث، وهي الدين والميتافيزيقيا والواقعية، ، فاعتبر الدين في القرون الوسطى مصدرًا للمعرفة، ثم جعل للعقل اعتباره بدلًا من الدين في عصر التنوير في القرن الثامن عشر. ثم صارت المعرفة الحسية أو الوضعية وحدها هي المعتبر، وفي العقل والدين معًا في القرن التاسع عشر، وكان يقصد بالدين المسيحية.

وجاء بعد "كونت" تلميذه "لودفيج فيرباخ" أحد الفلاسفة الألمان في القرن التاسع عشر، الذي تعتبر فلسفته من الأسس القوية في بناء الماركسية، حيث يرى أن الفلسفة هي علم الواقع في حقيقته وعمومه، وجوهر الواقع والحس كلهم سواء. وفي نظره من جانب آخر أن علم الإنسان هو الدين، والدين محصول العقل الإنساني، وليس موحى به خارج الإنسان، والحياة الأخروية في نظره ليست شيئًا غير هذه الحياة الإنسانية.

والأساس الخاص الذي قامت عليه هو تقدير الطبيعة، وتقييمها وحدها كمصدر للمعرفة والطبيعة أو الحقيقة أو الواقع أو الحس، كلها تدل على معنى واحد في نظر الوضعيين، وتقدر هذه الفلسفة الطبيعية لا كمصدر مستقل فحسب للمعرفة، بل كمصدر فريد للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة. ومعنى تقديرها للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة في نظرها هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان، وهي التي توحي بها وترسم معالمها الواضحة، هي التي تكون عقل الإنسان، والإنسان لهذا لا يملي عليه من ذاته الخاصة. إذ ما يأتي من ما وراء

الطبيعة خداع للحقيقة وليس الحقيقة، وكذلك ما يتصوره العقل من نفسه، وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضًا، وبناء على ذلك يكون الدين وهو وحي أي ما بعد طبيعة خداع.

أما الجو الذي نشأت فيه الوضعية، فهو سيطرة اللعبة على بعض الفلاسفة في معارضة الكنيسة، وبما أن الكنيسة تملك نوعًا خاصًّا من المعرفة تستغله في خصوص المعارضين، هو المعرفة الدينية فقد جاء ذلك لمعارضتها، ومعارضة معرفتها. وأخذ المذهب الوضعي ينكر دين الكنيسة، ويضع دينا جديدًا مكانه يسمى بالإنسانية.

لقد تفانى الغرب في التطور المادي، وتمكن من استخدام منافع الأرض وتسخيرها في رفع مستوى المعيشة، وتسهيل الخدمات الإنسانية. ويتمثل ذلك في الثورة الصناعية الهائلة، والأبحاث الكيمائية الفائقة، كصناعة الأدوية، والمركبات العضوية وغيرها، وتطور واسع في بحوث العلوم الطبيعية، المساهمة في رفع المستوى الصحي والاجتماعي والاقتصادي للإنسان.

هذا التطور الحضاري في ناحيته: ناحية الصناعة، وناحية البحث الطبيعي والكيمائي، له أثره الإيجابي المحايد في الحياة الإنسانية، سواء في جانب رفع المستوى المادي في المعيشة، أو في جانب الإنتاج العقلي والفني.

إذ مما لا شك فيه أن الإنتاج الذهني مرتبط ارتباطًا وثيقًا -ارتفاعًا وانخفاضًا- بالحالة الصحية والنفسية للإنسان.

وللغرب بجانب هذا وذاك -بجانب الفكر، والحضارة الصناعية والبحوث الطبيعية البحتة- بحوث عقلية توجيهية هي ما تعرف باسم الثقافة.

ولابد قبل البدء بالحديث عن تفاصيل الوضعية أو الفلسفة الوضعية، أن ننوه بأن المناخ التاريخي والإيديولوجي لها، هو مناخ فرنسا في القرن التاسع عشر، هذا

الزمن المليء بالاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي عرفتها فرنسا، وبصفة خاصة في أعقاب الثورة الفرنسية الكبرى، كما سبق بيانه.

لقد كان الصراع قائمًا بين الفئات المحافظة في المجتمع، وهي التي كانت تسعى إلى أن تفرض على المجتمع الجديد قوانين المجتمع القديم، وبين القوى الثورية التي كانت أفكارها تتسم بالغموض.

وبالتالي كان من الضروري أن يكون هناك نوع من التآلف بين فكرتي النظام والتقدم، بغية رفع الفوضى السياسية، هذا بالنسبة للوضع السياسي والاجتماعي القائم.

أما على الصعيد المعرفي، فإن القرن التاسع عشر قد شهد درجةً كبيرة من تطور العلوم الرياضية والفيزيائية والكيمائية، ولذلك رأى الفيلسوف "أوجست كونت" أن إقامة علم بالمجتمع أصبح أمرًا ضروريًّا؛ لإتمام سلسلة العلوم المكونة للمعرفة الوضعية.

ولو حاولنا أن نستقرئ المعنى الذي استخدمت به لفظة علم بالتصنيفات العلمية، لوجدنا أن العلم كان مرادفًا لمعنى المعرفة، فكل معرفة يمكن أن يحدد لها ضمن نسق معرفي معين، وبالتالي فإن العلم هو المعرفة المنظمة المتعلقة بموضوع واحد.

المذهب الوضعي

والمذهب الوضعي هو امتداد للمذهب التجريبي، الذي يرى أن تحميل الإنسان للحقائق الكونية، ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية.

ففي العالم الحسي تكمن حقائق الأشياء، أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية، والبحث عن العلة في هذا المجال، فأمر يجب أن يرفض، ولهذا

تكون كل نظرية أو كل فكرة عن وجود له طابع الحقيقة واليقين فيما وراء الحس نظرية أو فكرة مستحيلة.

هذا هو تقدير المذهب التجريبي للمصدر الذي تستقي منه الحقيقة، أما موقف هذا المذهب من العبارات على وجه العموم، فيرى أنها لا توجد ولا تنشئ معرفة للأشياء على حقيقتها، ولا عن خواصها التي لها؛ إذ هي بعيدة الصلة عن ذلك، ولهذا لا تقول إلا بما تحسه فقط، وبالشبه الذي يكون بين الأشياء ببعضها بعضًا.

وهذا المذهب عرف به في القرن الثامن عشر الفيلسوف الأسكتلندي "هيوم" أما عمل العقل في نظره فهو وقف على ما تأتي به هذه الحواس والتجارب، ليس له من عمل سوى أن يربط بين ما تأتي به هذه الحواس والتجارب، وهي المدركات الحسية أو صور المفردات في العالم الخارجي.

وقد يغير العقل في وضع هذه الصور في نفسه عن وضع أصولها في الخارج، وقد يوسع أو يقلل في الصور نفسها التي هي التجارب والمدركات المحسوسة، ولكنه على أي حال لا يخرج عن دائرتها، وبهذا العمل العقلي تنشأ الأفكار، ومن بينها في كرة الله، كما سنبينه عند الكلام على موقف المذهب الوضعي من الدين.

ثم من بعد "هيوم" تطور المذهب بعمل الفيلسوف الفرنسي "بايل" Bayle، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، إذ قد رفض "بايل" التعليل العقلي للحقائق الدينية.

أي رفض أن يقوم من العقل دليل على وجود تلك الحقائق، وبالأخص على وجود الحقيقة الإلهية، ونال بهذا الرفض من كل معرفة تتجاوز المحسوس ولا تكمن فيه، وهي معارف الميتافيزيقا كلها.

ثم بعد أن نال من هذه المعارفطلب في الحياة الأخلاقية أن يحكم الإنسان العقل وحده، وبذلك ينكر الإيمان الديني، والذي يعتبره مناقضًا للعقل.

ولكن أي إيمان ديني أنكره "بايل"؟! إنه الإيمان بالتثليث، أي إيمان الكنيسة الكاثوليكية، وهو الإيمان الذي يؤسس عليه أن يجمع عيسى في طبيعته بين طبيعتي الإله والإنسان.

وقد أثر اتجاه "بايل" هذا ضد الميتافيزيقا، وضد الحقائق الدينية التي وراء العالم المحسوس على السواء، في التضييق على المعاني النظرية الصرفة، وبالتالي دفع إلى الحياة العملية الواقعية.

وكان أثر هذا الاتجاه في فرنسا أكثر منه في إنجلترا، وأصبح مفهوم العلم في المحيط الفرنسي إذ ذاك مقصورًا على التجربة الطبيعية والإنسانية، التي يجربها الإنسان في محيط الطبيعة دون الحقائق الدينية، والفلسفة الميتافيزيقية.

ولم يأخذ هذا المذهب التجريبي مكانه في تاريخ الفلسفة كمدرسة، إلا على عهد الفيلسوف الفرنسي "كونت" في القرن التاسع عشر، ومنذئذ عرف بالمذهب الوضعي (Positivism).

و"أوجست كونت" يعتبر إذن المؤسس الأول للفلسفة الوضعية، وهي الفلسفة التي لا تعتبر شيئًا ما حقيقيًّا وواقعيًّا، إلا ذلك الموضوع الوضعي كما تقدم بيانه، والذي جاء أثرًا لتجارب الحس، ويمكن مع اختباره بالحس.

والمذهب الوضعي الذي استخلصه "أوجست كونت" من المذهب التجريبي السابق عليه، يرى أن الفلسفة يجب أن تجتاز ثلاث مراحل، وتنتقل من مرحلة إلى أخرى، لكي تستقر في المرحلة الأخيرة.

يجب أن تمر في المرحلة الأولى: وهي المرحلة التي يشرح فيها الإنسان الشيء الطبيعي، ويعلل وجوده ومظاهره من القوى الخارجة عن الطبيعة، وهي القوى الإلهية، أي من دائرة الدين.

وتنتقل الفلسفة إلى المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي يشرح فيها الإنسان الحياة الإنسانية وقوانينها وأغراضها، من عبارات نظرية تصويرية إنسانية، أي من دائرة الميتافيزقيا، أي من العقل النظري الخالص.

ثم تنتقل الفلسفة إلى المرحلة الثالثة، وهي المرحلة الوضعية أو الواقعية، والتي يقف فيها الإنسان على علاقات الظواهر بعضها ببعض، عن طريق الملاحظة والتجربة وحدها.

وفي هذه المرحلة الأخيرة يجب أن تستهلك الفلسفة، وينتهي وضعها في التوجيه، ويفنى أمرها في العلوم المختلفة التي تنشأ على أثرها، وتكون نتيجة التجارب وحدها.

ويتميز بلوغ الفكر المرحلة الوضعية من تطوره في ميدان من ميادين المعرفة بذلك التعبير الجذري، الذي يحدث في طريقة النظر إلى الظواهر، ولا شك في أن هذه الخاصية هي من أهم ما يميز المرحلة الوضعية.

والميزة الحقيقية للمعرفة الإنسانية في المرحلة الوضعية، تقوم على التقسيم المنظم لهذه المعارف إلى جملة من الاختصاصات، وفي المراحل التي سبقت المرحلة الوضعية، ثم تطور المعرفة الإنسانية لم يكن هناك أي تقسيم منظم للمعارف، فلقد كان مفكر واحد يمكن أن ندعوه فيلسوفًا يشتغل بكل المعارف.

لكن فيما بعد قد أصبح كل علم مستقلا بنفسه عند تحقيق شرطين: التراكم المعرفي الكمي والمحصل بصدد الموضوع، والتغيير الجذري في طريقة نظره إلى ذلك الموضوع، أي تطبيقه للطريقة الوضعية للدراسة.

إذن إن الفلسفة الوضعية، ليست شيئًا غريبًا عن الاختصاص العلمي، بل هي بعض منه، أي: إنها تستجيب لشرط التخصص العلمي في مظهريه المتعارضين، فالفلسفة الوضعية تعمل على الربط بين النتائج العلمية المحصلة في كل ميدان على حدة، وبين مجموع المعرفة العلمية.

ونجد بصدد مهمة الفلاسفة الوضعيين عددًا من التحديدات، أي: أن عليهم أن يحددوا روح كل علم من العلوم، وإليهم يرجع أمر اكتشاف العلاقات المتبادلة بين العلوم المختلفة.

وعليهم أن يلخصوا المبادئ الخاصة للعلوم في أقل عدد ممكن من المبادئ العامة، وإليهم يرجع أخيرًا أمر الربط بين كل اكتشاف علمي جزئي، وبين النسق العام للمعارف الوضعية.

ولقد مرت المعارف الإنسانية بمرحلتين وهما: المرحلة اللاهوتية، والمرحلة الميتافيزيقية، كما تقدمت الإشارة إليه، عبَّرَ من خلالها العلماء والفلاسفة عن طبيعة تكوين النسيج الفكري والمعرفي، لكن فيما بعد أتى الفيلسوف وعالم الاجتماع "أوجست كونت" ليطور المرحلتين إلى مرحلة ثالثة وهي المرحلة الوضعية.

أي: المرحلة التي تربط العلم بالواقع الإنطلوجي، الذي يقوم على مبدأ البساطة والعمومية، أي ترتب تلك العلوم على حسب بساطتها بالنسبة لقراءة الظواهر، بالإضافة إلى ترتيبها وفق التطور الفكري للإنسان في التاريخ، ثم تصنيفها تبعًا لدقة كل علم على حدة، وتبعًا لإمكانية كل علم للتحليل الرياضي في دراسة ظواهره.

وعلى أساس هذا السياق التاريخي والمعرفي السابق، تم تقسيم العلوم على مجردة، موضوعها اكتشاف القوانين التي تحكم في مختلف فئات الظواهر، وعلوم وصفية جزئية يمكن أن تدعى أحيانًا بالعلوم الطبيعية.

وتتميز الطريقة الوضعية، بإضفاء الصفة النسبية على الظواهر المدروسة، فالانتقال من النظرة المطلقة للظواهر إلى النظرة النسبية لها، قد مثل دائمًا أحد الظواهر الأساسية للتطور، الذي ينقل أية معرفة من المرحلتين اللاهوتية والميتافيزيقية إلى المرحلة العلمية.

إذن يمكن أن نفهم مما سبق أن وضعيو الجيل الأول، يرون أن المسألة الأساسية في الفلسفة، كغيرها من المشكلات الجذرية ستبقى إلى الأبد دونما حل، وذلك بسبب ضعف العقل البشري وقصوره.

وهذا ما أدى إلى ظهور الوضعيين الجدد، أو ما يطلق عليه الوضعية المنطقية، أو الذرية المنطقية، أو التجريبية المنطقية، أو مدرسة التحليل المنطقي، وحلت هذه الوضعية كتيار عالمي جديد.

والغرب في هذه البحوث العقلية التوجيهية قد سلك فيها مسلكين:

الأول: مسلك المثاليين، أو المعنويين.

الثاني: مسلك الماديين، أو الوضعيين، أو الواقعيين، أو الاجتماعيين، أو المجددين.

ولكنه لم يسر -منذ عصر النهضة- في هذين المسلكين سيرًا متوازيًا، بل في الوقت الذي تطورت فيه حضارته الصناعية منذ النهضة الأوربية، وتطورت بحوثه الطبيعية البحتة والكيمائية على إثر ابتعاد العقلية الأوربية في بحثها عن مجال ما بعد الطبيعة، وتركيز نظرتها إلى الطبيعة تنفيذًا للخطة التي اشتركت فيها الكنيسة الغربية، في هذا الوقت ابتدأ الاتجاه المادي يسود في بحث العلوم العقلية والروحية، وابتدأت تغفل في بحث وسيلتها الخاصة، وهي الوسيلة النظرية أو

العقلية الصرفة، وأصبح يطلب فيها ضمانًا لمعنى اليقين استخدام المنطق الوضعي، وهو منطق الملاحظة والتجربة.

وبرزت سيادة الاتجاه المادي في بحثها على عهد"أوجست كونت" الفيلسوف الفرنسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر كما تقدم، واشتد أمره على عهد "كارل ماركس" في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، صاحب المذهب الاجتماعي أو الشيوعي، أو صاحب المذهب المادي التاريخي. وبالتالي تخلف مسلك المثاليين، وضعفت قيمته في دائرة البحث العلمي، ونتيجة لذلك قل اعتبار البحث النظري الميتافيزيقي، ورمي بالخرافة، واستبعد الدين ووصف بأنه مخدر. وأخرجت القيم الأخلاقية المثالية من مجال تقدير الإنسان صاحب الحضارة الصناعية، وصاحب المذهب الواقعي، أو الاجتماعي في التوجيه الإنساني.

لازم إذن التقدم الصناعي الغربي، انتشار المذهب المادي في التوجيه، وفي بناء الثقافة الغربية الحديثة، ، واتخذ هذا المذهب من الحضارة الصناعية الغربية حجة له وسندًا في قيامه وسعة نفوذه، ويعتبر القرن التاسع عشر المسرح الزمني لسيادته كما ذكرنا. Augut Comte -وهو من عمد هذا المذهب- يرى أن العقل الإنساني يمر في تاريخ الإنسانية بثلاث مراحل: مرحلة الدين، ومرحلة الميتافيزيقيا، وأخيرًا المرحلة الوضعية أو الواقعية، كما تقدم.

ويرى أن المتحكم في المرحلة الأولى رجل الدين ورجل الحرب، وفي الثانية الفيلسوف والقانوني، وفي الثالثة العالم الطبيعي ورجل الصناعة. ولأن الفرد في نظره هو الحقيقة الأولى، التي يجب أن تبتدئ منها الحياة العملية، والشعور الجماعي هو الغاية الأخيرة للحياة، يرى "كونت" أن العلوم التي يجب أن تكون الثقافة هي: علوم الرياضة، الفلك، الطبيعة، الكيمياء، علم الأحياء، علم

الاجتماع. وهو العلم الذي يجب أن تتركز فيه الأهمية، إذ إنه علم الحقائق والقوانين المتعلقة بالجماعة الإنسانية، وهدفه تنظيم الحياة الإنسانية كلها، تنظيم الجماعة الإنسانية تنظيمًا يتطور فيها حال الحرب إلى حال الصناعة. وحال الحيوانية إلى حال الإنسانية، وحال الغريزة العمياء إلى حال سيادة العقل، وحال الأنانية إلى الشعور الجماعي.

وهذه العلوم التي يراها أساس الثقافة في حاجة؛ لكي تتطور هذه الأحوال بسرعة إلى دين الإنسانية، وهو الدّين الطبيعي الذي يجب أن يكون موضوعه الإنسانية نفسها، وهي الطبيعة الكبرى. وقوام هذا الدين: المحبة كمبدأ، والنظام كأساس، والتقدم كهدف وغاية، والإنسان بدلًا من أن يعبد الله يجب أن يتجه في عبادته إلى الطبيعة الكبرى وهي الإنسانية. أما البحث الإلهي الديني، وأما البحث الفلسفي الميتافيزيقي، فكلاهما في رأي "كونت" عديم الجدوى. الدين والفلسفة ما بعد الطبيعة خرافة يجب أن يبعدا عن دائرة الثقافة.

والفرد إذن تبعًا لهذا المذهب هو الأمر الواقع، هو الحقيقة الوضعية، ولذا يجب أن تتجه النظرة الباحثة إليه أولًا، ثم من هذا الفرد يحدث الترقي والتطور، ويحدث تحديد المصير لحياة الجماعة كلها. الفرد أولًا، والجماعة ثانيًا، هما الحقيقتان الموجودتان، وإحداهما مبدأ والأخرى غاية، تلك نظرة المذهب الواقعي أو الاتجاه المادي. هذا على عكس الدين تمامًا: إذ في الدين يبدأ تحديد المصير للكون كله من الله -تبارك وتعالى- ثم إليه تعالى ينتهي هذا الكون، فالله في الدين هو الأول والآخر، والفرد والجماعة الإنسانية تتلقى التوجيه من الوحي السماوي. وتوجيه البشر قاطبةً في نظر الدين إذن توجيه تلقائي، وليس منبثقًا مما يسمى الحقيقة الأولى المشاهدة في هذا العالم، وهي الإنسان الفرد كما يقول الإنسان المادي.

والمذهب المادي والدين طرفان متقابلان تمامًا في النظرة إلى الوجود، وفي توجيه الإنسان فردًا وجماعة: ذلك يقصر الحقيقة على الفرد والجماعة، وينكر ما عداهما كمصدر للتوجيه وغاية للحياة. وهذا يؤمن بموجود أسمى وراء الفرد والجماعة وهو الله، منه التوجيه، وفيه تتحقق الغاية الأخيرة للحياة الإنسانية والوجود الإنساني. والمذهب المادي في تطوره -وهو المذهب الواقعي أو الوضعي- ، أو مذهب التفسير المادي للتاريخ، صار إلى المذهب الاجتماعي أو المذهب الشيوعي: وقوام هذا المذهب نقل قيمة الفرد كلية من ذاته إلى وحدة الجماعة الكبيرة. أو ما يسمى بالإنسان العام، أو الإنسان التعاوني، والدولة المطلقة هي المبدأ الأخير للحياة كلها، وتطبيقًا لهذين الأساسين يجب تأميم مصادر الإنتاج والاستهلاك في دائرة الاقتصاد.

وكان المذهب الشيوعي تطورًا للمذهب المادي أو الواقعي، لأنه من حيث المبدأ يعترف بالفرد والجماعة فقط كحقيقته في هذا الوجود، وينكر ما عداهما: لا يؤمن بالله كما يقول الدين، ولا يعترف بالعلة الأولى فيما بعد الطبيعة كما تقول الفلسفة الميتافيزيقية. ولكنه مع مشاركته للمذهب الواقعي في الاعتراف بهاتين الحقيقتين يبالغ في قيمة الجماعة فيجعلها كل شيء، والفرد لذلك لا ترى حقيقته، ولا تقدر قيمته إلا داخل الجماعة، ومن هنا قد يعنون له بالمذهب الاجتماعي.

و"كارل ماركس" صاحب المذهب الاجتماعي أو الشيوعي، يصدر في فلسفته عن الفهم المادي للتاريخ، ويعتبر الاقتصاد الأساس المحدد لكل شيء، والمغير للعالم وما فيه، حتى الثقافة العقلية والروحية: فتطور العقل الإنساني وآثاره الإيجابية في الدولة والقانون تتصل في نظر "ماركس" اتصالًا وثيقًا بالظروف المادية للحياة

وأحوالها. ثم طريقة الإنتاج في الحياة المادية تؤثر في مجرى الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية، والوجود الاجتماعي للإنسان هو الذي يحدد في الجملة لذلك عقل الإنسان وتكوينه.

وهناك أيضًا صور أخرى للتيار المادي في التوجيه، ظهرت أيضًا في القرن التاسع عشر، ولكن عنفها ضد الدين وضد الفلسفة الميتافيزيقية لم يبلغ مبلغ المذهب الاجتماعي أو الشيوعي لـ "كارل ماركس" ومع ذلك فهي مناوئة لهما. منها مذهب النسبية Relativismus، الذي يرى أن الحقيقة ليست مطلقة، بل مرتبطة أيضًا ارتباطا بصفة الآلة المفكرة وظروفها التي تفكر فيها. وصورة أخرى تتمثل في مذهب البراجماتزم Pragmatisnus، مأخوذ من كلمة براجما الإغريقية، وهي الشيء الواقع، أو المصلحة المتبادلة لمؤسسه الفيلسوف الأمريكي "وليم جيمس" في آخر القرن التاسع عشر.

وفي رأي هذا المذهب أن الحقيقة التي تخدم المصلحة الخاصة والحق كذلك، ليس قيمة من القيم في ذاته، والخير ليس من القيم الرفيعة المطلقة، بل الذي يحقق المصلحة الخاصة هو الحق، وهو الخير أيضًا. وممن عني بالاتجاه المادي من فلاسفة الإنجليز: "هيوم" و"ميل" و"إسبنسر" و"راسل". وهذا الاتجاه يرجع في أصله إلى الفيلسوف الإغريقي "بروتاجوارس" في الفلسفة القديمة. ولسنا الآن بحاجة إلى الرد على هذا المذهب من وجهة نظر علماء آخرين، ومدارس توجيهية أخرى لها حظها في الثقافة الغربية الحديثة، إذ لم يكد ينتهي القرن التاسع عشر، الذي تسلم من عصر النهضة الأوربية الدعائم الجديدة لهذا المذهب المادي في التوجيه.

وتسلم كذلك أنصاف الحلول في المشاكل العقلية، لم يكد ينتهي هذا القرن حتى قامت فيه بعض المدارس المقابلة الأخرى؛ لترد إلى الدين اعتباره، وإلى الفلسفة الميتافيزيقية اعتبارها، فنجد "اسبرانجر" يكافح مذهب النسبية بما وضعه من علم

سماه علم القيم أو الطبائع، وانتصر بذلك لمذهب المطلق المقابل لهذا المذهب. واشترك مع "ڤيلهلم ديلتاي" في محاولة إزالة الفجوة بين العقل والوحي، أو بين العلم والدين، وأبعدا في محاولتهما استخدام طريقة البحث الطبيعي في الموضوعات العقلية والدينية، وأعادا إليها طريقة البحث العقلي، وهي النظر الخالص.

كما نجد الفيلسوف الألماني في القرن العشرين و"ماكس شيلير" قد حاولا أن يجعلا الفلسفة تبتدئ من التجارب النفسية؛ لتصل إلى المعرفة الميتافيزيقية. وهذه المحاولة وتلك نقض لاتجاه المذهب المادي الذي ساد في القرن التاسع عشر، وتكون على أثر تقدم البحث الطبيعي في عصر النهضة الأوربية نتيجة استخدام وسيلة هذا البحث، وهي الملاحظة والتجربة الآلية في البحوث الروحية والعقلية.

وإذا كان لنا أن نذكر أحداثًا مادية تعقيبًا على الآثار السلبية للمذهب المادي في الحياة الغربية خاصة، والإنسانية على وجه العموم. فنشير فقط إلى أن الديمقراطية الغربية -وهي صاحبة الكفة الراجحة في الحضارة الصناعية الحديثة- ترى في هذا الاتجاه المادي خطرًا على الإنسانية، وتراثها من المدنية والثقافة، وأصبح شعورها بهذا الخطر يزداد يومًا بعد يوم. كما نشير إلى أن سيطرة رجل الصناعة والعالم الطبيعي أو الاجتماعي، التي نشدها "أوجست كونت" في فلسفته الواقعية هي التي سببت الحرب العالمية الأولى وكذا الثانية.

وإن دلت هاتان الحربان على شيء وراءهما، فليس على المحبة كمبدأ، ولا النظام كأساس، كما طلب "كونت" في دينه الذي سماه بالدين الطبيعي، وجعله الوسيلة لتحقيق الجماعة المنشودة، بجانب قصر الثقافة على مواد معينة، ليس من بينها الدين، والفلسفة الميتافيزيقية. هاتان الحربان نعم كان وراءهما تكتل عالمي تجاوز حدود القوميات، ولكنه تكتل لم تتحول فيه الحيوانية إلى الإنسانية، والغريزة

العمياء إلى العقل السائد، والأنانية إلى الشعور الإنساني الجماعي. على نحو ما انتظر "أوجست كونت" يوم يكون لرجل الصناعة وللعالم الكلمة الأولى في التوجيه، دون رجل الدين ورجل الجيش، ودون القانوني والفيلسوف، وقد كانت سيادتهما السبب المباشر المختفي وراء قيامهما.

كما أن إفناء الفرد في الجماعة، وجعل الجماعة بمعناها الواسع الغاية الأخيرة في الحياة، كما يرى ذلك المذهب الوضعي أو الشيوعي هو الذي يهدد الغرب الآن في حضارته الصناعية، وفي تراثه التاريخي من الثقافة الروحية والإنسانية. وهو الذي يحمل الغرب كذلك على أن يباشر في سياسته الدعوة إلى الروحية، كوقاية من الآثار السلبية لهذا المذهب المادي.

ولكن بالرغم من مناوأة بعض العلماء المثاليين أو الروحيين، وبالرغم من وضوح الآثار السلبية لهذا المذهب في الحياة الإنسانية، بالرغم من ذلك لم يزل هذا المذهب مقترنًا في التصور بالحضارة الصناعية الغربية، والبحوث الطبيعية البحتة. وهذا الاقتران نفسه هو سبب الاختلاف في تقدير الحضارة الصناعية الغربية، وسبب التردد في الأخذ بها عند كثير من علماء الشرق الإسلامي، وقادتهم في التوجيه.

وفي الوقت نفسه من وجهة نظر أخرى: هذا الاقتران في التصور بين التيار المادي في التوجيه والحضارة الغربية الصناعية، أوحى لبعض كتاب الشرق وعلمائه بأن يضغطوا على الثقافة الإسلامية الأصيلة، وعلى التوجيه الروحي عامة في الشرق. لأنهم ظنوا - نتيجة لهذا الاقتران في التصور - أن الشرق سوف لا يقبل الحضارة الصناعية الغربية، إلا إذا ألغى اعتبار التوجيه الروحي، وأخذ بوجهة نظر المذاهب المادية، وعلى الأقل في صورة المذهب الوضعي أو الواقعي لـ "أوجست كونت"، أو في صورة مذهب البراجماتزم لـ "وليم جيمس" كما سيأتي تفصيله.

وأصبحنا نجد في المكتبة العربية المعاصرة: المنطق الوضعي وخرافة الميتافيزيقيا لبعض أساتذة الجامعة في مصر، كما أصبحنا نسمع في المؤتمرات، التي استهدفت تحديد معالم الثقافة الضرورية للمواطن الشرقي صيحات تطالب بإبعاد الدين، وما يتصل به من ثقافة من محيط الثقافة الضرورية للمواطن في الشرق الأدنى. على نحو ما حدث في المؤتمر الثقافي العربي الثاني، الذي عقد بمدينة الإسكندرية في ٢١ أغسطس سنة ألف وتسعمائة وخمسين، عند عرض مقررات اللجنة الثقافية على المؤتمرين من مصر والبلاد العربية.

وما زال بعض الكتاب في الصحف والدوريات يوالي نشاطه في تضخيم الهوة بين الثقافة الإسلامية من جانب، والحضارة الصناعية الغربية من جانب آخر، وينعت هذه الثقافة بأنها العقبة في تحضير الشعوب الشرقية على نحو ما في الغرب. وللغرب - بجانب الحضارة الصناعية، والبحوث الطبيعية البحتة، والتوجيه المادي في مجال الثقافة - لون آخر من الثقافة ليس ماديًا في الأساس والنشأة، ولكنه مادي في الغاية والهدف. وهو الدراسات الاستعمارية، التي تتناول مخصصات الشعوب الضعيفة ومقوماتها من التراث العقلي والروحي والفني، وأقصد بالشعوب الضعيفة الشعوب، التي ليست لها حضارة صناعية حديثة تساير حضارة الغرب الحالية.

إن كثيرًا من علماء الغرب يتناول ثقافة الشرق العقلية والروحية والفنية بالشرح، والتخريج بناءً على فكرة سابقة لديهم: وهي أن الشرق يجب أن يبقى في وضعه من الغرب. الغرب سيد والشرق مسود، وذلك تحقيقًا لغاية اقتصادية أو صليبية، وتطبيقًا لهذه الفكرة تصبح ثقافة الشرق إذا استوردت من الغرب مصدر ضعف للشرقيين أنفسهم، لا مصدر قوة لهم، وتبعًا لذلك توحي لهم بالحاجة إلى الغرب في التوجيه، وبوصايته عليهم فيما يأخذون ويتركون.

ولم تزل ترن في أذهاننا للآن كلمة أحد المستشرقين في المؤتمر الثقافي الإسلامي، الذي عقد بجامعة "برينستون" بـ "نيوجرسي" في سبتمبر عام ١٩٥٣ عند ما ذكر: أن المسلمين قاموا بدور إيجابي في تصحيح الحديث يسجله لهم تاريخ الثقافة الإنسانية بالفخار، ويرجى من معاصريهم الآن أن يقوموا بتصفية القرآن، وإزالة التناقض فيه كما ادعى. ومن اطلع على توجيهات المستشرقين في بحوثهم في دائرة الثقافة الإسلامية، يجد كثيرًا من توجيهاتهم تقوم على الغرض، وفي بعض الأحيان على نقص في استيعاب الفكرة، أو على الفهم اللغوي الحر في بعض النصوص العربية.

وبعض المعاصرين منهم يطالب باستخدام الطريقة العلمية -وهي وسيلة البحث الطبيعي- في التراث الإسلامي الروحي، بدعوى أن التاريخ الإسلامي نفسه، وكذا بعض الحقائق الإسلامية في حاجة إلى تنظيم علمي ومراجعة علمية، كي تساهم في خدمة الإنسانية عامة. ونلخص الآن إلى أن في الغرب:

أ. حضارة صناعية، ومقدماتها من البحوث الطبيعية المحايدة.

ب. وتوجيها ماديًّا عنيفًا في الثقافة العربية، بجانب توجيه آخر هزيل بالقياس إلى مجاوره في قوة السلطان، وبسط السيطرة هو التوجيه المثالي أو الروحي.

ج. توجيهًا استعماريًّا فيما يسمى بالدراسات الإسلامية، أو دراسات الاستشراق على العموم هناك.

تابع: المذهب الوضعي الإلحادي

عناصر الدرس

موقف القانون الوضعي من الخالق والدين والأخلاق

قد فصلنا الكلام على المذهب الوضعي الإلحادي، وبيان دسائسه، بقي علينا توضيح موقف هذا المذهب من الخالق والدين والأخلاق:

وقد تولدت الفكرة المادية في القرون الأخيرة، وشاعت بين الناس لسببين رئيسين هما: سياسة الكنيسة، أوالكشوفات العلمية.

أولًا: لقد كانت الكنيسة في العصور الوسطى، وبداية العصر الحديث تسلك سياسة تناقض الأخلاق كما تناقض العقل، تناقض الأخلاق، بما آل إليه أمرها من استغلال العباد والسيطرة على رقابهم، ونهب أموالهم بشتى الطرق مستعملة شعائر سماوية. وتناقض العقل لاعتماد على ترهات كمسألة الغفران، ومسألة استحالة الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه من جهة، ومعاداتها لكل جديد يتوصل إليه الفكر الإنساني، وإن يكن في ميدان الطبيعة كحقيقة دوران الأرض وكرويتها من جهة أخرى.

إن هذه السياسة قد جعلت الكثير من أهل الفكر ينقمون على الكنيسة ويكفرون بها، بل إن كفرهم بها تعدى إلى الكفر بما تدعو إليه من من مسائل الغيب. باعتبار أن من فقدت الثقة به في شيء فقدت الثقة به في كل شيء، فاعتبر لذلك هذا الدين الذي تدعو إليه الكنيسة، إنما هو من باب الترهات والزيف.

ثانيًا: لما حدثت النهضة العلمية بما تحمل من الكشوفات الهائلة في الفضاء الواسع، وفي الأجسام الدقيقة، وما نتج عنها من الثورة الصناعية الثرية الإنتاج. لما كان ذلك، داخل العقول يقين بأن الحق والخير إنما يأتيان من هذا الطريق الجديد، متمثلين في دقيق القوانين العلمية، وفي وفير الإنتاج المتأتي منها. وإن

فكل ما سوى العلم إنما هو وهم لا حق فيه ولا خير، ومن ذلك الدين: هذا الذي لم يقدم للإنسانية طيلة قرون ما قدمه العلم في فترة قصيرة؟ اختمرت هذه المعاني في العقول، وتضافرت فيها النقمة على الكنيسة، وما تدعو إليه من الانبهار بالعلم ونتائجه؛ لتبرز في شكل فلسفي. مؤداه: أن المادة هي الحقيقة الكبرى في الكون، وكذلك ما وراءها من الغيب إنما هو زيف، وكل ما يقع في الطبيعة، وكل ما يقع في المجتمع، وكل ما يقع في النفس إنما هو راجع إلي سبب مادي. وكل ما يقوله رجال الدين عن القوى الغيبية إنما هو شيك لا رصيد له في المصرف، ثم تزيت هذه الفكرة الأساسية بأزياء مختلفة بحسب اختلاف الجهة التي يقع منها النظر إلى هذه الحقيقة.

موقف القانون الوضعي من الدين:

فالوضعية التي وضع فكرتها الأساسية "أوجست كونت" تعتبر الدين مرحلة بدائية من مراحل التفكير الإنساني، لم يوفق فيها إلى اكتشاف سبيل الحقيقة، والمرحلة التي توصل فيها إلى هذا السبيل إنما هي المرحلة الوضعية، التي اكتشف فيها الإنسان الطريقة التجريبية. وتبعًا لذلك فإنه كلما أمكن معالجة مسألة بالملاحظة، والاختبار انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم، واعتبر حلها نهائيًّا، أما المسائل التي لم تقع تحت الملاحظة فهي خارجة عن دائرة العلم.

ويدل تاريخها على أنه لم تتقدم خطوة واحدة منذ أن وضعت، ويقتضي هذا أن يكون الدين من حيث إنه أفكار تصورًا لا أساس له من الصحة، إذ إنه لا يقابله واقع، وأن يكون من حيث إنه طريقة معرفة طريقة فاشلة لا تؤدي إلى الحقيقة. وقد اشتهر المذهب الوضعي والمؤسَّس الحديث لعلم الاجتماع بقانونه المسمى قانون الأطوار الثلاثة، كما تقدم وهو قانون بُني على الإلحاد، وأُسِّس على جحد الخالق؛ إذ يرى أن تطور التفكير الإنساني مرَّ بثلاثة أطوار تاريخية وهي:

الأول: الطور اللاهوتي: وهو بداية التفكير الإنساني، وفيه يفسر الإنسان كل الظواهر الطبيعية بردِّها إلى أسباب، وقوى خرافية كالإله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- أو العفاريت والأشباح.

الثاني: الطور الميتافيزيقي أو الغيبي: وفيه يفسر الإنسان كل الظواهر الطبيعية بردها إلى قوى ظاهرة -كالجبل أو الشمس-، يظنها قادرة على إحداث الظواهر الطبيعية.

الثالث: الطور الوضعي: وهو الطور العلمي المعاصر الذي ارتقى فيه الإنسان بفكره، واستطاع أن يفسر الظواهر الطبيعية بردها إلى أسباب موضوعية خالية من تخيلات اللاهوتيين، وتوقعات الميتافيزيقيين.

موقفه من الأخلاق:

قد عرفنا موقف "كونت" ورأيه في الجانب النظري، أما في الجانب العملي، أي: تفكيره في الحياة العملية، وفيما يجب على الإنسان من سلوك خلقي بعد التوجيه فيها. فإن "كونت" يرى أن الحياة العملية الأخلاقية تبتدئ من أنَّا أي من أنا أي: تبتدئ من الأنانية أو الذاتية؛ كي تصل حتمًا إلى الإحساس أو الشعور الاجتماعي، أو إلى ما يسمى بالمعنى المشترك. ومعنى ذلك أن على الإنسان أن يسلك في الحياة بحيث يبتدئ من ذاته ولذاته، فينتهي حتمًا إلى المجتمع والفناء فيه.

والحياة العملية عندئذ تحتاج في جانب هذه النظرة إلى دين أي تحتاج إلى عبادة. ولكن أي دين وأي عبادة؟! إنه دين الطبيعة الكبرى، والإنسان هو المعبود. وقد كان تفكير هذا المذهب الوضعي من العوامل القوية في قيام الماركسية، والشيوعية فيما بعد. وقد كانت الأخلاق تدخل في نطاق الدراسات الفلسفية، وكان

الفلاسفة يبحثون في الأخلاق بوصفها علمًا معياريًّا يحدد للإنسان المبادئ التي يجب أن يسير عليها ؛ ليكون سلوكه أخلاقيًّا.

ولكن "كونت" رفض هذه المعيارية الفلسفية ، وقرر نقل الأخلاق من نطاق الفلسفة التأملية التحليلية إلى نطاق علم الاجتماع الوضعي التجريبي ، الذي يدرس ما هو قائم فعلًا من ظواهر أخلاقية ، وليس ما يجب أن يكون من سلوك أخلاقي. وهذا يعني أن الأخلاق أصبحت علمًا وضعيًّا تجريبيًّا ، مثل أي علم من علوم الطبيعة مع فارق وحيد ، وهو أن التجريب في علم الاجتماع ليس معمليًّا ، ولكنه استقراء يعتمد على الملاحظة العلمية للظواهر الاجتماعية ، وكشف القوانين التي تتحكم في مسارها. وفي تشكيلها وفي اكتشاف نشأتها الاجتماعية بوصفها ظواهر اجتماعية ليست فطرية في الإنسان ، ولا تنشأ في حياته من فراغ ، وإنما هي ثمار تظهر نتيجة ظروف معينة في المجتمع الذي ينشأ فيه الإنسان.

ولذلك قال "كونت" : "إن الحياة الأخلاقية للإنسان تبدأ حيث تبدأ الحياة الاجتماعية للإنسان ، وتتحدد وفقًا للمبادئ السائدة في المجتمع ، الذي يحدد القيم الأخلاقية ، التي تجبر الإنسان على الالتزام بسلوك أخلاقي معين ، وتختلف من مجتمع إلى آخر. لأن الأخلاق نسبية ، ولكن نسبية الأخلاق لا يعني انحطاطها أو زوالها". أما دراسات "كونت" في الديناميكيا الاجتماعية ، فقد كانت تدور حول نظرية التقدم المادي ، والتقدم في الطبيعة الإنسانية ، ونظرية المراحل الثلاثة.

وكان يرى أن انتقال الإنسانية من مرحلة إلى مرحلة لا بد أن يكون مصحوبًا بالتقدم المادي ، وخاصة في مجال السيطرة على قوى الطبيعة من أجل تأمين الاحتياجات المادية للإنسان ، ولكن "كونت" كان يؤكد على أن النمو العقلي يؤدي إلى النمو المادي. وأن التقدم في الطبيعة الإنسانية يكون أكثر وضوحًا في

الطبيعة البيولوجية والعقلية، ولكنه كان يرى أن التقدم العقلي في هذا الجانب أساسي ؛ لأن التاريخ يحكمه ويوجهه نحو الأفكار.

كما كان "كونت" يؤمن بأن التحول إلى المجتمع المثالي لا يتحقق بالثورة السياسية، بل بالتطبيق المناسب لعلم أخلاقي جديد، وهو الذي سماه علم الاجتماع، ولذلك كان "كونت" الأب الروحي لعلم الاجتماع، وهو أرفع العلوم كما قال "كونت". ولذلك كان يرى أن الديناميكيا الاجتماعية، أو ما يعرف الآن باسم التغيير الاجتماعي تمر بثلاث مراحل، وهي المرحلة اللاهوتية، حيث يعتقد الناس أن الموضوعات الجامدة، التي لا حياة فيها هي موضوعات حية، وقد مرت هذه المرحلة بثلاث مراحل:

مرحلة تعتقد أن كل موضوع له إرادته الخاصة، ومرحلة تعتقد أن إرادة السماء تفرض نفسها على كل الموضوعات، ومرحلة تعتقد بوجود إله واحد يفرض نفسه على كل الموضوعات. والمرحلة الثانية: وهي المرحلة الميتافيزيقية التي سادت فيها فكرة وجود كيان عظيم واحد هو الطبيعة. والمرحلة الثالثة: وهي المرحلة الوضعية أو المرحلة العلمية الحديثة، وهي مرحلة نهاية التطور البشري، كما يعتقد "كونت"، والمرحلة التي تتميز بأنها مرحلة إيجابية يحل فيها العلم محل الخرافات، حيث يطور البشر عملية التفسير بالمصطلحات الطبيعية والقوانين العلمية.

وعند هذه النقطة من تطور المجتمع يصبح من الممكن التحكم في الأحداث الإنسانية، وكان "كونت" يعتقد أن المدنية الأوربية هي المدنية الوحيدة التي اجتازت المرحلتين السابقتين، ووصلت إلى المرحلة الوضعية من التحكم في الظروف الطبيعية، وأصبحت على حافة الوضعية فيما يتعلق بالعلاقات

الاجتماعية. وقد حظي التفكير التحليلي باهتمام الكثير من المفكرين في القرن العشرين، من أمثال: "برت راند رسل" و"جورج إدوارد مور" و"لودفيغ متليشين" و"ميناريوس" و"أنشتاين" و"رودلف كارناب". وزكي نجيب محمود، وهو فيلسوف فلسطيني من أصل مغربي، ويحمل الجنسية المصرية، و"الفريد جولز أيار"، وهم جميعًا وإن كانوا استمرارًا للحركة التجريبية وامتدادًا للوضعية الكلاسيكية، التي نشأت على يد "كونت" و"جون ستيوارت مل" إلا أنهم وخاصة "الفريد جولز أبار" قد اتجه اتجاهًا خاصًّا في الفلسفة التحليلية، حيث مزج بين التحليل والفلسفة الوضعية المنطقية، التي دعت إليها المدرسة المعروفة باسم حركة فيينا.

كما تبنى "أبار" الموقف الوصفي المنطقي لحلقة فيينا، وأضفى عليه طابعًا تحليليًّا خاصًّا حيث وضع نظرية في المعنى تمثلت في صياغة لمبدأ التثبيت، الذي يمثل معيارًا يقيس به ما له معنى من العبارات، ويفرزه عما هو فارغ من المعنى.

عرض أفكار الفيلسوف الإنجليزي الملحد "برت راندرسل"

وجدير في هذا المقام أن نعرض لأفكار واحد من المدرسة الوضعية، مما يتعلق بموقف أصحاب هذا المذهب من الدين والذات الإلهية، والأخلاق. ذلك هو: "برت راندرسل": هو فيلسوف إنجليزي ملحد، ذو تأثير قوي في ميدان الدراسات الفلسفية. عاش ما بين: (١٨٧٣ ومات سنة ١٩٧٠م)، وهو من أسرة أرستقراطية معروفة، كان جده رئيسًا للوزارء الإنجليزية، على مبدأ الأحرار. وقد أثار حربًا شعواء؛ ليظفر بحرية التجارة، وبالتعليم العام المجاني، وبتحرير طائفة اليهود.

كان "برت راندرسل" أشهر الفلاسفة، الذين عرفهم الفكر الفلسفي أثناء الفترة الممتدة من بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. كتب في مختلف مجالات الفكر الفلسفي، وكتب في غيرها أيضًا، وكان ذا نشاط تأليفي غير عادي، وقد ظل صاحب الخطوة الأولى لدى الذين يطلقون على أنفسهم التقدميين من المثقفين المعاصرين الملاحدة في أوربا وذيولها. وهو ذو تطرف سياسي، ومتطرف جدًّا في إلحاده، وقد بسط أفكاره السياسية والإلحادية المتطرفة في كتابات أدبية مؤثرة. أثرت كتاباته السهلة على العامة، وأثرت كتابته العميقة على الفكر الأوروبي المعاصر كله. وهذه بعض أفكاره ومواقفه:

أولًا: ذهب إلى اعتبار الإنسان جزءًا لا قيمة له بين أجزاء الطبيعة، وزعم أن العقل الإنساني خاضع للقوانين الطبيعية، إذ اعتبرها متحكمة في جميع ضروب الفكر. وزعم أن العلم الذي يشكل المصدر الوحيد لمعرفتنا، لا يمكن أن يفسح مجالًا للاعتقاد بوجود الله، أو بخلود النفس. وزعم أن فكرة الخلود فكرة بالغة البطلان والاستحالة، إذ لو كان الخلود هو المصير الذي ينتظر النفس بعد الموت، فما السبب إذن في عجز النفس عن أن تشغل لها حيزًا إلى جانب الجسد في هذه الحياة الدنيا؟

ثانيًا: أفرط "برت راندرسل" إفراطًا شديدًا في صب هجومه على الدين قائلًا: "إن الدين لا يقوم إلا على عوامل الترهيب والتلويح بالعقاب، وبالتالي فإن الدين يشكل ضربًا من ضروب الشر التي تملأ هذا العالم. وهذا هو السبب في أننا نجد أن أولئك الذين لم يبلغوا بعدُ درجة كافية من النضج الأخلاقي والعقلي، هم وحدهم الذين ما زالوا يتمسكون بالمعايير الدينية، التي تناهض طبيعتها جميع المعايير الإنسانية الخيرة، التي يجب أن تسود عالمنا الحديث" هذا قوله.

ثالثًا: يرى "رسل" أن للإنسان إرادة حرة تدفعه إلى أن يقيم لنفسه في الحياة مثلًا عليا، يطمح بها إلى تحقيق حياة خيرة، تسير على هدى المعرفة والمحبة الإنسانية، ومن شأن حرية الاختيار هذه أن تغني الإنسان عن البحث عن نظريات أخلاقية لا طائل وراءها. وإذ زعم أنه لا جدوى للنظريات الأخلاقية التجريدية لضرورات الحياة العملية، فقد بدا له أن يقدم برهانًا على ذلك مثال الأم التي تواجه مرض طفلها الصغير، فقال: "إن تلك الأم لا تحتاج في سعيها وراء شفاء طفلها إلى مشرعين أخلاقيين، وإنما تحتاج إلى طبيب ماهر قادر على وصف العلاج المناسب".

وللتشجيع على الإباحية الجنسية، زعم رسل أن القواعد الأخلاقية قد أخذت ترتكز اليوم شيئًا فشيئًا على تصورات خرافية باطلة. منها على سبيل المثال: ما نشاهده من انحراف في سن التشريعات الأخلاقية الجنسية، المتمثلة اتجاه المجتمعات الحديثة إلى تحريم جميع صور الزواج الجماعي، وقصره على صورته الواحدية، وفي استهجان الزنى، ومحاربة الزناة. وزعم أن السعادة التي هي الغاية التي يجب أن تطمح الإنسانية إليها، لا سبيل إلى بلوغها إلا بقهر عوامل الخوف والإرهاب، اللذين دأبت الأديان والشرائع الأخلاقية على التلويح بهما في وجه الإنسان.

وذلك بالوقوف في وجههما بفضائل الشجاعة والإقدام، وتقويتهما عن طريق التربية، وخلع الكمالات على الإنسان بالتحلي بشتى القيم. وتصور كلامه يكفي في الدلالة على بطلانه، وبعده عن العقل الصحيح، ولكن لنلقي الضوء على سبيل الاختصار على بعض ادعاءاته؛ ليزيد ذو البصر بصيرة، وتطمئن نفس من أخبت قلبه لله. وعليه سيتم الرد من خلال الأوجه التالية:

الوجه الأول: لقد اكتشفنا من أقوال "رسل" أن فلسفته تعتمد على الاعتراف بأن العلوم، متى تجاوزت منطقة المدركات الحسية، فإنها لا تملك معارف يقينية. ولكن مع ذلك لا بد من قبول هذه المعارف التي يتوصّل إليها بالاستنباط، وإن لم تكن يقينية؛ لئلا تتعطل الحياة العملية، وتقف عن الإنجاز، إذ لا سبيل إلى اليقين فيها.

فليس هو في هذا من الذين لا يقبلون إلا ما يدرك بالحس المباشر أو غير المباشر، وإنما يجعل ما يتوصل إليه من تفسيرات علمية مقبولًا بصفة ترجيحية، لضرورة العجز عن الوصول إلى اليقين. فما الذي صدّه إذن عن الإيمان بالله ﷻ، والإيمان باليوم الآخر الذي هو من لوازم حكمته وعدله، مع أن الأدلة الاستنباطية الترجيحية هنا -إن رُفِض اعتبارها يقينية- أقوى بكثير من التخيلات الأخرى، التي يفسر بها الملحدون نشأة الكون وتطوره، ونشأة الحياة وتطورها؟!

هنا تظهر عقدة الهوى والتعصب ضد الدين، عند "رسل" وعند سائر الملحدين. وهذا التعصب لديهم، لا تدعمه أية أدلة مرجّحة لقضية الإلحاد، بل ليس للإلحاد في الحقيقة أي دليل، غير مجرد سفسطاء وتخيلات تقوم في رؤوس أصحابها فقط. إن التفسير البديل لقضية الإيمان بالخلق الربّاني إنما هو فرضية الارتقاء الذاتي، وأزلية المادة.

أما أزلية المادة فقضية مرفوضة علميًّا ومنطقيًّا، وأما الارتقاء الذاتي: فيعبّر عنه السير "آرثر كيث" بقوله: "الارتقاء غير ثابت، ولا يمكن إثباته، ونحن نؤمن بهذه النظرية؛ لأن البديل الوحيد هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهو أمرٌ لا يمكن حتى التفكير فيه". لكن: لماذا لا يمكن التفكير فيه؟ والجواب الوحيد: لأنه لا يسمح له بهواه بأن يعترف بالله خالق، وبأن يخضع له بعد ذلك خضوع العبادة

والطاعة. فتمرده وتمرد نظرائه الملحدين إنما هو تمرد المستكبرين المعاندين، أو تمرد طالبي الفجور في الأرض، دون أن يشعروا بأن فوقهم رقيبًا محاسبًا، عزيزًا حكيمًا. وهم يدعون إلى الإلحاد لإضلال الجاهلين، الذين لم تكشف لهم أضواء المعرفة طريق الحق.

الوجه الثاني: لقد سقط "رسل" في سخف استدلالي مفضوح جدًّا، حيث احتج على عدم جدوى النظريات الأخلاقية التجريدية لضرورات الحياة العلمية، على عدم الحاجة إلى مشرعين أخلاقيين. بمثال الأم التي تواجه مرض طفلها الصغير، إذ قال: "إن تلك الأم لا تحتاج في سعيها وراء شفاء طفلها إلى مشرعين أخلاقيين، وإنما هي تحتاج إلى طبيب ماهر قادر على وصف العلاج المناسب". إنه بهذا الاستدلال قد لعب لعبة التعميم الفاسد مرتين:

الأولى: حين جعل هذا المثال كافيًا لإلغاء حاجة البشرية إلى التشريعات الأخلاقية. أظن أن مثل هذا الاستدلال لا يقبله أطفال المتعلمين فضلًا عن عقلاء الناس ومثقفيهم، وذلك؛ لأن الناس جميعًا يلاحظون أن للإنسان نوعين من السلوك؛ أما أحدهما: فهو يلائم هوى الإنسان وعاطفته أو شهوته، وهو مع ذلك ينطبق على المبادئ الأخلاقية، ولا يتعارض معها، ومن ذلك عاطفة الأم التي تتحرك بلهفة لشفاء طفلها المريض.

وأما الثاني: فهو يلائم هوى الإنسان وعاطفته أو شهوته، ولكنه يتعارض مع المبادئ الأخلاقية: الحق والواجب والفضيلة والجمال، ويدخل في هذا النوع الثاني آلاف الأمثلة من السلوك الإنساني. إن أمثلة العدوان على الحقوق، وظلم الناس للناس، وجنوح الأهواء الإنسانية إلى ما يسبب الهلاك والدمار، أمور تدفع إليها الأهواء الإنسانية إلى ما يسبب الهلاك والدمار، أمور تدفع إليها

الأهواء والشهوات أو العواطف الخاصة، فهي تتلاءم معها، إلا أنها تتنافى مع المبادئ الأخلاقية، فهي تحتاج إلى مشرعين أخلاقيين.

فماذا يقول "رسل" وأشياعه: لو ضربنا آلاف الأمثلة التي يحتاج فيها البشر إلى تشريعات أخلاقية، وهذه الأمثلة مأخوذة من الواقع: سلوك المجرمين، والمنحرفين، والظالمين في الأرض. ومأخوذة من كثرة من صور السلوك الإنساني التي تتكرر آلاف المرات، في كل مجتمع مهما صغر، وتكاد تكون هي الظاهرة الغالبة في كل سلوك إنساني، تدفع إليه دوافع لا تلتقي أهواؤها مع الدوافع الأخلاقية النبيلة على طريق واحد. فيلاحَظ من سلوك الإنسان فيها فعل الشرّ والإثم والبغي والعدوان، لا فعل الخير والحق والعدل وما هو حسن.

إن هواه في محاربة الدين والأخلاق قد أسقطه في تفاهات فكرية لا يسقط بمثلها الصغار جدًّا، فضلًا عن الكبار والعلماء وأعلام الرجال الباحثين، وكلمته التي قالها في شأن الأم التي تسعى وراء شفاء طفلها: "إنها لا تحتاج إلى مشرعين أخلاقيين، وإنما تحتاج إلى طبيب ماهر قادر على وصف العلاج المناسب". نقول في مقابلها: إن الذين يموتون على أيدي الأطباء المهرة، وفي المستشفيات المختلفة، نتيجة الإهمال والرغبة بابتزاز الأموال، لا يحتاجون إلى أطباء مهرة، وأمهات حانيات رؤوفات، وإنما يحتاجون إلى تشريعات أخلاقية صارمة، ومراقبين أخلاقيين، يأخذون على أيديهم.

الثانية: حين لعب لعبة الزحف التعميمي، من النظريات الأخلاقية التجريدية التي بدأ بها كلامه، والتي قال عنها: "إنها غير ذات جدوى"، إلى التشريعات الأخلاقية العملية التي أنهى بها كلامه، بعد أن احتج بمثال الأم التي تسعى وراء شفاء طفلها. واعتبر ذلك النظريات الأخلاقية التجريدية تشمل بمفهومها

التشريعات الأخلاقية العملية، التي تضبط سلوك الناس عن الانحراف، بتوجيه قانوني ومراقبة اجتماعية. فهو كمن قال: نحن لا نحتاج إلى الفلسفة النظرية لأصل اللغات، إذن فنحن لا نحتاج في اللغة العربية إلى قواعد النحو وتطبيقاتها على الكلام العربي.

هذا زحف تعميمي فاسد، ينتقل به الزاحف من موضوع إلى موضوع، ومن قضية إلى قضية أخرى مباينة لها تمامًا، والجسر بينها قد يكون كلمة في كل القضيتين، لكن معنى إحداهما مغاير تمامًا عن معنى الأخرى. إن مثل "رسل" لا يخفى عليه فساد مثل هذا التعميم، لكنه إن أراد التضليل تغابى، لعل تغابيه يكون حيلة ينخدع بها الأغبياء، فيأخذون فكرته التي طرحها بالقبول، ويعتقدونها مبدأً، وبذلك يكون قد وصل إلى هدفه من تضليلهم.

الوجه الثالث: زعم "رسل" أن العلم -الذي يشكل المصدر الوحيد لمعرفتنا- لا يمكن أن يفسح مجالًا للاعتقاد بوجود الله، أو بخلود النفس. ولقد عرفنا أنه حصر العلم بالعلم التجريبي، المستمد من الكون المادي، وما تعطيه التجربة بشكل مباشر. وهذا يعني أنه رفض الاستنباط والاستنتاج العقلي، مع أنه قد ناقض نفسه في هذا الموضوع بالذات، إذ قال: "إن تصورنا العلمي للكون لا تدعمه حواسنا التجريبية، بل هو عالم مستنبط كليًّا".

وإذ قال أيضًا: إنه قد توصل بعد دراسة استنفدت كل عمره، إلى أن الاستنباط الذي لا يمكن إيضاحه، يعتبر أيضًا مقبولًا وجائزًا، وعند رفض هذا النوع من الاستنباط سوف يصاب النظام الكامل للعلوم والحياة الإنسانية بالشلل. وإذ قال أيضًا: "كلما تقدم العلم ازداد فيه عنصر الاعتقاد، فبعض الأشياء في العلوم حقائق مشاهدة، ولكن الأشياء العليا تجريدات علمية، يتم استنباطها بناءً على

المشاهدة". وزعم أيضًا أن الكون بدأ من السديم، ودار عبثًا في أحقاب مديدة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وسوف يصطدم بعضه ببعض، ويعود بعد ذلك إلى مثل ما كان عليه أولًا.

هنا نقول له كاشِفين زيوفَه وأباطيله: ترى هل فسح العلم لديه مجالًا لهذه المزاعم الخيالية، التي لا يقدم العلم شيئًا منها، بعد أن لم يفسح المجال للاعتقاد بوجود الله أو بخلود النفس بحسب زعمه؟!!

إنه يقفل أسوار العلم، ويحصره في المعطيات التجريبية المباشرة، فيبعد عنه قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر، التي يستنبطها العقل استنباطًا، ويستنتجها استنتاجًا يقينيًّا، بعد مشاهدته ظواهر الطبيعة، وآيات الله في الكون. وبعد رجوعه إلى موازين الفكر الثابتة، التي تتفق عليها عقول الناس جميعًا، فيزعم أن العلم لا يمكن أن يفسح مجالًا للاعتقاد بوجود الله، أو بخلود النفس.

ثمّ يأتي في مقابل ذلك فيقدم مزاعم خيالية، دون استدلال علمي، ودون استنباط عقلي، ومن المعلوم أن العلوم التجريبية لا تثبت شيئًا من هذه المزاعم. ثمّ يأتي أيضًا في غير قضايا الإيمان بالله واليوم الآخر، فيقرر أن التجريدات العلمية العليا، التي يتم استنباطها بناءً على المشاهدة لا يجوز رفضها، وإلا فسوف يصاب النظام الكامل للعلوم والحياة الإنسانية بالشلل. إنه هنا في هذه القضايا استطاع أن يدرك أن العلم يفسح مجالًا للتجريدات العلمية العليا، ورأى أن الاعتقاد بها أمر ضروري.

ما بالُه زعم أن العلم لا يفسح مجالًا للاعتقاد بوجود الله، أو بخلود النفس، مع أن هاتين القضيتين هما من التجريدات العلمية العليا، التي لا يقتصر استنباطها على فئة العلماء، بل يتوصل إلى إدراكها معظم الناس، بل كل الناس لو وجهوا

أفكارهم للبحث عنها؟ هذا تناقض منطقي سقط فيه "رسل"، وما أسقطه فيه إلا هواه الموجه ضد قضية الإيمان بالله واليوم الآخر.

الوجه الرابع: ما صبّه "رسل" من شتائم ضد الدين إذ زعم أن الدين لا يقوم إلا على عوامل الترهيب والتلويح بالعقاب، كلام كذب على الدين. وذلك؛ لأن الدين يقوم على ثلاثة عناصر أساسية:

الأول: الهداية العقدية، والعملية للتي هي أقوم، وهي تشتمل على وسائل الإقناع والتعليم، والتربية المختلفة، وإيجاد الحافز الذاتي للفعل حبًّا بالخير، وابتغاء مرضاة الله.

الثاني: الترغيب بالثواب العظيم لمن آمن واستقام، وبهذا الترغيب يمارس المؤمن الاستقامة وفعل الخير والأعمال الصالحة، مدفوعًا بحافز الأمل الكبير فيما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات، من أجر عظيم، وثواب جزيل، في جنة الخلد، دار النعيم المقيم الأبدي.

الثالث: الترهيب من العقاب بالعدل، الذي رتبه الله للذين كفروا ويعملون السيئات، وقد أعد الله لهذا العقاب بالعدل، دارًا للجزاء الأكبر، بعد ظروف هذه الحياة الدنيا. وهذا الترهيب نفسُه مقرون بالترغيب في التوبة، والعفو، والغفران، وتكفير السيئات لمن تاب واستغفر، ما دامت ظروف الامتحان قائمة في هذه الحياة الدنيا، وباستطاعة أي إنسان أن يستدرك أمره، فيتوب من ذنبه، ويستغفر الله على خلاف ما زعم "رسل".

أما وجود الجانب الترهيبي فهو ضرورة، لا تستقيم المجتمعات البشرية، ولا تتحقق مصالحهم العاجلة والآجلة إلا به. فهل صحيح كما زعم "رسل" أن الدين لا يقوم إلا على عوامل الترهيب والتلويح بالعقاب؟ وهل صحيح أن الدين

يشكل ضربًا من ضروب الشر التي تملأ هذا العالم؟ الواقع أن أعظم قسطا من الشر في هذا العالم، هو ما يمارسه الملاحدة الماديون الذين لا دين لهم. ومهما اقترب الإنسان من الاستمساك بالعقائد والشرائع الدينية الصحيحة خفت الشرور عنه، وأقل الناس في الدنيا شرًّا، وأكثرهم خيرًا هم المؤمنون بالله واليوم الآخر، الملتزمون تعاليم الدين الحق، وهم يرجون ثواب الله ويخشون عقابه.

وقد عرفنا في تاريخ البشرية أن المحرومين من فضائل الأخلاق هم الذين ينفرون من الدين؛ لأنه يفرض عليهم الأخذ بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وكلما اشتد في الإنسان الانهيار الخلقي ابتعد عن الدين، حتى دركة الإلحاد والكفر بالله واليوم الآخر. وبرهان ذلك الملاحدة الشيوعيون، من مستوى الفرد الشيوعي، حتى أكبر دولة شيوعية ملحدة، وكذلك سائر الماديين الملحدين.

أما النضج العقلي الصحيح فمن ثمراته الإيمان بالحق، ولما كان الدين الصحيح هو مجمع عناصر الحق الكبرى، التي تكشف مبدأ الإنسان وواجبه ومصيره، كان نوابغ الدهر المتمتعون بالنضج العقلي الصحيح قمة الآخذين بالدين، والمستمسكين بتعاليمه والداعين إليه.

وأما زعم "رسل" أن المعايير الدينية تناهض بطبيعتها جميع المعايير الإنسانية الخيرة، التي يجب أن تسود عالمنا الحديث. فلست أدري عن أي معايير يتحدث، إنه لم يذكر لنا معيارًا واحدًا من معايير الدين، التي يرى أنها تناهض جميع المعايير الإنسانية الخيرة، التي يجب فيها - فيما يرى - أن تسود عالمنا الحديث؟! إن من أسس معايير الدين التي نعلمها، وجوب إحقاق الحق وإبطال الباطل، ووجوب إقامة العدل في الأرض، ووجوب الدعوة إلى فعل الخير وترك الشر. ونجد من أسس معايير الدين تكريم الإنسان، ونشر الإحسان في الأرض، ونجد

فضائل التعاون والتآخي والنظام وإتقان العمل، ونجد محاربة الفحشاء والمنكر والبغي، ومقاومة الرذائل؛ لأن من شأنها جلب الشرور للإنسانية.

ونجد من أسس معايير الدين العمل على إسعاد البشرية ورفاهيتها، وإزالة العداوات والبغضاء التي تولّدها أنانيات أفرادها وجماعاتها، إلى غير ذلك من معايير لا تجد البشرية أكمل منها ولا أفضل. فعن أي المعايير الدينية يتحدث، حتى نناقشه في ادّعائه بأنها تناهض جميع المعايير الإنسانية الخيرة؟! أهكذا تُطلَق الشتائم دون أي دليل، ودون ذكر أي مثال واحد للمدعي؟ ومع ذلك فإن أحكام "رسل" تأتي أحكامًا تقريرية لها صفة الشمول والعموم. أهذا هو المنهج العلمي الرصين للفيلسوف الكبير؟!

الوجه الخامس: زعم "رسل" أن حرية الاختيار في الإنسان تغنيه عن البحث عن نظريات أخلاقية لا طائل وراءها، مدّعيًا أن إرادته الحرة تدفعه إلى أن يقيم لنفسه مُثلًا عليا، يطمح بها إلى تحقيق حياة خيّرة تسير على هدي المعرفة والمحبة الإنسانية. هذه الدعوى الباطلة التي قدّمها دون أي دليل، منقوضة ببرهان التحليل النفسي، وبرهان الواقع. أما التحليل النفسي فيثبت أن الإرادة الحرة في الإنسان قوة موجهة للسلوك الإنساني حقًّا، إلا أنها تقع تحت تأثير باعثين داخل نفسه، فتقع تحت تأثير العقل الهادي إلى الخير أحيانًا، وتقع تحت تأثير الأهواء والشهوات والنزعات النفسية المختلفة أحيانًا أخرى، وعندئذ يضعف باعث العقل أو يُغشى عليه، فتفسد رؤيته.

فلو ترك الإنسان وشأنه دون ضوابط أو روادع أخلاقية تحدّ سلوكه في طرق الخير والفضيلة، وكل ما هو نافع ومفيد، لكانت إرادته الحرة عرضة لمؤثرات أهوائه وشهواته وأنانيته، ونزغاته الجانحة إلى سُبل الشرّ، بنسبة أعظم بكثير من تأثرها

بالمعرفة النافعة والمحبة الإنسانية. وما من إنسان إلا يعرف هذا من نفسه، ومن كل من عرف من الناس. وأما برهان الواقع فيقدمه واقع حال الظالمين والطغاة والبغاة والمجرمين وكل العصاة في الأرض، وهؤلاء هم النسبة الأكثر في مجموعات الذين لا يخشون الله واليوم الآخر، ولا تحد من انطلاق إرادتهم الحرة ضوابط أخلاقية مقرونة برجاء ثواب، أو خوف عقاب.

الوجه السادس: السلوك الأفضل الذي رآه "رسل" هو الإباحية الجنسية، وصور الزواج الجماعي. ولذلك اعتبر أن التشريعات الأخلاقية الجنسية إنما ترتكز على تصورات خرافية باطلة. إنه يدعو إلى هذه الإباحية الفوضوية، رغم ما فيها من شرور صحية واجتماعية، وانتكاس للمجتمع البشري، ومنافاة للشروط السليمة التي تضمن سعادة الجنس البشري، واستقراره وطمأنينته، وسعادة الأسر والأنسال.

على أننا نقول: إن من هان عليه أن يجحد الحقائق الكبرى، التي تتصل بمبدأ الإنسان وواجبه ومصيره، لا بد أن يجد الإباحية الجنسية أمرًا سهلًا، فقد أبعد عن تصوّراته وظيفته في الحياة، وأنه عبد مخلوق ممتحن. وأن عليه إذا أراد أن يجتاز الامتحان بنجاح أن يؤمن بربّه أولًا، ثمّ يعبده ثانيًا، فيطيعه ولا يعصيه، والطاعة تكون بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. ويلاحظ هنا أن المكر الشيطاني يعتمد على تزيين ما تستحليه النفوس، ودغدغة مواطن الشهوات، لإيقاظها وتهييجها، وتبرير انطلاقها الوقح الفاجر، وإغضاء النظر عن العواقب الوخيمة التي تنتج عن ذلك.

مذهب الإنسانية

عناصر الدرس

تعريف الإنسانية، وتأسيس مذهب الإنسانية، وأبرز شخصياته

من المذاهب الإلحادية الهدامة مذهب الإنسانية، ظاهره الجمال لكنه يحمل في طياته كل معاني الهدم والإفساد:

النزعة الإنسانية هي اتجاه فكري عام تشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعملية، ظهرت النزعة الإنسانية في عصر النهضة.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

ظهر المذهب الإنساني في إيطاليا في بداية عصر النهضة الأوروبية. وأبجديات النزعة، إنما تترجم الانتفاضة التي عبّرت عنها النهضة الأوربية؛ باعتبارها تغيرًا في الفكر نجم عنه تغير في جميع شئون الحياة. فالإنسان الأول كان مكبلًا بقيود الكنيسة، طوال فترة الإظلام الفكري المسمى بالعصور الوسطى، والتي استطاعت إلى أكثر من عشرة قرون، إذ كان خلالها مطالبًا بالطاعة العمياء لرجال الدين، وكان يُساق كما يساق القطيع، ويَكفي أنه من طبيعة فاسدة بسبب الخطيئة الأصلية!!.

أما المرأة: فهي لا ينبغي أن تُحب؛ لأنها سبب الخطيئة، لذا عزف رجال الدين عن الزواج بها. وإذا سمحوا لغيرهم بالارتباط بها بالزواج، فذلك فقط باعتبارها وسيلة للإنجاب واستمرار البشرية. أما الرجال: فهم وسيلة أيضًا لتحقيق أهداف الكنيسة، وكل من خرج على هذه الأهداف يواجه الموت حرقًا. ومن أسماء الرُّواد الأوائل للمذهب الإنساني: "بوجيو" و"بروني"، والمحامي البارز "مونت بلشيانو" وكلهم عاشوا خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

"أراسمس" ولد في "روتردام" سنة ١٤٦٦م ويعد من أكبر ممثلي المذهب الإنساني من ناحية معرفته بالأدب اليوناني واللاتيني. في فرنسا مثل المذهب "ستيفانوس" و"سكاليجر" و"دوليه". ويعد "رينيه ديكارت" المولود سنة ١٥٥٦ والذي مات سنة ١٦٥٠م الفيلسوف الفرنسي من أنصار المذهب الإنساني، ولكنه يؤمن بوجود الله تعالى. وكذلك "سبينوزا" الذي ولد سنة ١٦٣٢ ومات سنة ١٦٧٧م الفيلسوف الهولندي وهو يشبه "ديكارت" في الاعتقاد. وكتابات "جان جاك روسو" المولود سنة ١٧١٢ والذي مات سنة ١٧٧٨م تحمل الطابع الإنساني. و"جون لوك" المولود سنة ١٦٣٢ والذي ماتسنة ١٧٠٤م الفيلسوف الإنجليزي كان إنساني المذهب.

والفيلسوف الألماني "كانت" ولد سنة ١٧٢٤ ومات سنة ١٨٠٤م في مذهبه الانتقادي كان إنساني المذهب. والفيلسوف "شيلر" المتوفى سنة ١٩٣٧م الإنجليزي الألماني الأصل. والكاتب الفرنسي "فرانسيس بوتر"، ألف كتابًا بعنوان (المذهب الإنساني بوصفه ديانة جديدة). والأديب الإنجليزي "إليوت" ولد سنة ١٨٨٨ ومات سنة ١٩٦٥م يعتبر نفسه من أتباع المذهب الإنساني، وهو من أبرز ممثلي الشعر الحر.

الأفكار والمعتقدات، والجذور الفكرية والعقائدية

الأفكار والمعتقدات:

تأكيد الفردية الإنسانية في مجال الدين: الاستجابة لحكم الفرد الخاص؛ ضد سلطة الكنيسة، وتأييد فكرة ظهور الدولة القومية. في مجال الفلسفة: تأكيد ديكارت للوعي الفردي عند المفكر، وشدة الاعتماد على الفعل وتغليب وجهة النظر المادية الدنيوية. قصر الاهتمام الإنساني على المظاهر المادية للإنسان في الزمان والمكان.

المذهب الإنساني أوحى بالأفكار التحررية لقادة الفكر، في عصر النهضة الأوروبية، ووصل إلى ذروته إبان الثورة الفرنسية. الثِّقة بطبيعة الإنسان، وقابليته للكمال، وإمكان حدوث التقدم المستمر. تأكيد أن الشرور والنقائض التي اعترضت طريق الإنسان، لم يكن سببها الخطيئة كما تقرر النصرانية، وإنما كان سببها النظام الاجتماعي السيئ. الدفاع عن حرية الفرد: إمكان مجيء العصر السعيد والفردوس الأرضي، ويكون ذلك بالرخاء الاقتصادي، وتحقيق ذلك يكون بتبديد الخرافات والأوهام ونشر التربية العملية.

وقد نقد الفلاسفة والمفكرون الإنسانية؛ ومن أهم ما جاء في نقدهم: إن تقدم العلم الحديث لم يصحبه تقدم في قدرة الإنسان على حسن استعمال العلم، وإن البشر وجهوا اهتماماتهم جميعًا إلى المسائل الدنيوية، ونسوا كل ما يسمو على ذلك وتركزت مطامعهم في الأشياء الزائلة التي يسرها لهم العلم، وحدث من جراء ذلك صدع بين تقدم الإنسان في المعرفة وتقدمه الأخلاقي، إن الإنسانية تؤكد على زيادة خطر الإسراف في الاعتماد على الآلة، فهذا الإسراف قد يقضي على الأصالة والابتكار. كما أن الأسس الأخلاقية لا تصلح إلا إذا استندت إلى الاعتقاد بوجود نظام أسمى من النظام الدنيوي، والإيمان بالمبادئ الخالدة المطلقة، أما إذا اقتصرت الآداب على أن تكون خاضعة للمواءمة بين الإنسان وبيئته، كلما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال، فإنها بذلك تفقد قيمتها العامة.

وطريق الخلاص هو رفع الأخلاق، ولا يحدث هذا إلا بإيحاء من الإيمان الديني، أما الآداب العلمانية فلا تمنحنا الخلاص. إنّ المذهب الإنساني قدم للإنسانية وعودًا لم يحققها، كما أنه أفقد الناس الشعور بالحقائق الروحية، وجعل الناس عبيدًا للقوى المادية العمياء. إن وجود الشر ينقض أداء المذهب الإنساني لصلاح الإنسان

وقابليته للتقدم، وقد عزى الناقدون إخفاق عصبة الأمم في تسوية المشكلات في العالم، وانتشار الفاشية والنازية إلى ظهور المذهب الإنساني. إن عيوب المدنية الغربية ترجع في الغالب الأعم منها إلى المذهب الإنساني في تياره الإلحادي.

ومن أهم الأفكار التي تبنتها النزعة الإنسانية ما يلي:

١. يجبُ على الإنسان أن يبحثَ دائمًا عن معنى وجوده وحياته.

٢. الحياة في حد ذاتها شيء رائع ويستحق أن يعيشها الإنسان مهما احتوت على صراعات وتناقضات وآلام.

٣. على الإنسان أن يواجه الألم ويتسلح بالأمل في نفس الوقت.

٤. على الإنسان أن يهتم بالمادة قبل الروح؛ لأنها الشيء الوحيد الذي يستطيع إدراكه والسيطرة عليه.

٥. إنّ الطريقة الوحيدة كي يحقق الإنسان إنسانيته هي في التمتع بكل الملذات الجسدية، والحسية؛ لأنها الشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان لمسه وإدراكه.

٦. الإنسانية ترحب بالقومية والوطنية والمحلية، ولكنها تأبى العنصرية؛ لأنها امتهان صارخ لبقية العوامل المشكلة للنسيج الإنساني الشامل، والأدب العنصري ليس سوى جسمًا غريبًا في نسيج الأدب الإنساني سرعان ما يلفظه ويأباه.

الجذور الفكرية والعقائدية:

إن الحركة الفكرية التي نشأت في عصر النهضة الأوروبية هي الأساس في ظهور الإنسانية. وكان الوقود الذي أشعل هذه الحركة يحتوي على الفكر اليوناني والوثني، المعارض للفكر الديني، والآداب اليونانية واللاتينية، ومن هنا كان

شعار الإنسانية كلمة الفيلسوف اليوناني القديم: "إن الإنسان مِقياس للأشياء جميعها" فضلًا عن انغماس الإنسان بالمادة في بدايته، وحب اكتناز المال والثروات، والاستمتاع بالحياة الزائلة.

أماكن الانتشار، ونقد المذهب الإنساني

انتشرت الإنسانية في أوروبا، ثم عمت الغرب والشرق، ومعظم سلبيات المدنية الغربية الحاضرة، تُعتبر ثمرة من ثمارها.

سبق أن بينا أن النزعة الإنسانية هي مذهب فلسفي أدبي مادي لا ديني، يؤكد فردية الإنسان ضد الدين، ويُغَلّب وجهة النظر المادية الدنيوية، وهو من أُسِس فلسفة "كُونت" الوضعية، وفلسفة "بتنام" النفعية، وكتابات "برتراند راسل" الإلحادية، وهذا يعني فشل هذا المذهب على الصعيد العقدي. أما فشله على الصعيد العملي الواقعي المؤثر بصورة ملموسة في أسلوب سلوك الفرد، فدليله أنه منَّى الإنسان بأمان كاذبة، لم تتحقق على الإطلاق، ونَسِي أنّ طَريق الخَلاص لا يمكن أن يتم إلا من خلال خاتم الأنبياء على خاتم الأديان. وهذا أمر ينبغي أن يتنبه له المسلم، وهو يتعامل مع نتاج هذا المذهب، حيث إن الإسلام قد كرم الإنسان، وتعاليمه كلها إنسانية ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

لكن بعض الناس يختار الكفر فَيسلبه الله هذا التكريم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وبالجملة فإن الإنسانية -أو العالمية كما يدعونها أحيانًا- دعوى براقة، تُلَبّس على الناس بعبارات خادعة حيث يتظاهرون بالنزعة الإنسانية، وتوجيه القلوب والمشاعر للإنسانية جمعاء، وفي مقابل ذلك: ترك الدين جانبًا؛ لأنه في زعمهم أمر شَخصي، يَخضع للعلاقة الخاصة بين العبد والرب، وأن ذلك محله القلب

فحسب، وبالتالي لا ينبغي أن تجعله يشكل مشاعرك نحو الآخرين الذين يخالفونك في الدين.

ذلك لأن الدين كما زعموا: لا ينبغي أن يفرق بين البشر، وبين الإخوة في الإنسانية! بل يدعو لصنع الخير لكل البشرية غير ناظرين إلى جنس أو لون أو وطن أو دين! دعوى براقة كما ترى.. يُخيل إليك حين تستمع إليها أنها تدعوك للارتفاع فوق كل الحواجز، التي تفرق بين البشر على الأرض. تدعوك لترفرف في عالم النور، تدعوك لتكون كبير القلب، واسع الأفق، كريم المشاعر، تنظر بعين إنسانية، وتفكر بفكر عالمي، وتعطي من نفسك الرحبة لكل البشر على السواء، بدافع الحب الإنساني الكبير! أي رفعة، وأي سمو، وأي نبل، وأي عظمة في القلب والفكر والشعور؟! ولكن انتظر حتى يخفت الرّنين الذي تحدثه الكلمات والعبارات، وفتش عن الحَقيقَة بعيدًا عن العواطف والانفعالات، وانظر أين تجد هذه الشعارات مطبقة في واقع الأرض؟! هل لها رصيدٌ حقيقي من الواقع، أم أنها شعارات زائفة ترفع لأمر يراد؟!.

المراد واضح، والمقصد لائح، وهو: تجريد الشعوب الإسلامية من قوتها، وحصنها المانع وهو الدين، تجريدهم منه ليبقوا بلا دين ومن ثم بلا أخلاق، ثم بلا هوية! وفي القديم، حين كان الدين قويًّا لا يقوون على مواجهته، لم يكونوا يجرؤون على التلفظ بمثل هذه العبارة، بل كانوا ينافقون ليصلوا إلى أغراضهم من إغواء الآخرين. ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]. ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ولكنهم اليوم آمنون، فلا حاجة بهم إلى التظاهر بالإيمان بما أنزل على المؤمنين؛ بل إنهم لينشرون الإلحاد اليوم بجسارة في كل الأرض، ولكنه بضاعة للتصدير

فقط! يصدرونها للأميين لإغوائهم عن الدين، ولكن لا يستخدمونها بين أنفسهم. فالهدف الأخير من التخطيط كله، هو محو كل دين لدى الأميين، لكي يبقى اليهود وحدهم في الأرض أصحاب الدين! وهم على جبلتهم لا يُغيرونها. يتظاهرون أمام الناس بشيء، فإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون!. وفي النهاية هذه دعوة أن تترك دينك وتواجه الحياة بلا دين! فإذا فعلت ذلك اجتالتك الشياطين!. ولكن أناسًا قد يخدعون بدعوى الإنسانية؛ لما فيها من بريق، فيؤمنون بها أو يدعون إليها غافلين عن الحقيقة التي تنطوي عليها. وقد لا يصدقون أصلًا أنها دَعوة إلى التحلل من الدين يبثها الشياطين في الأرض لأمر يراد.

فلو سلمنا أنها دعوى مخلصة؛ للارتفاع بالإنسان عن كل عصبية تلون فكره، أو سلوكه، أو مَشاعره، ليلتقي بالإنسانية كلها لقاء الصديق المخلص الذي يحب الخير للجميع. فلنصدق ذلك في عالم المثل، في عالم الأحلام.. فما رصيد هذه الدعوى في عالم الواقع؟! ما رصيدها في العالم الذي تجتاحه القوميات من جانب، والعصبيات العرقية والدينية والسياسية والاجتماعية من كل جانب؟

فلنأخذ مثالًا واحدا من العالم المعاصر منا لمعاملة التي يلقاها المسلمون في كل مكان في الأرض؛ يقعون فيه في حوزة غير المسلمين، أو في دائرة نفوذهم من قريب أو من بعيد. فلننظر إلى الإنسانية التي يعاملون بها، والسماحة التي يُقابلون بها، وسعة الصدر وحب الخير الذي ينهالُ عليهم من كل مكان! ويطولُ الأمر بنا لو رُحنا نستعرض أحوال المسلمين الواقعين في قبضة غير المسلمين، أو الذين يتعرضون لعدوان غير المسلمين في كل مكان في الأرض.

في روسيا الشيوعية التي قتلت ما يقرب من أربعة ملايين من المسلمين. وفي يوغسلافيا التي قتلت ثلاثة أرباع مليون منهم، وفي الواقع المرير الذي نعيشه

اليوم من أحوال المسلمين، وما يواجههم من تدمير وإهلاك، وإلغاء لكل معايير الإنسانية من قبل أعدائهم.. فما بال الإنسانيين؟ ما بالهم لا يتحركون؟! ما بالهم لا يصرخون في وجه الظلم الكافر الذي لا قلب له ولا ضمير؟!. إنما توجه دعوى الإنسانية فقط ضد أصحاب الدين!. فمن كان متمسكًا بدينه فهو: المتعصب ضيق الأفق الذي يفرق بين البشر على أساس الدين، ولا يتسع قلبه للإنسانية، فيتعامل معها بلا حواجز في القلب أو في الفكر، أو في السلوك!. أو قل على وجه التحديد؛ إنّ الذين يحاربون اليوم بدعوى الإنسانية هم المسلمون!. يحاربون بها من طريقين، أو من أجل هدفين:

الهدف الأول: هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه، الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض، لكي تنبهم شخصيته وتتميع. والهدف الثاني: هو إزالة روح الجهاد من قلبه.. ليطمئن الأعداء ويستريحوا!. أرأيت! إنه هدف مقصود لذاته، ألا يشعر المسلم بالاستعلاء بالإيمان! يُراد له أن تَذوب شخصيته وتتميع، ولا تكون لها تلك السمة المتميزة التي أرادها الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. إنّ أعداء الإسلام لن يستريحوا حتى يزيلوا ذلك التميز الذي يحسه المؤمن: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وتلك قضية قديمة؛ عمرها الآن أكثر من أربعة عشر قرنًا. أي: منذ وجد المجتمع الإسلامي في المدينة. ولكن وسائل القتال تتغير، ومن بينها اليوم ما نسميه: الغزو الفكري ومن بين الغزو الفكري في هذه الدعوى.. دعوى الإنسانية! فباسم الإنسانية يُقال للمسلم الحق: يا أخي، لا تعتزل الناس! إنّ الإنسانية كلها أسرة

واحدة، فتعامل مع الأسرة كفرد منها، ولا تميز نفسك عنها! وشارك في النشاط الإنساني ومظاهر الحضارة الإنسانية!.

ولا نقول لهؤلاء: هل تعاملون أنتم المسلمين كأفراد من أسرتكم الإنسانية العالمية فتعطونهم حقهم بوصفهم أفرادًا في تلك الأسرة، فلا تطاردونهم، ولا تنبذونهم، ولا تتعصبون ضدهم، ولا تتجمعون على أذاهم؟! تلك هي القضية! إنّ تَمَسّك المسلم بإسلامه شيء يغيظ أعداء الإسلام بصورة جنونية. ولا يهدأ لهم بال حتى يذهبوا عنه ذلك التمسك ويميعوه.

ومن وسائل ذلك كما أسلفنا: دعوى الإنسانية والعالمية؛ فإذا تميع بالفعل، ولم تعد له سمته المميزة له، احتقروه كما احتقرت أوروبا الأتراك، بعد أن أزال أتاتورك إسلامهم وفرنجهم وغربهم!. بينما يقول أحد المبشرين في كتاب (الغارة في العالم الإسلامي): إن أوروبا كانت تفزع من الرجل المريض (وهو مريض) لأن وراءه ثلاثمائة مليون من البشر، مستعدون أن يقاتلوا بإشارة من يده، وهذا النص الأخير يدخل بنا إلى النقطة الثانية، أو الهدف الثاني من استخدام دعوى الإنسانية في محاربة المسلمين.

إنّ أشد ما يخشاه أعداء الإسلام من الإسلام هو: روح العقيدة الصحيحة، والعمل الظاهر والباطن المندرج تحتها، وإقامة الجهاد؛ لتكون كلمة الله هي العُليا، وضمان حماية العقيدة من يريد بها كيدًا أو مكرًا، ويهدد كيان المسلمين وحوزتهم!. ودعوى الإنسانية من أسلحة الحرب الموجهة ضد روح الجهاد عند المسلمين؛ فلا ينبغي أن نتكلم عن الجهاد في ظل التحضر والتمدن في هذا الوقت، ولا مجال للحوار حول إعداد القوة، ولا مكان في هذا العصر لقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وإن كنت لا بد فاعلًا ؛ فتكلم عن الجهاد الدفاعي فحسب! ولا تتكلم عنه إلا في أضيق الحدود! فهذا الذي يتناسب اليوم مع الإنسانية المتحضرة! لقد كانت للجهاد ظروف تاريخية وانقضت! أما اليوم فقد أصبحت الإنسانية أسرة واحدة! وهناك قانون دولي وهناك هيئات دولية تنظر في حقك وتحل قضاياك بالطرق الدبلوماسية!. فإذا فشلت تلك الهيئات في رد حقك المغتصب فعندئذ لك أن تقاتل دون حقك، ولكن لا تسمه جهادًا!.. فالجهاد قد مضى وقته! إنما سمه دفاعا عن حقوقك المشروعة!!

إنّ الواقع الإسلامي، وحضارته في مجال التاريخ شاهد أن الإنسانية الحقيقية والسماحة الحقيقية هي الإسلام!. فحيث تكون دعاوى الإنسانية والعالمية والتسامح في كل النظم مجرد شعارات لا رصيد لها من الواقع ؛ فإنها في الإسلام واقع حقيقي، لا دعاوى ولا شعارات مرفوعة بغير رصيد. والإسلام دين الله الحق، وكل أمر فيه ؛ بما في ذلك الجهاد لنشر الدعوة، والتميز والاستعلاء بالإيمان، واعتزال أدران الجاهلية وعدم المشاركة فيها، هو أمر رباني، لم يبتدعه المسلمون من عند أنفسهم، ولا قاموا به لصالح أنفسهم، إنما تنفيذًا لأمر الله، سواء نالهم منه في الأرض الغنم أو الغرم -بالمقاييس البشرية المحدودة- إنما يصنعونه ابتغاء مرضاة الله، وطمعا في الجزاء في الآخرة.

ولكن غير المسلمين لا يؤمنون بذلك بطبيعة الحال ؛ فلا نناقشهم بمنطق الإيمان الذي لا يلزمهم. بل نفترض جدلًا، أنّ كل النظم ذات حق متساو في الوجود وفي الانتشار في الأرض ؛ فلننظر في الواقع التاريخي نظرة علمية موضوعية مجردة. أي النظم مارس حقه في الوجود وفي الانتشار في الأرض بروح إنسانية حقيقية، وأيها مارس الوجود والانتشار بسلوك خال من القيم الإنسانية هابط إلى الحضيض؟!. فمن كان في شكٍّ ؛ فلينظر إلى الواقع المُعاصر، وما يتم فيه من ألوان من البربرية

الوحشية، لا تخطُر على البال، وألوان من نقض المواثيق لا تخطر على البال، وألوان من العبث بكرامة الشعوب والاستخفاف بحقوق الإنسان لا تخطر على البال!. وذلك رغم كل الشعارات المرفوعة، والقيم المسطرة في ديباجات الدساتير والمعاهدات والمواثيق!.

أما الإسلام فلا يداور ولا يناور، ولا يرفع الشعارات البراقة بلا رصيد. إنما هو رغم الصراحة الحاسمة التي يُعالج بها كل أمر، هو الذي يطبق الروح الإنسانية الحقيقية والتسامح الحقيقي.. ولا عجب في ذلك؛ فإنما هو المنهج الرباني الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه. أما نشر الدعوة فإياك أن تتحدث فيه عن الجهاد! فهناك اليوم وسائل إنسانية لنشر الدعوة؛ فاسلكها إن شئت، هناك الكتاب والمذياع والتلفاز والمحاضرة والدرس، إياك إياك أن تتحدث عن الجهاد فتكون مضغة في أفواه المتحضرين، وعدوًّا للإنسانية!.

التيار البراجماتي

عناصر الدرس

تعريف البراجماتية وإطلاقاتها

قد ابتُليت الأمة الإسلامية عبر تاريخها بتيارات هدامة تسعى إلى الفتك بجسمها، وتشتيت فكرها، وإهدار كرامتها، وتمزيق هويتها، والحيلولة بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغايتها، وقد تدرجت تلك التيارات في خطورتها وضلالتها، كما تدرجت وتباينت في خفائها وتلبيسها على أبناء هذه الأمة، ومن تلك التيارات التي بدأت تتشكل وتستشري بين أفراد هذه الأمة ومثقفيها (التيار البراجماتي) الذي يدعو إلى الذرائعية، وتمييع المفاهيم، وتقديس الواقعية، وتسويغ الوسائل للوصول إلى الغايات العملية.

هذا الفكر الدخيل وجد أتباعًا ومريدين، بل ودُعاة ومروجين له ولو لم يسمعوا به من قبل، أو يخطر لهم على بال. وسنلقي الضوء عن حقيقة هذا التيار ونشأته، وأسباب انتشاره، وأهم مبادئه وتطبيقاته.

تعريف البراجماتية، وإطلاقاتها:

البراجماتية مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأنَّ الحقيقة توجد في جملة التجربة الإنسانية: لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع، وأنّ المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأنّ صدق قضية ما هو في كونها مفيدة للناس، وأنّ الفكر في طبيعته غائي.

وهو اسم مشتق من اللفظ اليوناني براجما (Pragma)، وتعني (العمل). وعرفها قاموس ويبستر العالمي (Webster): بأنها تيار فلسفي أنشأه شارلز بيرس (Beirce) ووليام جيمس.(William James)) يدعو إلى أن حقيقة كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العلمية.

أما ديوي (Deey) فقد وصف البراجماتية بأنها: فلسفة معاكسة للفلسفة القديمة التي تبدأ بالتصورات، وبقدر صدق هذه التصورات تكون النتائج.

أما البراجماتية: فهي تدعُ الواقع يفرض على البشر معنى الحقيقة، وليس هناك حق أو حقيقة ابتدائية تفرض نفسها على الواقع.

وكما يؤكد جيمس الذي طوّر هذا الفكر ونظر له في كتابه (البراجماتية) (Pragmatism)، فإنّ البراجماتية لا تعتقد بوجود حقيقة مثل الأشياء مستقلة عنها.

فالحقيقة هي مجرد منهج للتفكير كما أنّ الخير هو منهج للعمل والسلوك؛ فحقيقة اليوم قد تصبح خطأ الغد، فالمنطق والثوابت التي ظلت حقائق لقرون ماضية ليست حقائق مطلقة، بل ربما أمكننا أن نقول: إنها خاطئة.

ويأخذ المذهب من ذلك أنّه لا ثبات لشيء من القيم والأخلاق في دنيا الناس، والحق هو سبيل ناجح في الوصول بالإنسان إلى غرضه وهو أمر نسبي يقاس بزمانه ومكانه، ومعيار الحقيقة هو نجاح الفكرة.

يقول جون ديوي: "إني أؤكد على سبيل الجزم أنّ لفظ براجماتي لا يعني إلا قاعدة إرجاع كل تفكير وكل اعتبارات تأملية إلى نتائجها للمعنى النهائي والاختبار على محل التجريب".

فالبراجماتية: معناها عملي أو صالح لغرض معين أو يؤدي إلى الغرض المطلوب، وقد ترجمها صاحب (المورد) من كلمة براجماتية الإنجليزية وهي: عملي، أو الاستشراف العملي، وقد أطلق عليها نفسه فلسفة الذرائع فقال: فلسفة أمريكية تتخذ من النتائج العملية مقياسًا لتحديد قيمة الفكرات الفلسفية وصدقها.

وعليه فقد أصبحت البراجماتية طابعًا مميزًا للسياسة الأمريكية وفلسفة الأعمال الأمريكية كذلك ؛ لأنّها تجعل الفائدة العملية معيارًا للتقدم بغض النظر عن المحتوى الفكري أو الأخلاقي أو العقائدي.

وبناء على أنَّ المضمون الفكريّ للمذهب قياس القضية بنتائجها العملية، فالفكرة تقاس بنتائجها التي تؤدي إليها تلك النتائج هي برهان تلك الفكرة، فإذا كانت الفكرة وسيلة، والعمل نتيجة أو غاية، فإنَّ الغاية تبرر النتيجة، ولذلك يطلق على المذهب: النفعية أو الذرائع والوسائل، وكان جون ديوي يفضل التسمية الأخيرة.

نشأة البراجماتية

نشأت الذرائعية (البرجماتية) كمذهب عملي في الولايات المتحدة الأمريكية، مع بداية القرن العشرين، وقد وُجدت في النظام الرأسمالي الحر الذي يقوم على المنافسة الفردية، خير تربة للنمو والازدهار.

ومن أبرز رموز المذهب وأغلبهم من الأمريكيين:

تشارلس بيرس ولد سنة ١٨٣٩، ومات سنة ١٩١٤م، ويُعد هو مبتكر كلمة البرجماتية في الفلسفة المعاصرة، عمل محاضرًا في جامعة هارفارد الأمريكية، وكان متأثرًا بداروين ووصل إلى مثل آرائه، وكان أثره عميقًا في الفلاسفة الأمريكيين الذين سنذكرهم فيما يلي.

وليم جيمس ولد سنة ١٨٤٢، ومات سنة ١٩١٠م وهو عالم نفسي وفيلسوف أمريكي من أصل سويدي بنى مذهب الذرائعية البرجماتية على أصول أفكار بيرس، ويؤكد أنّ العمل والمنفعة هما مقياس صحة الفكرة ودليل صدقها.

كان كتابه الأول: (مبادئ علم النفس) سنة ١٨٩٠م الذي أكسبه شهرة واسعة، ثم توالت كتبه: (موجز علم النفس) سنة ١٨٩٢م (وإرادة الاعتقاد) سنة ١٨٩٧م، و(أنواع التجربة الدينية) سنة ١٩٠٢م و(البراجماتية) سنة ١٩٠٧م، و(كون متكثر) سنة ١٩٠٩م، يعارض فيه وحدة الوجود.

ويؤكد جيمس في كتبه الدينية أنَّ الاعتقاد الديني صحيح؛ لأنه ينظم حياة الناس ويبعث فيهم الطاقة.

جون ديوي ولد سنة ١٨٥٦، ومات ١٩٥٢م، فيلسوف أمريكي، تأثر بالفلسفة الذرائعية، وكان له تأثير واسع في المجتمع الأمريكي وغيره من المجتمعات الغربية؛ إذ كان يعتقد أنّ الفلسفة، مهمة إنسانية قلبًا وقالبًا، وعلينا أن نحكم عليها في ضوء تأثرها الاجتماعي أو الثقافي.

كتب في فلسفة ما بعد الطبيعة الميتافيزيقا، وفلسفة العلوم والمنطق، وعلم النفس وعلم الجمال والدين.

أهم مؤلفاته: (دراسات في النظرية المنطقية) سنة ١٩٠٣م، و(كيف تفكر) سنة ١٩١٠، و(العقل الخالق) سنة ١٩١٧م و(الطبيعة الإنسانية والسلوك) سنة ١٩٢٠م و(طلب اليقين) سنة ١٩٢٩م.

شيلر ولد سنة ١٨٦٤، ومات ١٩٣٧م، وهو فيلسوف بريطاني، كان صديقًا لوليم جيمس، وتعاطف معه في الفلسفة الذرائعية: وقد آثر أن يطلق على آرائه وموقفه: المذهب الإنساني أو المذهب الإرادي.

وللوقوف على حقيقة البراجماتية نذكر تفصيل قصتها، ومراحل تطورها ترجمة عن أربابها بشيء من الإيجاز.

بدأ ظهور هذا المذهب في التفكير على يد تشارلس بيرس في عام ١٨٧٨م عندما كتب مقالًا في (بوبيولار ساينس مونثلي (موضوعه: كيف نوضح تفكيرنا، قال فيه: إن مبدأ الذرائعية يكمن في النظر إلى النتائجالعملية التي نأمل أن نحصل عليها من وراء أفكارنا، ويقصد أنّ الفكرة لن تتحقق ذاتها إلا عندما تؤدي إلى نتيجةٍ فعالة، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة أو الفكرة التي تخرج منتصرةً من امتحان التجربة والزمن.

ويُعتبر بيرس أول من صاغ هذا الاصطلاح، ثم تناوله وليام جيمس وفصله في نظام فلسفي، ونشره حتى أصبحت هذه الفلسفة تعرف بوليام جيمس ويعرف هو بها. أتى بيرس ووضع أساس فلسفة البراجماتية، وهو أن معنى كل اصطلاح أو فكرة ليس لها صورة حسية، إنّما هو في أثر هذه الفكرة أو الاصطلاح في المحسوسات أي: في الاختبار والمشاهدة.

كان الفلاسفة عندما يبحثون في اصطلاح معين كالثقل أو القوة مثلًا، يحاولون بطرق المنطق أن يتوصلوا إلى القوة في ذاتها، إلى جوهر القوة أي: إلى ماهيتها في نفسها، على أيِّ هيئة توجد بغض النظر عن الأشياء الحسية التي تلبسها هذه القوة، ثم يتطوعون في البحث في هذه القضايا الميتافيزيقية في غير طائل، وهذه الأبحاث لا تغني شيئًا ولا تؤدي إلى نتيجة يستطيع الإنسان أن يستريح إليها.

ثم نعيش في دنيا مادية ونفسية وكل شيء يؤدي إلى تغيرات في هذه الدنيا، وينتج فيها آثارًا واضحة نلمسها ونحس بها ونشاهدها في هذه الدنيا، فإن لهذا الشيء وجود حقيقي، والاصطلاح الذي نطلقه على هذا الشيء صحيح وحق، فالقوة شيء له وجود حقيقي، وهذا الاصطلاح أو اللفظة (قوة) لها معنى ومدلول ولمدلولها وجود حقيقي، ومعناها إنما هو في هذه الآثار التي تخلفها فيما نشاهد في

الموجودات حولنا، وبمعنى آخر: لا ندلل على الموجودات بالمنطق أو بالقضايا العقلية من مقدمات ونتائج ضرورية تستتبع تلك المقدمات، وإنما نتوصل إلى إثبات وجودها بالآثار الحسية التي تنتجها هذه الموجودات في الدنيا التي نعيش فيها.

وعلى ذلك يزعم بيرس أنّ كل اصطلاح حتى إذا كان له مدلول والمدلول له وجود حقيقي إذا كان ينتج بعض النتائج في هذه الدنيا التي نشاهدها، وإلا فلا معنى للاصطلاح ولا وجود للمدلول أو الشيء؛ فكل شيء يؤدي عملًا معينًا في هذه الدنيا له وجود حقيقي.

والواقع أنّ كثيرًا من الأفكار التي لها حظ من الصور المحسوسة إن هي إلا دلائل للعلم، أو اتجاهات إلى النشاط، وقد ننسى صورها أو أشكالها، ولا يبقى منها شيء إلا قدرتها على حفز النشاط، أو قدرتها على التوجيه العملي في الحياة.

ففي محطة السكة الحديدية مثلًا رنين الأجراس لا يعني عددًا معينًا من أمواج الهواء، أو قدرًا معلومًا من ذبذبات طبلة الأذن عند العالم الطبيعي الرياضي، وإنّما يكون معناها عنده: القطار وموعد سفره، فالمعنى الذي يؤدي إلى العمل أو إلى تغيير في البيئة التي تحيط بالإنسان، هذا المعنى هو الحق والصواب والاصطلاح الذي نطلقه على هذا المعنى حق إذا ما حفزنا إلى الاستجابات المعينة التي يتطلبها الاصطلاح.

هذه هي الخطوة الأولى في البراجماتية، كما وضع أساسها بيرس وهي أن البراجماتية نظام فلسفي لتفسير معنى الفكرة أو العقيدة، فالفكرة إنما هي مشروع للعمل وليست حقيقة في ذاتها كما تزعم الفلسفة العقلية، ثم تلت هذه الخطوة خطوة أخرى اتخذها جيمس فيلسوف البراجماتية وحامل لوائها في العصر الحديث إلى مطلع القرن العشرين.

أتى جيمس وزاد على أن كل عقيدة تؤدي إلى نتيجة مرضية أو حسنة إنما هي عقيدة حقيقية، فليست الفكرة مشروعًا للعمل فقط، وإنما العمل والنتائج هي الدليل على صحة الفكرة، وبذا أخرجنا من معنى الفكرة أو مدلولها إلى العالم الحقيقي، فأصبح العمل أو النتائج التي ستترتب على الفكرة برهانًا على صحة الفكرة بعد أن كان معنى لها.

فقيمة الفكرة ليست في الصور والأشكال التي تثيرها في الذهن، وليست في انطباقها على حقائق الموجودات وإنما في الأعمال التي تؤدي إليها هذه الفكرة، وفي التغيرات التي تنتجها في الدنيا المحيطة بنا، ولا يهم في هذه الحالة حقائق الأشياء في ذاتها، لأننا نستطيع أن نفرض هذه الحقائق كيفما اتفق، فما جميع هذه الإحساسات إلا علامات ومعالم تقود العقل إلى التصرف والسلوك، فالحق مثلًا عند جيمس هو كل ما هو ناجح في الوصول بالإنسان إلى غرضه.

ولكي نوضح هذا النزاع بين النظريتين العقلية والبراجماتية نضرب مثلًا واضحًا يجلو هذه النقطة ويبين الحدود بينهما بشكل ظاهر، وليكن هذا المثل فكرتنا عن الله. ومعظم الناس يؤمنون بالله وهذه الفكرة إما أن تكون خطأ أو صوابًا في حكم المنطق، فالنظرية العقلية تقول: إنّ الله موجود حقًّا إذا تبين منطقيًّا وجوده.

أما البراجماتية فتعالج هذه المسألة من ناحية أخرى، ففي رأيها أن صواب هذه الفكرة لا يتوقف على الضروريات المنطقية، وإنما يتوقف على صلاحية هذه الفكرة في حياتنا الراهنة، وفي تصرفاتنا اليومية، وفي اختباراتنا، فإذا كانت هذه الفكرة تؤدي إلى نتائج مرضية في الحياة فهي صحيحة وصائبة، وبذلك يكون الله موجودًا، بغير هذه الطريقة لا نستطيع أن نحكم على هذه الفكرة أولًا، ثم لا نستطيع أن نثق من حكمنا ثانيًا.

وبعبارة أخرى تتناول البراجماتية الفكرة من ناحية وظيفتها لا من ناحية موضوعها، كما تفعل النظرية العقلية، فالموضوع موجود إذا كان للفكرة وظيفة

تؤديها كما نتعامل معه ونتصل به، والفكرة صائبة وحق إذا كانت تنفع أو تصلح لما وضعت له، ومتى كان الأمر كما ذكرنا يجوز لنا أن نؤمن بوجود مدلولها.

قلنا: إن بيرس أخذ بأن معنى الاصطلاح إنما هو فيما يؤدي إليه من الأعمال، ثم زاد وليام جيمس على: هذا إنما يؤدي إليه الاصطلاح من الأعمال إنما هو البرهان الحق على صدق هذا الاصطلاح وتوجه بالبراجماتيةإلى هذه الناحية، وقد طبق جيمس عام١٨٩٨م هذه النظرية على الدين والفلسفة، وذلك قبل أن يحولها إلى نظرية متكاملة عن الحقيقة عرضها في كتاب صدر له تلك السنة بعنوان: (البراجماتية). ثم تبعهما جون ديوي بنظريته في البراجماتية التي سماها الآلية، وبذا خطا بهذه الفلسفة الخطوة الحاسمة التي قلبت النظم الفلسفية رأسًا على عقب وحولت مجراها إلى ناحية تختلف كل الاختلاف عن النظم الفلسفية التقليدية.

لقد ظهرت نظرية البراجماتية فزعمت أن الدليل على حقيقة أي شيء إنما هو أثر هذا الشيء وعمله ووظيفته، ولكنها تركت العقل كما هو أداة للمعرفة فإنما وجد لكي يعرف، ولكن ديوي تخطَّى هذه الهوة بقفزة واحدة فزعم أن العقل في الواقع ليس أداة للمعرفة، وإنما هو أداة لتطور الحياة وتنميتها، فليس من وظيفة العقل أن يعرف وليس من عمل الحقائق أن تظهر للعقل بشكل يستطيع معه أن يعرفها، وإنما عمل العقل هو خدمة الحياة وتسيير السبل لها لكي تنمو وتطّرد.

كان العقل في الفلسفة التقليدية يشبه رجلًا مبصرًا يجلس في أحد المقاهي بجانب رجل أعمى، والمبصر هو العقلوالأعمى هو الإنسان الحي الذي يعيش في هذه الحياة ويتعامل معها، فكانت الفلسفة التقليدية أي النظرية العقلية: إنّ عمل المبصر هو أن ينقل حقائق الكون إلى الأعمى لمجرد العلم بهذه الحقائق فقط، فكان يقول له مثلًا: هذا ترام شبرًا رجع إلى العتبة الخضراء، وهذا بائع ترمس، وذاك حانوت بدال، وهذا كلب يعدو من الشمال إلى الجنوب، وهذه ورقة في

مهب الريح، وهذه سماء وتلك أرض، وذلك المصباح وهذا قلم، وبعبارة أخرى لا عمل لهذا الرجل المبصر إلا أن ينقل الحقائق الموضعية، الحقائق الخارجية إلى ذهن الأعمى، وليس له وظيفة أخرى أو عمل آخر على الإطلاق، كل ما ينقله إلى الأعمى صحيح، ولكنه لا عمل له إلا المعرفة، المعرفة التي لا غاية لها إلا تقرير الحقائق كما هي من غير تحريف أو تبديل.

وأما البراجماتية فتزعم أن وظيفة هذا المبصر ليست في نقل الحقائق على أصلها، لأنه لو فعل هذا لما كان له ضرورة إلى جانب الأعمى، فليس يهم الأعمى أن هذا كلب أو ذاك رجل، إلا متى أراد أن يتعامل معها، ووظيفة المبصر في الواقع هي في أن يصل بين الحوادث وبين الأعمى؛ بحيث يستطيع هذا الأخير أن يتصرف تصرفًا يبعده عن الأخطار فيحفظ له حياته أولًا، ثم يصل بينه وبين العناصر الضرورية للحياة من كل مأكل ومشرب، وبعبارة أخرى لا تعود على الأعمى فائدة من أن ترام شبرًا يذهب إلى العتبة أو يرجع منها، وكل ما يهمه من الأمر أن لا يقع في طريقه حين يروح وحين يغدو، وعلى المبصر أن يُباعد بين الأعمى وبين الترام، ويقرب بينه وبين العناصر الضرورية للحياة، وكل ما ذكره هذا المبصر للأعمى لا يقدم ولا يؤخر في حياة هذا الأخير ما دام لا يوجد أمامه مجال للتعامل مع هذه الأشياء.

ومثل العقل في هذه الحالة كمثل أي عضو آخر في جسم الإنسان، كالعين أو الذراع، فالعين لم تخلق في الإنسان لتنقل إليه ألوان قوس قزح، وإنما خلقت فيه لتدله على مواضع الخطر تحت قدميه، فتجنبه المهالك أولًا، ثم خلقت له حتى يميز بها بين التمر والجمر، فلا يعود يبلع الجمر، فالعين أداة للحياة وكذلك العقل سواء بسواء.

ومن هنا سميت هذه النظرية بالآلية أي: أن العقل آلة يستخدمها الإنسان في المحافظة على الحياة أولًا وفي تنميتها واضطرادها ثانيًا.

وقد أسس ديوي بدوره عام ١٩٠٣م مدرسة براجماتية عرفت باسم شيكاغو.

ونخلص مما تقدم أن البراجماتية خطت في مراحلها الخطوات التالية :

١. أتى بيرس فزعم أن الفكرة التي تقود إلى العمل تكون فكرة صالحة وحقيقية.
٢. وتبعه وليام جيمس فزعم أن هذا العمل الذي تؤدي إليه الفكرة إنما هو البرهان القاطع على صحتها.
٣. ثم خرج ديوي بنظريته من أن الأصل في الفكر أو العقل ليس المعرفة ، فليس العقل أداة للمعرفة وإنما أداة للحياة.

وقد عرفت موسوعة السياسة هذا المصطلح بأنه مذهب فلسفي سياسي يعتبر نجاح العمل هو المعيار الوحيد للحقيقة ، فالسياسي البراجماتي يدعي دائمًا أنه يتصرف ويعمل من خلال النظر إلى النتائج العملية المثمرة التي قد يؤدي إليها قراره.

وهو لا يتخذ قراره بوحي من فكرة مسبقة أو إيديولوجية سياسية محددة بل من خلال أخذه بعين الاعتبار للنتيجة العملية المنشودة.

أهم مبادئ البراجماتية وتطبيقاتها

من أهم أفكار ومبادئ المذهب البرجماتي ما يلي :

إن أفكار الإنسان وآراءه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولًا ، ثم السير نحو السمو والكمال ثانيًا.

إذا تضاربت آراء الإنسان وأفكاره وتعارضت كان أحقها وأصدقها أنفعها وأجداها ، والنفع هو الذي تنهض التجربة العملية دليلًا على فائدته.

إن العقل خُلق أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها، فليست مهمته تفسير عالم الغيب المجهول، بل يجب أن يتوجه للحياة العملية الواقعية.

الاعتقاد الديني لا يخضع للبيئات العقلية، والتناول التجريبي الوحيد له هو آثاره في حياة الإنسان والمجتمع إذ يؤدّي إلى الكمال، بما فيه من تنظيم وحيوية.

النشاط الإنساني له وجهتان: فهو عقل، وهو أداة، ونموه كعقل ينتج العلم، وحين يتحقق كإرادة يتجه نحو الدين، فالصلة بين العلم والدين ترد إلى الصلة بين العقل والإرادة.

وبمقتضى المعطيات العملية والواقعية لهذا المذهب نستطيع أن نحلل مضمون هذه النظرية في أمور ثلاث:

الأول: أن برنامج المذهب يربط الفكرة بنتائجها العملية أكثر مما يربطها بمعيارها القيمي، والتفقه العلمي لمضمونها، أي: أنه يعدل عن الأفكار المجردة والمعاني النظرية ويحصر هذه الأفكار والمعاني في آثارها؛ فالفكرة هي خطة للعمل والنشاط وليست حقيقة في ذاتها، فعندي مثلًا فكرة عن نفير السيارة التي تسير في الشارع لا معنى لأن أبحث في حقيقة هذه الفكرة: أصلها ومنشؤها هل هي حقيقة أم من خلق العقل؟ وهل هي من عمل الأذن والجهاز العصبي، أم من عمل النفير أو السيارة أو غيرهما؟

وإنما يجب أن يكون معناها الانحراف يمينًا أو يسارًا وإفساح الطريق للسيارة وراكبها، معناها أن أشرع في تغيير خطة سيري والتوجه إلى جهة غير الجهة التي كنت أسير فيها، ومن هذا تزعم البراجماتية أن الفكرة هي مشروع للعمل أو خطة للتأثير في البيئة وهي خطوة في سبيل العمل لما بعدها.

الثاني: أن صواب الفكرة لا يتوقف على الضرورات المنطقية لها أو على قيمتها الذاتية ومضمونها الواعي، وإنما يتوقف على صلاحية هذه الفكرة في حياته

الراهنة ومدى ما تحققه من نفع مادي في تصرفاتها اليومية في اختباراتها، فإذا كانت هذه الفكرة تؤدي إلى نتائج مرضية ومنافع عملية في الحياة فهي صحيحة وصائبة، وإلا فلا.

الثالث: أنه لما كانت الفكرة تقاس بنتائجها، وكانت النتائج محصورة في المنفعة ،فإن المنفعة بذلك تصبح وحدها المحَكَّمة، لا في قبول الأشياء أو رفضها فقط، بل أيضًا في تصور وجودها أو عدمها، وقد لا تبدو خطورة المذهب من خلال تأمل النقطة الأولى وإن كانت تولد نوعًا من السطحية وعدم العمق في الأمور.

إلا أن الخطورة تكمن عندما نتابع هذه الفلسفة في نتائجها البعيدة فنجد من خلال تأملنا للنقطة الثانية أنّها تؤدي في النهاية إلى جحد الألوهية وإن كان هذا ما صرح به فلاسفة البراجماتية.

البراجماتية (٢)

عناصر الدرس

موقف البراجماتية من الأخلاق والدين

أولًا: موقف البراجماتية من الأخلاق:

تنظر البراجماتية إلى الأخلاق نظرة مادية بحتة، فالأخلاق والقواعد التي تضبطها من صنع الناس وحدهم، وهي تجريبية متطورة من وقت لآخر على مر الزمن، ولا ثبات لها ولا يقين على الإطلاق، وهي تتغير كلما تغيرت متطلبات الجماعات ورغائبها، والقانون الحق: هو ما يعتقده الرأي العام؛ ولذلك فإن معيار الصواب والصدق بالنسبة للأخلاق وقواعدها هو الرأي العام، ولذلك فهي قابلة للتغيير كلما تغير الرأي العام.

يقول جيمس: "إن علم الأخلاق فيما يتعلق بالناحية المعيارية مثل العلوم الطبيعية في أنه لا يمكن استنباطه كله مرة من مبادئ ذهنية، بل لابد أن يخضع للزمن، وأن يكون مستعدًّا لأن يغير نتائجه من آن لآخر، والآراء الذائعة حق وأن القانون المعياري الحق هو ما يعتقده الرأي العام؛

وبناء عليه يمكن أن ينتشر الفساد وتعم الرذيلة، ويعد ذلك ضمن الأخلاق ما دام يعتقده الرأي العام.

ويقول جون ديوي: "كل الأحكام الأخلاقية تجريبية، ومن ثم خاضعة للمراجعة، فما يثبت اليوم يتغير غدًا، وما يتغير غدًا يثبت بعد غد، وهكذا لا يكون هناك أي ثبات لقيمة من القيم، ومعروف من بديهيات الإسلام فساد هذه النظريات.

فالفضائل ثابتة والأخلاق لا تتغير، فالصدق فضيلة في كل زمان، والكذب رذيلة في كل آن، ومعيار الأخلاق عندنا هو الشرع، وما جاء على لسان النبي ﷺ

والإسلام يكره التلون والتغير، ويحب الثبات على الفضيلة والمبدأ، وإن تغير الناس من حول الإنسان، وفي الحديث: "لا تكونوا إمعة، تقولوا: إن أحسن أحسنَّا، وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا، وإن أساءوا ألَّا تظلموا". رواه الترمذي.

ثانيًا: موقف البراجماتية من الدين:

يكفينا هنا لنعرف موقف البراجماتية من الدين أن نتذكر البيان، الذي صدر في أمريكا سنة ١٩٣٣، ووقعه جون ديوي وآخرون، ويتضح مضمونه من النقاط التالية الواردة في البيان:

١. الكون موجود بذاته وليس مخلوقًا.

٢. الإنسان جزء من الطبيعة وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها.

٣. ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا نتاج التطور التدريجي، الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبيئة والطبيعة والوراثة الاجتماعية.

٤. لقد ولى الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه بالدين وبالله.

٥. يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التي لها دلالات في نظر الإنسان، ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادي.

ولعلك بهذا تقف على أن البراجماتية بمبادئها تلك، التي تعمل على تطبيقها في جوانب التربية، والدين والأخلاق تعتبر من العوامل الأساسية في انهيار المجتمعات التي تطبق فيها.

آثار البراجماتية السياسية والاجتماعية

كما لا يخفى فإن البراجماتية هي امتداد للفلسفات والمذاهب الإلحادية كالمذهب التجريبي ثم الوضعي والمادية الماركسية ونحوها، وعليه فإنه لا يختلف من حيث نتائجه وآثاره عن المذاهب إلا من جهة النوع، والصورة العملية الظاهرة.

فالمقتضيات العملية لهذه المذاهب مشتركة غير أن البراجماتية تتميز عنها، كما سبق بكونها قائمة على قياس كل عمل أو شيء، أو حالة بما تحققه من فائدة أو ضرر، فالشيء جيد وصالح إذا كان نافعًا، وهو سيئ إذا كان ضارًّا.

والسؤال هنا هو: من يقرر الفائدة والضرر؟ إنه الشخص المعني معتمدًا على معاييره الخاصة، كأداة لتقويم الأعمال والأشياء، ومن ثم يفقد الشيء خصائصه الموضوعية، مثلًا الحق يصبح نسبيًّا، حسب الشخص المتعامل معه، وليس حالة تحددها عوامل موضوعية، ويصبح عرضة لثقافة ومزاج ومصالح ونوعية قيم الشخص ذاته!

يمكن رصد المعاني المختلفة السائدة للبراجماتية في المجالين الاجتماعي والسياسي، ففي الغرب بشكل عام، يضعون البراجماتي مقابل الأيديولوجية، وكنقيض له، فحينما تقول: هذا الإنسان أيديولوجي، فإنك تقصد أنه يتقيد بمنظومة أفكار وأهداف ثابتة تحدد مواقفه العامة سلفًا، كالوطنية والقومية والدين

مقابل هذا النمط يقال: هذا الرجل براجماتي، ويقصد بذلك أنه متحرر من كل أيديولوجيا، أو موقف مسبق، ويتصرف وفق اللحظة أو الظرف، مستهديًا بما ينفعه ويضره هو شخصيًّا؛ لذلك فالبراجماتية أساسًا، هي منطلق فردي، وتجمع هذه المنطلقات عدديًّا، أي: دون أن تصبح ذات مصدر جمعي واحد؛

لتعبر عن مصالح مشتركة بين أفراد توجد بينهم اختلافات، وتناقضات جوهرية وثانوية كثيرة.

وازدهار هذه الفلسفة في أمريكا يفسر بوضوح جوهرها، فأمريكا ليست دولة ذات هوية قومية، كفرنسا وإيطاليا مثلًا، بل هي ملاذ تجمعات مهاجرين، تركوا بلدانهم الأصلية من أجل الرزق، أو تم نفيهم إليها من السجون التي اكتظت بالمجرمين، أو من الهاربين من الاضطهاد الديني؛ لذلك كان طبيعيًّا أن تختلف، بل وتتناقض ثقافاتهم ودوافعهم.

وهنا برزت أهمية وجود فلسفة تلبي رغباتهم المختلفة، فازدهرت البراجماتية؛ لأنها تخاطب وتستجيب للمصلحة الفردية، وتمنحها غطاء المشروعية الذاتية.

ولئن كان المعنى السائد في أمريكا، هو الذي يطبع البراجماتية بطابع الذات المطلقة السيادة على المجموع، أو النَّحْنُ، فإن ثمة مفهوم آخر أقل ذاتية ظهر في أوروبا، ويعد امتدادًا للفكر البراجماتي، هو الذي طوره وبلوره في إطار فلسفي ميكيافيلي، والمتجسد في مقولة: الغاية تبرر الوسيلة.

إذ إننا مهما حاولنا أن ننسب هذا النمط من التفكير إلى فلسفات معينة، فإن جوهره يكمن في البراجماتية، إننا حينما نقول: بأن عقيدتنا كذا نوصف بأننا إيديولوجيون في الغرب، لكننا حينما نفصل الهدف العقيدي عن قدسيته وجودته، ونستخدم وسائل لا أخلاقية، أو تناقضية نقع في بئر البراجماتية.

وهذه الازدواجية هدف نبيل ووسيلة وضيعة، هي أبرز ما يميز الانتهازية السياسية، وشقيقتها التوأم: الانتهازية الاجتماعية؛ لأن الميكيافيلية تؤمن الزواج غير الشرعي بين نقيضين، استنادًا لمفهوم محدد، هو تحقيق المصالح الخاصة، سواء بفرد أو جماعة، لقد تلوث الهدف النبيل بالوسيلة الفاسدة، والميكيافيلي يعرف

تمامًا أن التلوث قد وقع في صلب هدفه، الذي كان نبيلًا ونظيفًا، ومع ذلك يستمر في اتباع وسائله القذرة! ما هي النتيجة؟

بالطبع سيضطر الميكيافيلي لإعادة النظر، تدريجيًّا بأهدافه وإعادة تفسيرها وكتابتها بطريقة تفصلها عن أصلها عمليًّا، وتجعل الأصل مجرد غطاء شكلي لفكر آخر مختلف تمامًا، وهكذا نجد هذا الإنسان وقد صار مركزًا للكون، وليس جزءًا أو ذرة منه ويخضع لقوانينه المطلقة، رغم أنه في قرارة نفسه يدرك أنه ما زال ذرة تافهة في كون عظيم، سيده رب أعظم يقرر كل شيء!

تلك الحقيقة تقرر طبيعة الانتهازي البراجماتي، فهو مهما تظاهر بالقوة واليقين يمتلك عمودًا فقريًّا يسند موقفه مصنوعًا من نفايات مزابل الورق؛ لذلك سرعان ما يتمزق، ويسقط عند مواجهة موقف صعب يهدد حياته، مصالحه الأنانية، فيتراجع وينقلب كقرد السيرك على ما كان يتباهى به، ويتبنى سيدًا جديدًا! أن الأصل الضائع في معادلة الانتهازي، الذي يستخدم البراجماتية؛ لتبرير وتسويق مصالحه الأنانية، هو أنه يدرك أنانيته ويعرف أنه ملوث عقليًّا وروحيًّا مهما بدت أسنانه بيض؛ لذلك يفتقر الانتهازي في كل أشكاله، إلى الاستعداد للتضحية بأي شيء مهم، حتى لو كان ذلك من أجل مصلحة أخرى أنانية!

وبتتبع التطورات السياسية وفقًا للرؤية الغربية، التي كانت فاعلة في ظهور أنظمة توفر أسباب الحياة المدنية، نجد أنفسنا مع العصر الحديث في أوربا، وهذا يعني أننا أمام أنظمة الحكم الحديثة، التي تدعى أنها توفر أفضل الأنظمة والسياسات التي تكفل أسباب الحياة المدنية المعاصرة، وسنكتفي بعرض أهمها، والتي كان لها نصيب في التطبيق العملي على ساحة الحياة السياسية في أنظمة الحكم الحديثة والمعاصرة.

والمتمثلة في أنظمة الحكم الدستورية وفقًا للنظام البرلماني، مع بيان أثرها على مظاهر الحياة المدنية، وحرية الإنسان في العالم الغربي.

تأتي النظريات السياسية لمفكري العقد الاجتماعي في مقدمة النظريات السياسية، التي لها أثرها على شكل أنظمة الحكم البرلماني المطبقة، وبموجب العقد يتم عند هوبز تنازل الأفراد لشخص واحد وهو الحاكم، ويكون ذلك عن قبول منهم ولمرة واحدة.

وعند لوك يكون التنازل من الفرد للأغلبية، أو من الأغلبية للمجتمع ككل، ويكون هذا التنازل في الحالين عن طريق حرية واختيار، وهدفه تطبيق القوانين وإحلال الأمن والسلام، ويترتب على هذا العقد التزامات متبادلة بين الحاكم والمحكومين، والحاكم غير المتقيد بالقانون يكون خطرًا على حياة الناس بسبب الخلل في شرط الحفاظ على هذه الحقوق، وعند حدوث ذلك يتحول النظام إلى الحكم المطلق والاستبداد.

يرفض جون لوك الحكم الملكي الوراثي، وكل نظام حكم يعطي الملك الحق المقدس في الترف، فلا شيء اسمه الحق الإلهي في الحكم، فالناس جميعًا متساوون وهذا قانون طبيعي، ويذهب لوك إلى أن الحكومة البرلمانية هي أفضل أنواع الحكم؛ لأن السلطة تكون فيها للشعب.

فهو المؤسس الحقيقي للديمقراطية النيابية، فالأفراد بمجرد دخولهم في المجتمع المدني يخضعون للقوانين الوضعية، وينشأ بناءً على هذا ما يسمى بالسلطة التشريعية، كما يقدمون المساعدة للسلطة التنفيذية وفقًا لما تقتضيه القوانين الوضعية، وبذلك تكون السلطات التشريعية والتنفيذية خادمة للإنسان الفرد في مجال القانون وتنفيذه.

وقد تأسست الحياة المدنية الأوربية وفقًا لهذا الاتجاه البرلماني في النظام السياسي، الذي رافقه دخول أوربا في النظام الرأسمالي اقتصاديًّا، والذي تطور مؤديًا إلى ظهور رؤوس الأموال الكبيرة متمثلة في الشركات الضخمة ومتعددة الجنسيات، والتي صارت تتحكم وتتدخل في المسائل السياسية بما تكسبه من نفوذ لدى صاحب القرار، وصارت تتشكل الحياة المدنية وفقًا لمصلحتها وبدرجة كبيرة.

وهكذا دخلت أوربا عصر الحداثة في إطار نظم برلمانية، يسفر فيها الصراع السياسي إلى فوز مرشح ما بنسبة ٥١٪ مثلًا من مجموع أصوات الناخبين تكون نتيجته أداة حكم دكتاتورية، ولكن في ثوب ديمقراطي مزيف، حيث إن ٤٩٪ من الناخبين تحكمهم أداة حكم لم ينتخبوها، بل فرضت عليهم وتلك هي الدكتاتورية.

ومن جهة أخرى سادت التوجهات النفعية بفعل النظام الرأسمالي، وكثيرًا ما يطبق فيها مبدأ: الغاية تبرر الوسيلة الذي دعا إليه ميكافيلي مما أدى إلى فصل الأخلاق عن السياسة فصلًا يكاد يكون كاملًا، فلحق هذا بما سبقه من فصل للدين عن الدولة.

وبذلك رفعت القدسية عن المجال السياسي وصار مجالًا دنيويًّا، بل ونفعيًّا، وساد الاتجاه العلماني الذي يتجه إلى اتباع مناهج العلم، والأخذ بأساليبه في حل مشاكل الإنسان، وكأن القداسة صارت للعقل وليس في كل مجالاته، وإنما فقط في العلم المادي التجريبي.

وكان من نتيجة التقدم العلمي الواسع الذي صارت عليه أوربا أن أيد ذلك سياسة، ألا أخلاق في التعامل مع الآخر، فاتحدت بذلك سياسة القوة نيتشه مع مبدأ "ألا أخلاق في السياسة" ميكافيلي؛ لتكون النتيجة التحرك سعيًا وراء المصلحة والمنفعة للدول ذات الشأن.

فالحياة المدنية الأوربية شهدت تحولات في كافة مجالات الحياة الإنسانية، وتشهد ذلك باستمرار، فقد حول المجتمع الأوربي الموارد إلى رؤوس أموال، ويطبق باستمرار مبدأ زيادة إنتاجية العمل تبعًا لمتطلبات الحركة الصناعية والتجارية الهائلة، وإنشاء سلطات سياسية مركزية وهويات قومية، ونشر حقوق المشاركة السياسية وأشكال العيش المدني والتعليم الخاص والعام، وعلمنة القيم والمعايير؛ ليتشكل من ذلك كله مفهوم الحداثة المعبرة عن الحياة المدنية الأوروبية المعاصرة.

أدى ذلك إلى تنوع الحياة المدنية الأوربية المعاصرة، وتشكل معالمها في تيارات واتجاهات أيديولوجية وفكرية وفلسفية، وظهور نزعات واتجاهات أيديولوجية وفكرية وفلسفية وأخرى قومية واستعمارية بما يلبي هذه التوجهات، ويحقق المصالح والمنافع، فإذا جاءت الحياة المدنية للحفاظ على تطبيق القانون والعدالة، فإن ذلك إنما يخص مجتمعها الداخلي، بل وفئة الأقوياء الأغنياء فيه.

إن أهم ما يجب توفيره من حياة مدنية للإنسان هو حقوقه التي كفلها له القانون، ومن أهمها الاستقرار والحرية المنظمة، ولكن هذا فقد منه جزء كبير أثناء التطبيق الواقعي للأفكار والنظريات، وخاصة مع الإنسان الآخر من غير الشعوب الغربية.

وإذا انتقلنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي لا تختلف في نظامها السياسي عن النظام الأوروبي في صورته العامة، إلا أن ما يميز النظام الفكري، ومن ورائه النظام الاقتصادي والاتجاه الثقافي فيها، أنها تذهب بعيدًا في تكريس مذهب المنفعة والحريات الخاصة، والاتجاه إلى المستقبل وعدم الالتفات إلى الماضي إلا باعتباره ذكريات.

إنه المذهب البراجماتي المتجه إلى العمل والتطبيق، وأن مقياس صحة كل فكرة نجاحها في المجال التطبيقي الواقعي، فالوصول إلى حلول للمشكلات النظرية لا يتم عن طريق تحليلها تحليلًا جدليًّا، أو عن طريق وضع فروض قبلية مستقلة عن التجربة؛ بل يكون بمتابعة آثارها العملية في مجال التطبيق، والمقصود بالآثار العملية ما يعود به تطبيق الفكرة من منفعة على صاحبها، فإذا لم تتحقق منفعة أو ربح على المعنيين بها فهي خاطئة.

فالفكرة في المذهب البراجماتي، الذي يأخذ به الاتجاه السائد في الولايات المتحدة الأمريكية تمثل مشروع عمل، والواقع العملي دليل نجاح أو فشل ذلك المشروع، فكما أن التجربة دليل إثبات أو فشل الفرض العلمي، فكذلك الحال في الأفكار عند البراجماتية، وترتب على هذا التوجه في المنهج أن لم يعد للعادات الراسخة، والأفكار المسبقة والأنظمة المغلقة والأشكال المطلقة مكان إلا بقدر نجاحها في المحك العملي، فتصير بذلك متجددة.

إنه الاتجاه نحو المستقبل الذي يحدد مصير ما نطرحه الآن من أفكار، ومذهب المنفعة يستدعي هذا التوجه إلى المستقبل، فما كان عليه الحال لا يهم؛ لأنه لن يعود، أما ما سيكون عليه في المستقبل هو الذي يجب أن نخطط له، والعمل مقياس نجاح أفكارنا.

يقول وليم جيمس: لنا الآن أن نقرر بثقة ويقين أن الرغبة في تحديد المستقبل، وفي تعيينه يكون عنصرًا مهمًّا من عناصر الميول الفلسفية، وأن كل فلسفة تتجاهل إشباع تلك الرغبة، ولا تعمل على ذلك لا يمكن أن تحوز قبولًا عامًّا.

ولكن هل أنه لا معنى للزمن الحاضر والماضي نهائيًّا؟ يذهب البراجماتية إلى أننا نعيش في اللحظة الراهنة، ونعد للمستقبل والحاضر لأجل المستقبل، ويجب

الإفادة من الحاضر بتهذيبه وتحسينه باستمرار لأجل المستقبل، وكل ذلك مع استبعاد الماضي.

فكل الطاقات موجهة للمستقبل، ولذلك تجد العمل مكثف وكل الجهود تبذل تحسبًا للمستقبل، وأن ما يترتب على هذا توجه أن في هذا خدمة للحاضر أيضًا، فما يصل إليه الإنسان من نتائج في عمله تعود عليه في زمانه، هذا إذا اعتبرنا زمانه حاضرًا.

ولكن ما يعود عليه بالفعل يكون في المستقبل وإن كان قريبًا، إنه اندفاع إلى الأمام دائمًا، وكأن الإنسان يغالب الزمن ويعيش أبدًا، أو يفعل للأجيال القادمة.

ولكن إذا الحاضر لأجل المستقبل والفكر ما هو إلا أداة من أجل العمل، وأن الماضي لا مكان له، فإن هذا معناه محو للذاكرة وإلغاء الرصيد الثقافي والفكري، الذي هو أساس التفكير والتخطيط، فالفكرة لا تكون وليدة اللحظة، وإنما نتيجة تراكم خبرات ومعارف وتجارب سابقة، ولكن عند البراجماتية الأمر مختلف، فلا يبدأ الإنسان في التفكير إلا حين يصطدم بصعوبات مادية يكون واجبًا عليه التغلب عليها، وبالتالي فالأفكار أدوات ووسائل، المذهب الذرائعي.

وعلى ذلك فإن الاعتقاد بالحرية يكون مصدر قوة وإقدام، فما عليه الفرد أو الأفراد من حرية حاضرة يكون حافزًا مهمًّا لهم على العمل والاتجاه نحو المستقبل، وبشكل كامل ودائم، فكأنه يريد الأفضل والأكمل دائمًا، وهذا معنى الحداثة بالمفهوم الغربي الذي يتجه في مجمله إلى قطع الصلة بالماضي، ومعاداة الموروث القديم والاتجاه فقط إلى تنظيم الحياة وفق الحاضر والمستقبل.

وهذا جوهر الفكر البرجماتي، وواقع ما هو مطبق في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا صميم ما تدعو إليه أفكار العولمة، وإن كان بأسلوب فيه كثير من المجازية والتحايلات.

إن من أهم ما يترتب على اتجاه كهذا أن يصير الإنسان آلة مفكرة فقط، فلا عواطف ولا قيم ولا أخلاقيات إلا التي تحث على العمل وباستمرار، ولذلك كانت الأمراض المترتبة على هذا التوجه، فانتشرت الأمراض النفسية لضغط العمل من جهة، ولعدم الثقة في اللحظة الراهنة وتحويلها إلى زمن مستقبلي دائمًا، وأنه الخوف الدائم على المصير؛ المصير الفردي والمصير العام.

ولهذا نجد الولايات المتحدة تعمل دائمًا على السيطرة على الصعيد العالمي بحجة تأمين الأمن القومي، وتسعى إلى كسب أكبر قدر من ثروات العالم بهدف تأمين مستقبلها.

شهدت أوروبا وأمريكا، وتشهد باستمرار الحروب مع نفسها متمثلة في الحربين العالميتين، ومع بقية دول العالم وبشكل مستمر، وتمتلك الأسلحة الفتاكة؛ لتوفير القوة اللازمة لتنفيذ مثل هذه السياسات والتوجهات، وكذلك تمتلك الأجهزة الأمنية القوية والممتد عملها إلى كل بقاع الأرض، كل ذلك لخدمة هذه التوجهات، فما مصير الإنسان المدني، وما مصير المدنية والحرية في مثل هذا النظام؟

تجيبنا البراجماتية باختصار: أن كل هذا من أجل المستقبل.

ظهرت تيارات فلسفية مضادة لهذا التوجه هدفها التخفيف من عبء العمل، والتنفيس على الإنسان من عنائه المستمر بفعل الحروب والتوترات المستمرة، وكان في مقدمة هذه الفلسفات الفلسفية الوجودية.

وتشترك الوجودية مع البراجماتية في رفض المجرد والكلي في غير المادي، وتنفرد في اتجاهها إلى التعامل النفسي العاطفي مع الواقع من حيث الفعل أو الانفعال، فردة الفعل وما يترتب عليه من حالات نفسية نتيجة التعامل مع الواقع، والتفاعل معه هو ما تركز عليه الوجودية متجهة إلى حل مشاكل الإنسان في الحياة.

وقد جاءت فلسفة الوجوديين على شكل أعمال روائية تعبر عن مأساة يومية، نتيجة الإحساس بالذنب، ولذلك كانت العدمية مصير الفكر الوجودي، خاصة وأنه لا يؤمن بأي إله أو قيم أو مثل عليا.

وفي سبيل الوصول إلى حل المشاكل الإنسانية الحياتية، مثل مشكلة القلق واليأس اتجهت إلى تكريس الحرية الفردية الشخصية، فهي دعوة إلى الانحلال الخلقي والإباحية، وأن يكون كل فعل للفعل ذاته، فصار العمل للعمل والفن للفن والشهوة للشهوة، فلا أخلاق ولا قيم، ففتح باب تحقيق الشهوات، والملذات على مصراعيه مما كان مدعاة لنشر الانحلال وتفكك المجتمع.

هذه جملة مكونات العقل الأوروبي، والتي لها فعلها الواقعي في الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية بشكل واضح، وإذا كان هذا العقل قد تقدم بشكل كبير في مجال العلم والتقنية إلا أن ذلك جاء في كثير من الأحيان على حساب قيم، ومثل ومشاعر الإنسان التي تميزه عن بقية مخلوقات الله.

ومن الناحية السياسية، فإذا كانت البراجماتية الأمريكية تريد توظيف الإسلام في المنطقة لمصالحها السياسية؛ فإن الخطوة الأولى لتحقيق هذه المصالح هو تذويب المبدئية الإسلامية، ومن ثم فإن الليبرالية -بمناهضتها لوجود أية عقائد اجتماعية، أو قواعد تشريعية وقيمية مستمدة من هذه العقائد، ومطالبتها أن تكون كل هذه الأمور عرضة للنقاش والحوار والصواب والخطأ- تكون وسيلة رائعة لتذويب هذه المبدئية، وهو الأمر الذي يعني تحقيق تلك المصالح الأمريكية.

ومن الناحية الاجتماعية، فإن الشركات متعددة الجنسيات تضغط مستهدفة الحد من الإنفاق على برامج للرفاهة الاجتماعية، والهجوم على حقوق العمال، ويخشى الشعب الأمريكي أن يكون العقد الاجتماعي للجمهوريين في الألفية الثالثة هو ليبرالية جديدة محضة، فالليبراليون الجدد يبذلون مجهودًا كبيرًا للحدّ من برامج الحماية الاجتماعية للأطفال وللمسنين وللمتبطلين، أي: المعاناة إلى ما لا نهاية.

الطريق الثالث للدول النامية :

المأزق الذي تعيشه الدول النامية منذ نصف قرن هو عدم قدرتها على استلهام نموذج سياسي اقتصادي يلائم ظروفها وطبيعتها، مع ثبوت فشل تبنّيها لسياسات اشتراكية ماركسية وليبرالية ديمقراطية؛ لغياب العوامل والمكونات اللازمة لترسيخ أي من هاتين النظريتين.

لقد بدأت الدول النامية تخطو خطواتها الأولى نحو الانفتاح على الأسواق العالمية، وتحرير اقتصادها وخصخصة مشاريعها، خاصة عقب انهيار النظام الاشتراكي وفقدانها الحماس للأفكار والقيم الاشتراكية، وفي الوقت الذي تحاول فيه أن تلعب دورًا في الاقتصاد العالمي، وأن تشارك في فعالياته نجدها تحاول جاهدة الحفاظ على الاستقرار السياسي والاجتماعي، وتوفير الخدمات الاجتماعية في حدودها الدنيا، أي: الحفاظ على دولة الرفاهة مع عدم التخلف عن ركب الاقتصاد العالمي.

فمن الناحية النظرية: يبدو هذا الطريق مجديًا لهذه الدول، محققًا لآمالها وطموحاتها بدون الالتزام بالانحياز لأي فكر وأيدولوجية ما.

أما من الناحية البراجماتية النفعية: فإن هذه الفكرة قد يصعب تحقيقها دون مشاركة مؤسسات المجتمع المدني، وتفعيل أكبر لدور الأحزاب، وإحياء الطبقة الوسطى بحيث تعبّر الأحزاب عن احتياجاتها وفكرها، دون الضغط على موازنة الدولة أو جرّها للعب الدور الرئيسي المركزي، والحاكم في الاقتصاد الوطني مرة أخرى. وفي الوقت ذاته دون دفعها إلى مزيد من الاقتراض بحيث تصبح مثقلة بالديون، ومطالبة بسداد فوائدها المرتفعة عن طريق الاستقطاع مرة أخرى من نفقات دولة الرفاهة.

البراجماتية (٣)

عناصر الدرس

نقـــــــــد البراجماتيـــــــــة

قد تقدم بيان أن مصطلح البراجماتية ليس مرادفًا للعقلانية ؛ فالبراجماتية تقرر أن الحقيقة أو التجربة أو الواقع يتغير، أما الواقع والحقيقة في نظر العقلانية فهي قائمة منذ الأزل ؛ فبمقدار ما ينظر العقلانيون إلى الماضي يعتد البراجماتيون بالمستقبل وحده.

أما العلمانية أو اللادينية بتعريفها العلمي الدقيق، فقد كانت وما تزال منهجًا فكريًّا هدامًا تسللت من خلاله أفكار الغرب وقيمه التي تحملها، وكان من أخلص دعاتها بَعْض أبناء هذه الأمة وفلذات كبدها، إلا أن تيار الصحوة الإسلامية الذي اجتاح بفضل الله ورحمته بقاع الأرض تصدى لهذا الفكر الفاسد، وعرَّى دعاته، ورد كيد مروِّجيه.

فلم يعد للعلمانية في عدد من ديار المسلمين التي نضجت فيها الصحوة ونمت وأثمرت مشاعل خير وهدى، لم يعد لها بريق أخاذ كما كانت في الماضي ؛ فقد أصبحت الأصوات المنادية بأفكارها نشازًا، ودعاتها منبوذين، واستبانت للجماهير سبيلُ المجرمين وطريقُهم.

فلم يعد مقبولًا في أكثر بلاد المسلمين أن ينعق أحد بالقول: ما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ وما للإسلام وزي المرأة؟ وما للإسلام والأدب؟ وما للإسلام والاقتصاد؟ لكن هذه الأصوات تجد آذانًا صاغية، بل وأتباعًا ومريدين ومؤيدين حينما تنهج الفكر البراجماتي، فتقول: "إنه لا بأس بوجود القنوات الفضائية العربية الماجنة، طالما أنها تصرف المشاهدين المسلمين عن القنوات الكفرية المنحلة".

أو تنادي بأن التمكين في الأرض واستخلافها يسوِّغ بعض الربا، إذ ما أدى إلى انتعاش موارد الأمة وقوة اقتصادها، كما أنه ليس في بعض الكفر والإلحاد بأس إذا ما أنتج الأدب إبداعًا ثقافيًّا مميزًا، فهذا المذهب الذرائعي البراجماتي ربما كان مطية يمتطيه أصحاب الفكر العلماني للوصول إلى مآربهم وأهدافهم في تمييع شرائع الدين، ونقض أصوله وثوابته.

والحق أن البراجماتية - على هذا النحو - تعد أكثر خطرًا على سلوك المسلمين، وعامتهم من العلمانية في وقتنا المعاصر، كما أن دعاتها الذين استمرءوا هذا الفكر ودافعوا عنه، وروجوا له وحسنوه في أعين الناس، وارتضوه معتقدًا ومنهجًا لسلوكهم ليسوا مجرد عُصاة، بل مبتدعة ومحدثون يسري فيهم قول النبي ﷺ: ((ومن سن سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)).

وقوله ﷺ: ((من أحدث فيها أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين))، وهم أشد من مرتكبي المعاصي المقصرين، والمعترفين بذنوبهم وآثامهم، فكما قال سفيان الثوري: "البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ فإن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها".

فخطرهم قد امتد إلى كثير من نواحي الحياة، ولم يقتصر على السلوك الشخصي لأبناء الأمة، بل تجاوزه إلى التغلغل إلى معاملاتهم الاقتصادية، وتوجهاتهم الأدبية، ومناهجهم السياسية، ومنطلقاتهم الإعلامية.

فالتزام المسلم فيما يكتب ويقول يعد مبدأ هامًّا من المبادئ المقررة في الشريعة، وهو "الالتزام" الذي تدعو إليه أدبيات الدعوة، وسيرة السلف الصالح.

فحياة المسلم وأفكاره ومنطلقاته لا تسير عبثًا ولا تتشكل ارتجالًا، بل قوامها ومرجعها الثوابت الأساسية، والشرائع الربانية التي تعد الإطار العام الذي ينظم

للمسلم ومنطلقاته، وتوجهاته العلمية والأدبية والسياسية والاقتصادية، وسائر حياته العامة.

والناظر إلى المذاهب الأدبية المتعارضة والمتناقضة يجد أنها كانت نتاج أزمات، وردود أفعال زمنية مَرَضِيَّة مرتبطة بالحالات والأزمان التي عايشتها؛ لذا فقد ظهرت تلك الأفكار ونمت تلك الاتجاهات الأدبية المريضة، وما يقابلها من اتجاهات معاكسة، وانبثقت من المجتمعات التي تسودها الأنانية المطلقة، والحرية الفردية التي تقدس الوحدوية، وتسعى إلى نقل ذلك التقديس الفردي إلى ما يصدر عن ذلك الفرد من أقوال لا ترتبط بثوابت ولا بقيم.

وقد كان للاتصال بالغرب والتتلمذ على أيديهم الأثر الكبير في تبني تلك المذاهب الأدبية المنحرفة، فبدافع الواقعية أو البراجماتية في الاستفادة من العلوم الغربية، ومحاكاة الغرب والتنافس معه في طلب العلم والمعرفة أقبل الأدباء والمفكرون المسلمون على تبني تلك المناهج الأدبية المنحرفة، وسايروا توجهاتهم الفكرية والأدبية، ونقلوها على علاتها وأسقامها.

فظهر المتبنون للمناهج الأدبية التي منها تلك المناهج، التي تجعل كاتب النص، أو مستقبله يترفع عن المبادئ والقيم التي تحكم المجتمع، فيقرأ المستقبل للنص، وهو يشارك القائل الحرية في معناها الإنساني دون أن يكون للنص علاقة بصاحبه، أو بمظاهر الحياة أو قيمها التي تسود في ذلك الزمن الذي صدر فيه النص.

كما ظهر أولئك المسايرون للمذاهب الحداثية في دراسة النصوص، فاعتنوا بالشكل دون المضمون، وأصبحت دراسة النص لديهم تنْحو المنحى التحليلي المعتمد على الدلالات والرموز والطلاسم، والإشارات المتحررة من جميع

النزعات الدينية أو السياسية أو المذهبية، وتخلَّوْا عن مصطلحات النقد العربي إلى المصطلحات الغربية؛ ليضفوا على توجهاتِهم الشرعيةَ والعلميةَ، فتحوَّل المجاز في اللغة إلى "انحراف"، ودلالات اللغة إلى "سيميوتيكا".

والإشارات الموحية إلى "سوسيولوجيا"، وقواعد اللغة إلى زوايا وخطوط وتقاطعات وتداخلات هندسية، وحلت هذه المصطلحات محل مصطلحات النقد الأدبي الموروث؛ ليختلط بذاك المعنى مع التركيب مع الدلالة؛ ولتصبح إبداعًا وابتكارًا وتجديدًا يختلط فيه الصحيح مع السقيم والحق مع الباطل، والخير مع الشر دونما رابط أو محدد أو إطار ينظم ذلك الإبداع ويقوِّمه.

خلافًا للأدب الذي كانت بداياته وأصوله الإسلامية حسنة منذ زمن طويل، فإن ولادة الإعلام في كثير من بلاد المسلمين كانت على يد المستعمر الأجنبي، الذي أنشأ تلك الوسائل الإعلامية التي من أهدافها أن تديم وتبقي استعماره، وترسخ سيطرته وسطوته؛ ولذلك فقد كانت منطلقات الإعلام وأهدافه لا تمت بصلة لخدمة قضايا الأمة، ولا ترتبط بتراثها الأصيل.

فالإذاعة على سبيل المثال بدأت في بلادنا العربية كمحطات أهلية صغيرة متفرقة في مصر، هدفها خدمة الاستعمار، فلما تحولت إلى مؤسسات حكومية ظلت تقلد الغرب، وتعتمد على الترجمة والاقتباس والنقل الأعمى لما تبثه إذاعات الغرب ووسائله، وهكذا كان الحال في معظم البلاد العربية والإسلامية.

وما يسري على الإذاعة يسري كذلك على التلفاز والمسرح والسينما، التي تنافست في تشتيت هوية الأمة، وإهدار فكرها، وتمزيق وحدتها، وإفساد أخلاقها.

وعلى هذا فقد بُني أغلب إعلامنا لخدمة الغرب ومبادئه، وغلب عليه الانفصام بين الدين والدنيا، والبعد عن الأصالة، والإيغال في التقليد الأعمى، ولم تكن

الحركات الإصلاحية الرسمية ذات أثر فعال سوى فيما يحقق أهدافها ومآربها من توجهات إعلامية ترضيها، وتعمل على تقديسها وإضفاء الشرعية المطلقة لأحكامها وأوامرها.

ولما هيأ الله لهذه الأمة صحوة مباركة أيقظت أبناءها من السبات العميق، والغفلة الغارقة، أدرك المصلحون الحاجة إلى صياغة أخرى للإعلام الإسلامي، وخدمة قضايا الأمة وأهدافها السامية؛ حينها ظهرت المحاولات الجادة لأسلمة الإعلام، وجعله أداة داعية إلى الخير العام للإنسانية، ومعينًا على عمارة الأرض والاستخلاف فيها، ومحققًا للعبودية الخالصة لله ﷻ، كما قال -تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وظهر في الساحة الإسلامية أولئك المتبنون والمتحمسون لتقديم إعلام إسلامي رزين، يكون بديلًا لتلك المعاول الهدامة والوسائل المفسدة. ولكنها لم تكن سوى بدايات متواضعة واجتهادات بسيطة أمام ذلك الفساد الجارف، ونشأ بين هؤلاء وأولئك البراجماتيون الذين خلطوا السم بالدسم؛ ليقدموا إعلامًا هجينًا مشوَّهًا يختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر؛ فظهرت تلك الصحف والمجلات والقنوات الفضائية، التي جعلت الترويج والترفيه هدفًا أساسًا، وغاية كبرى للإعلام الإسلامي البديل فخلطت المفاهيم، ومُيِّعت القضايا باسم الإسلام ونصرته ونشر مبادئه السمحة.

فليس هناك غضاضة لدى القائمين عليها من أن تعرض تلك القنوات أفلامًا عربية ساقطة، ومفسدة للأخلاق بحجة أنها البديل الأفضل، والأهون ضررًا على المشاهد العربي المسلم من تلك الأفلام الأجنبية الغربية الخليعة.

كما أنه لا بأس في عصر الحضارة والتقدم أن تنبري بعض الماجنات، والمتغربات مظهرًا ومخبرًا لتقديم الفتاوى الإسلامية، ومناقشة القضايا الدينية والاجتماعية في حياة أبناء وبنات هذه الأمة.

فكان هذا التوجه البراجماتي الخطير نذير شؤم على تصحيح مسار الإعلام الإسلامي النبيل، فدعاته هم أولئك الذين يملكون السبل المادية، والإمكانات البشرية التي يحلو لها الرقص على ما يثير نزواتها وشهواتها.

يقول الدكتور محمد عزيز سالم: "إن البراجماتية تعبير صادق عن الفلسفة الأمريكية"، فهي تدعو إلى العملية، وتتخذ من العمل مقياسًا للحقيقة؛ لتوافق بذلك ما يدعو له النظام الرأسمالي الذي يربط بين الحقيقة من جهة، والذاتية والنفعية من جهة أخرى.

وأصبحت البراجماتية منذ ذلك الحين المبدأ الإداري والاقتصادي الحكيم، الذي يتعامل مع الواقع وما يحيط به من ظروف متغيرة بصورة عملية تحقق الأهداف القائمة على مبدأ المنافسة الحرة بكفاءة واقتدار، وأصبح المصطلح البراجماتي مفهومًا مرتبطًا بالإدارة والاقتصاد، وتسلل هذا المفهوم إلى مبادئ الاقتصاديين والإداريين المسلمين وسلوكيات التجار، وأصحاب الأموال والاستثمارات.

فتساهل الممارسون للأعمال التجارية في استخدام جميع الوسائل -بغض النظر عن شرعيتها-، للوصول إلى ما يعتقدونه هدفًا ساميًا، وغاية حسنة تسوغ الوسائل كلها، فظهر من ينادي بحِلِّ بعض أنواع الربا حتى تتمكن البنوك الإسلامية من مقارعة مثيلاتها الغربية الكافرة ومنافستها، واستحلال اليانصيب لجمع الأموال وإنفاقها في وجوه الخير.

كما ظهر من لا يرى غضاضة في استخدام الأساليب الإعلامية والإعلانية الشهوانية، تقليدًا للغرب؛ وذلك بحجة جذب المستهلكين إلى الصناعات المسلمة، وصرفها عن صناعات أعدائها؛ فأصبح من المضحك المبكي أن ترى من لا يجد بأسًا في ظهور الفتيات الفاتنات، يعرضن إعلانًا لأحد المنتجات العربية، ما دمن متحجبات الحجاب العصري الجديد.

كما ظهرت في بلادنا العربية تلك الاستثمارات السياحية المشبوهة، والاحتفالات المختلطة التي يسوِّغ دعمها صرف الشباب المسلم عن الوقوع فريسة السياحة الغربية الكافرة، والأمثلة كثيرة على تلك الاستثمارات التجارية المتنامية في بلاد المسلمين، التي تقوم على أسس براجماتية وذرائعية.

إن البراجماتية ليست فلسفة خاطئة فقط، بل هي ممارسة وضيعة، تسقط الإنسان في وحل سلوك الحيوانية وما قبلها، فالإنسان لم يصبح إنسانًا إلا بفضل التزامه منظومة قيم، وحينما يتخلى عنها يرتد، لكنه بارتداده للحيوانية، وما قبلها يفقد الخيط والعصفور، كما يقال، أي: أنه يخرج من مملكة الإنسان، لكنه لا يدخل مملكة الحيوان مجددًا، بل يدخل مملكة فساد الضمير، وهي مملكة يأكل فيها المخلوق ذاته كي يعيش، وهي أحط وأقذر ممالك المخلوقات؛ لذلك فالبراجماتية هي فلسفة وقوعية، وليست واقعية.

ولاختصار الإحاطة بهذه الفلسفة، فإن مدخل دراستها يقتضي تحليلها إلى مكوناتها الأساسية في النظم والقيم، فنحن أمام مقولتين:

الأولي: ازدراء الفكر أو النظر.

الثانية: إنكار الحقائق والقيم.

أي بعبارة أخرى أكثر وضوحًا، فإن العمل عند جيمس مقياس الحقيقة، فالفكرة صادقة عندما تكون مفيدة، ومعنى ذلك أن النفع والضرر هما اللذان يحددان الأخذ بفكرة ما أو رفضها.

وقد نبتت فلسفته منذ بداية اهتماماته بها من حاجاته الشخصية؛ إذ عندما أصيب في فترة من عمره بمرض خطير، استطاع بجهوده أن يرد نفسه إلى الصحة، فاعتقد أن خلاص الإنسان رهن بإرادته، وكان الموحي إليه بالفكرة المفكر الفرنسي

رنوفيير، الذي عرف الإرادة الحرة بأنها "تأييد فكرة ؛ لأن المرء يختار تأييدها بإرادته حين يستطيع أن تكون له أفكار أخرى".

وكانت تجربة شفائه من المرض قد هدته إلى أهمية العمل، ورجحت عنده الاجتهاد في العمل بدلًا من الاستغراق في التأمل ؛ "لأن العمل هو الإرادة البشرية استحالت حياة".

وتلون هذه الفلسفة نظرة أتباعها إلى العالم، فإن العالم الذي نعيش فيه ليس نظرية من النظريات، بل هو شيء كائن، وهو في الحق مجموعة من أشياء كثيرة، وليس من شيء يقال له الحق دون سواه!. إن الذي ندعوه بالحق، إنما هو فرض عملي - أي أداة مؤقتة نستطيع بها أن نحيل قطعه من الخامات الأولية إلى قطعة من النظام.

ويلزم من هذا التعريف للعالم، أنه خاضع للتحولات والتغيرات الدائمة ولا يستقر على حال، فما كان حقًّا بالأمس -أي ما كان أداة صالحة أمس- قد لا يكون اليوم حقًّا ؛ ذلك بأن الحقائق القديمة، كالأسلحة القديمة تتعرض للصدأ، وتغدو عديمة النفع".

وهذه بعض الأوجه لنقد البرجماتية من وجهة النظر الفلسفية :

١. في نقدنا لهذه الفلسفة، سنبدأ بالمنهج المقارن حيث يتبين أنها في جوهرها الفلسفة هي الرواقية القديمة، التي أسسها زينون، فإذا أباح وليم جميس لنفسه بعث الحياة فيها من جديد، فإن ذلك يقوض دعائم فكرته عن استبعاد الحق القديم، كما سنوضح بعد قليل.

٢. الحق قيمة مطلقة، وليست نسبية وإلا فإن المجتمع يصاب بالفوضى المدمرة لكيانه، وبعلاقاته مع غيره من المجتمعات بسبب الحرب.

وبغير الاعتقاد في ثبات المبادئ، فإننا لسنا أمام فلسفة جديدة وإن بدت كذلك، ولكنها مجرد إعادة للنظرية الرواقية القديمة مضافًا إليها الروح النضالية الحديثة، فإن الخير الحقيقي عند الرواقي القديم في حكمة الاختيار وحدها، وليس في الشيء المختار الذي يصطفيه، مثله كمثل ضارب القوس يهدف إلى عين الثور، فغايته ليست في إصابة الهدف نفسه، بل إظهار مهارته في إصابته"!!

إن تعليق الحكمة هنا في مظهرها العملي، أي على النجاح في ذاته بصرف النظر عن إصابة الهدف، تجعل من المجتمع غابة من الوحوش الضارية يأكل بعضها بعضًا، إذ تتنافس على التفوق والغلبة، ولا تتفق إرادتها على تحقيق أي قيمة من القيم الفاضلة: كالحق والعدل والإيثار وغيرها من الفضائل الإنسانية الثابتة في ذاتها.

فهل نحن مرة أخرى أمام دليل جديد يثبت أن الفلسفة الغربية تعيش على تراثها القديم؟!

٣. يرى وليم جيمس أن الحق إنما هو فرض عملي، أي مجرد أداة يختبر بها تصوره السابق، ويرى أن الحقائق تنقسم إلى قديمة وجديدة!!

والصواب الذي يتفق عليه أغلب الفلاسفة: أن الحق يستمد قيمته المطلقة من قيمته الثابتة خارج مقولتي الزمان و المكان.

ونراه أيضًا يخلط خلطًا معيبا بين المبادئ والأهداف، حيث يصبها في قالب المنفعة، بينما التفكير السليم يقتضي العكس، أي الإيمان بالفكرة والعقيدة أولًا عن اقتناع وتثبت بقيمتها الذاتية، ثم السعي بمقتضاها مهما قابلنا في طريقنا من صعوبات، فضلًا عن افتقاد المنافع، وهذا هو منهج الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام.

يقول الدكتور توفيق الطويل في تقييم هذه الفلسفة: " ويكفي أن تعتبر البراجماتية الحق أو الخير كالسلعة المطروحة في الأسواق، قيمتها لا تقوم في ذاتها، بل في

الثمن الذي يدفع فيها فعلًا، فالحق فيما يقول جيمس كورقة نقد تظل صالحة للتعامل حتى يثبت زيفها! ولم يجد أصحاب البراجماتية غضاضة في النظر إلى الحق، أو الخير كما ينظرون إلى السلعة التي تطرح في الأسواق، هذه هي العقلية الأمريكية في الفلسفة وفى الأخلاق، وفى السياسة وفى كل مجال.

ونضيف إلى ذلك أن هذه الفلسفة كانت ملهمة للنظام الرأسمالي القائم على مبدأ المنافسة الحرة، ثم ظهرت مساوئه عند التطبيق، واستفحلت أخطاره التي تتضح، كما يرى الدكتور فؤاد زكريا في ثلاثة:

أ. اللاأخلاقية: بالرغم من التقيد ببعض الفضائل كالأمانة والانضباط والدقة، ومراعاة المواعيد، ولكنها كفضائل ليست مقصودة لذاتها، ولكنها تفيد الرأسمالي في تعامله مع الغير، وتظهر اللاأخلاقية بوضوح في أساليب الدعاية والإعلام.

ب. الارتباط الوثيق بالحروب.

ج. الانحرافات السلوكية: وأظهرها الإجرام، إذ إن فتح الباب على مصراعيه للمنافسة، والصراعات من شأنه تمجيد العنف، ويتضح الانحراف بصورة أخرى في شرب المسكرات والمخدرات وعقارات الهلوسة وغيرها، وتفسيرها أنها ظاهرة هروبية من واقع العنف والمنافسة المريرة التي لا ترحم.

١. لم يسلم الدين أيضًا من التفسير النفعي في ضوء الفلسفة البراجماتية، فإن اعتبار شروط وجود الدين وأصوله ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة الدين؛ لأن قيمته فيما ينتجه.

فلم يكن الدين عند وليم جيمس كموضوع للبحث في ذاته، ولكن في آثار الانفعال الديني، وهل هذه الآثار حسنة تحقق الأمل؟ وهل يمكن الحصول عليها بطريق آخر خلاف الدين؟

إنه يرى أن للدين أثرًا أخلاقيًّا، كما أنه يتفوق على أي مصدر آخر للحث على النشاط والمثابرة وفعاليته تظهر بإيحائه المؤثر في الغالب أكثر من الأساليب المادية، ويضرب على ذلك مثالًا بالطبيب الذي يعترف بأن شفاء المريض لا يتحقق بالعلاج المادي وحده، بل بالإيحاء الناجم عن قوة الإيمان.

وهذا الرأي -كما يقول برتراندرسل: لا يقنع مؤمنًا مخلصًا في إيمانه؛ لأن المؤمن لا يطمئن إلا متى استراح إلى موضوع لعبادته وإيمانه، إن المؤمن لا يقول: إني إذ آمنت بالله سعدت، ولكنه يقول: إني أؤمن بالله ومن أجل هذا فأنا سعيد.... إن الاعتقاد بوجود الله -تعالى- في نظر المؤمن الصادق مستقل عما يحتل أن يترتب على وجوده من نتائج وآثار".

أما نحن معشر المسلمين، فإننا -بحمد الله- نمتلك أعظم ثروة للعقيدة والقيم تضمنها كتاب الله ﷻ ونفذها الرسول ﷺ؛ حيث حقق في عقيدته وسلوكه، وأخلاقياته الأسوة الحسنة، وجمع بين الحق عقيدة وإيمانًا، والعمل أخلاقًا وسلوكًا، وحدد الأهداف، ووضع المنهج وأحصى القيم، مبينًا الطريق الذي يجتازه المسلمون من دنياهم إلى أخراهم.

علاج آفات البراجماتية

وقد ألف علماؤنا مجلدات في هذه الأغراض كلها، ولكن يكفينا أن نسجل بهذه المناسبة بعض التعليقات التي تصلح لعلاج آفات البراجماتية، التي تبرهن على أن العقل البشري لا يستطيع الوقوف وحده بغير عون من الوحي:

الوجه الأول وفيه نقاط:

أ. إن الخير هو الذي يحدد الشرع ويستمد إلزامه منه للتسليم بأن الله تعالى هو العليم الحكيم، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن

تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

يفسر ابن كثير هذه الآية ببيان وجوب الجهاد، وآثار قتال أعداء الإسلام من النصر والظفر، ثم يمضي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾، فيذكر أن هذا عام في الأمور كلها، قد يحب المرء شيئًا، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

ب. كذلك قد يجهل الإنسان الفروق المرجحة لما يفيده مما يضره، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩]: أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية، ولكن هذه المصالح لا توازي المضرة والمفسدة الراجحة؛ لتعلقها بالعقل والدين.

ولهذا كانت هذه الآية ممهدة للتحريم على البتات، كما في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

الوجه الثاني وفيه نقاط:

إن النجاح مطلوب، والسعي والتنافس على فعل الخيرات مرغوب؛ فإن المؤمن القوي أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، ولكن ينبغي أن يستظل السعي

هدفًا وطريقًا بأوامر الشرع والالتزام بآدابه، وسنورد ههنا بعض الآيات للاسترشاد:

أ. قد يوسع الله تعالى الرزق للعبد استدراجًا له، ثم ينزل به عقابه الشديد، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ب. وقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال ﷻ: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ج. لا يصلح الله حال أمة إلا إذا صلحت قلوبها وأعدت نفسها للتقوى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

د. تكثر المصائب عند فساد الأخلاق، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

هـ. وفيما يتعلق بتقوية الإرادة، فهناك آية تبين كيف يربي الله تعالى المسلم على تحمل الشدائد، حتى يكون قوي العزيمة معدًّا لتحمل كل خطر: قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الوجه الثالث: ضرورة أعمال الخير لإقامة المجتمعات الإنسانية:

إن إقامة المجتمع على موازين المكسب، والخسارة وحدهما كفيل بهدمه ما دامت العلاقات بين أفراده لا تقوم إلا على أساس المصلحة، والكسب المادي، فكم من علاقات أخرى تقوم على الإيثار والتضحية وحب الخير لذاته، وهي التي تكفل

تحقيق السعادة للمجتمع ؛ لأن التعاطف والتعاون هما الرائدان في حركة المجتمع الإنساني ، وإلا تحول إلى غابة من الغابات التي يأكل فيها القوي الضعيف.

ومن الصعب -بل يتعذر- إقناع النفوس بأعمال الخير، التي لا تقوم بالمال، إلا بناءً على عقيدة إيمانية راسخة تحقق أعمالًا خيرة، وتسعى لاكتساب فضائل أخلاقية وتنميها ابتغاء مثوبة الله تعالى وجنته.

إن الحديث عن هذه الأعمال يحتاج إلى كلام طويل كامل، ونكتفي بالإرشاد هنا إلى نزر يسير منها ونحيل القارئ إلى ما ينبغي له تطلُّبه من المراجع ؛ ولتحقق الطمأنينة النفسية والسعادة المرجوة، ولمجتمعه المثالي على المستوى الإنساني الذي تحقق في عصر الحضارة الإسلامية الزاهرة، مع العلم بأنه كثير ما تشتمل هذه الأعمال على الجزاءين الدنيوي والأخروي :

عن أبي موسى > عن النبي ﷺ : ((على كل مسلم صدقة قال : أرأيت إن لم يجد؟ قال : يعمل بيديه، فينفع نفسه، ويتصدق، قال : أرأيت إن لم يستطع؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف، قال : أرأيت إن لم يستطع؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير، قال : أرأيت إن لم يفعل؟ قال : يمسك عن الشر فإنها صدقة)) متفق عليه.

وعن جابر بن عبد الله > أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقه، وما سرق منه له صدقه، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقه))، رواه مسلم.

وفى رواية له : ((فلا يغرس المسلم غرسًا، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير، إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة)).

وفي الحديث المتفق عليه : ((اتقوا النار ولو بشق تمرة)).

وبعد هذه المداخلات التفصيلية على بعض مؤسسي هذا المذهب، سنوجز أهم الانتقادات العامة التي توجه إلى البراجماتية في التالي:

١. أن البراجماتية لا تقدم لنا بحثًا إيجابيًّا عن الحقيقة؛ إذ إنها مجرد منهج لاكتشاف الأفكار الخاطئة، وهي التي ليست لها آثار عملية، وهذا منهج سلبي لا إيجابي؛ لأنها لا تهدف إلا إلى استبعاد الأفكار الخاطئة، تلك التي لا تكون لها هذه الآثار العملية، والاستبعاد -كما هو واضح- منهج سلبي للكشف عن الحقيقة، وليس إيجابيًّا بحال من الأحوال.

٢. يلاحظ بعض الباحثين ذلك الامتداد غير المشروع لفكرة المنفعة، فقد كان جيمس والبراجماتيون يفخرون باتساع أفقهم، ولكن الحق أن هذه الروح الفضفاضة تبلغ حدًّا يؤدي إلى القضاء على كل معنى لكلمة النافع، عندما كانوا يعرفون الحقيقة عن طريق المنفعة.

فالنافع في اللغة المتداولة هو ما يفي بحاجة حيوية؛ إلا أن البراجماتيين قد أضفوا على كلمة الحاجة معانٍ، بلغت من الكثرة حدًّا لم تعد معه تدل على شيء، حتى ولا كلمه النافع ذاتها.

فهناك حاجات ترمي إلى حفظ الحياة والعمل على استمرارها، ولكن من الممكن أن نطلق اسم الحاجة على ما يعبر عن أكثر الميول الوجدانية تنوعًا: فالمرء بحاجة إلى أن يكون محترمًا، محبوبًا، كما أنه بحاجة إلى أن يحب، وإلى أن يرى من يحبهم سعداء، والغيورون الحاقدون بحاجة إلى أن يروا الآخرين تعساء وأقل سعادة منهم.

والمرء بحاجة إلى الإيمان بوجود الله، وخلود النفس، كما أن هناك حاجات عاطفية وعقلية كالحاجة إلى المعرفة والفهم... وهكذا نلاحظ أن حاجات الإنسان والمنافع، التي تناظرها تبلغ من التنوع حدًّا يجعل كل تعريف للحقيقة بالمنفعة، ينتهي آخر الأمر إلى أنه لا يوضح من طبيعتها أي شيء.

٣. لا شك في أن الحقيقي نافع على نحو ما، إلا أن ذلك لا يستتبع القول بأن المنفعة هي أساس لتعريف الحقيقة، فالحقيقي نافع؛ لأنه حقيقي قبل أي اعتبار للمنفعة، وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول: بأن المذهب البراجماتي يعرف الحقيقة بأنها ما يفي بالحاجة، غير أن أول ما نحتاج إليه عندما نبحث عن الحقيقة هو ألا نكون براجماتيين!!

ومعنى ذلك أن القاعدة الأساسية التي نضعها عندما نشغل أنفسنا بالكشف عن الحقيقة، هي أن نصرف كل اعتبار للمنفعة، ولو تطرق الشك إلى نفوسنا وآمنا بشيء؛ لأننا بحاجة إلى هذا الإيمان، لفقد الإيمان إذن كل قيمة له، ومرة أخرى نقول: إن الحقيقي نافع؛ لأنه حقيقي، وليس حقيقيًّا؛ لأنه نافع.

ولنتصور الحالة العقلية لمريض يقول لطبيبه: "لا تقل لي سوى ما أحتاج إلى تصديقه"، ألا يكون قوله هذا توسلًا إليه أن يكذب؟

وهكذا ينتهي الأمر بالبراجماتية إلى أن تكون نظرية الأكذوبة الحيوية، التي تقوم على أساس من نزعة الشك.

إن جيمس -ومعه بقية البراجماتيين- يلعبون لعبة خاسرة مع الحقيقة، فهو إذ يجعل من الحقيقة: حقنا في الاستمرار في الاعتقاد بما ينفعنا، إنما يرفض مفهوم الحقيقة بأسره، إن وضع الفكرة ذات النتائج المَرَضية مكان مفهوم الحقيقة، معناه فتح الباب لأي خيال لذيذ.

فماذا يمكن أن يرضي الإنسان أكثر من استمراره في الاعتقاد بأنه ذكي، بينما هو في الواقع أبله؟!! إن العالم مليء بالكثير من السخف الذي يستشعر معه الإنسان قسطًا من المتعة.

وإذا كان تقديم الأفكار يتم على أساس ما يؤدي إليه من نتائج عملية، فعند أي حد نستطيع أن نحكم على فكرة معينة بناء على هذا الأساس؟ فلو كان هناك

شخص يعتقد أن الطريقة لحل مشكلاته الاقتصادية هي السيطرة على أحد البنوك، لكانت هذه الفكرة صحيحة أحيانًا، لما يترتب عليها من نتائج عملية.

إلا أن البراجماتيين يصرون على أن المرء لا بد أن يضع في حسبانه لا مجرد النتائج المباشرة، التي تترتب على الفكرة، بل آثارها البعيدة أيضًا.

وهنا قد نقول: إننا لا نستطيع أن نعرف النتائج العملية لهذه الفكرة، ما دامت النتائج البعيدة قد تستمر إلى غير ما حد، فقد تعمل الفكرة بنجاح في وقت معين، ثم تفشل في وقت آخر، ثم تعود للنجاح بعد ذلك، ومعنى هذا أننا ينبغي علينا أن ننتظر بلا نهاية؛ لكي نتمكن من تقييم نتائج أي اعتقاد، ومن تقرير ما إذا كانت له نتائج عملية أم أنه يفتقر إلى مثل هذه النتائج.

٤. أما تطبيق النظرية البراجماتية عن الحقيقة في مجال العلم، وما ذهب إليه جيمس والبراجماتيون من أن قضايا العلم قضايا حقيقية؛ لأنها مفيدة عمليًّا، فيبدو نسفًا للحقائق العلمية من أساسها! إن قبول نظرية معينة واعتبارها صحيحة بدون برهان، ولمجرد أنها نافعة أو أنها ترضينا من ناحية ما، هو نقيض الموقف العلمي تمامًا، إن الفرض المرضي فحسب هو في أغلب الأحيان أقرب الفروض إلى الخطأ.

٥. أما تطبيق الفكر البراجماتي على المعتقدات الدينية، فيبدو بالنسبة لنا كارثة! فإننا لا نسلم بالحقائق الدينية لمجرد أنها نافعة - في نظرنا القاصر-، بل؛ لأنها حقائق في ذاتها بصرف النظر عن فائدتها ونتائجها العملية الناجحة - بحسب النظرة القاصرة؛ لأننا لو سلمنا بهذا المعيار البراجماتي، كما فعل جيمس لكانت أية عقيدة مهما تكن أسباب إنكارنا لها حقيقة، لمن يرى أنها نافعة له، فتستوي بذلك النحل والبدع والديانات المحرفة مع الدين الحق الإسلام!!

لقد تنفس جيمس الصعداء لاستطاعته إزالة العراقيل، التي كانت تقف في طريق معتقداته الدينية، ولكنه كما قال سنتايانا بقسوة: لم يكن يؤمن

بحقيقة، كان يؤمن بأن من حق الإنسان أن يؤمن بأنه يمكن أن يكون على حق لو آمن"!

إننا لو قلنا لشخص ما: إنني أعتبر عقيدتك خرافة، ولكن إذا كانت مفيدة لك فهي عقيدة حقيقة بالنسبة لك، أليس في ذلك سخرية به؟!

٦. إن البراجماتية تركز على الفرد، وتعلي من الفردية إلى أقصى حد، وهي بذلك تعكس الفردية الممزقة التي سادت أمريكا في القرن التاسع عشر، وهذه الفردية بما يرتبط بها من فوضى وغموض، تجعل الأفراد عاجزين عن تحمل النظام والرقابة والمهام الاجتماعية.

إن هذه الفردية هي التي جعلت أواصر قربى بين البراجماتيين، وبين الفيلسوف السوفسطائي بروتاجوراس حين قال: إن الإنسان مقياس الأشياء جميعًا، وقد كتب شيلر يقول: ينبغي علينا أن نعود مرة أخرى إلى ما فعله بروتاجوراس، فنتخذ الأحكام الفردية لأشخاص مفردين نقطة بدء لنا، لكن ليس لنا أن ننسى أن بروتاجوراس هو أحد هؤلاء الذين كانوا يخلطون الحق بالباطل، لكي يتصيد في الماء العكر ما هو زائف ومريح، ويشيد صريح الخطابة على أنقاض الفلسفة.

لقد لاحظ أفلاطون بحق في ثيتاتوس أننا لو سلمنا بمبدأ بروتاجوراس، لكان معنى ذلك التسليم بأن حجج المجنون تعادل في صدقها حجج العاقل، وأن أحط الحيوانات شأنًا قد يكون له رأي في الكون لا يقل حصافة عن رأي الإنسان الحكيم!!

وبعد.. إن البراجماتية قد تصلح لأولئك الذين يتمتعون بروح عدوانية، تسعى إلى السيطرة النابليونية، أما بالنسبة لأولئك الذين يتمتعون بالروح الإنسانية، ويتمسكون بالمثل العليا، والقيم الدينية، فإن البراجماتية تبدو لهم ضيقة الأفق، محدودة الإطار، مخيبة للآمال.

الوجودية (١)

عناصر الدرس

تعريف الوجودية

الوجودية بالمعنى العام إبراز قيمة، ولهذا المذهب خصائص عامة جماعها ملاحظة الوجود وجهًا لوجه، من جهة ما هو وسط نعيش فيه، ونفكر فيه تفكيرًا فعليًّا.

والوجودية بالمعنى الخاص هي المذهب الذي عرضه جان بول سارتر في كتاب "الوجود والعدم"، ونشره في الجمهور بواسطة مسرحياته ورواياته ومقالاته، وخلاصة هذا المذهب أن الوجود متقدم على الماهية، وأن للإنسان مطلق الحرية في الاختيار يصنع نفسه بنفسه، ويملأ وجوده على النحو الذي يلائمه، وقد أحرزت مؤلفات سارتر ذيوعًا جعلته الممثل الأول للوجودية في فرنسا.

فالوجودية اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه.

وهي فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع، وتعتبر جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة التي تتعلق بالحياة والموت والمعاناة والألم، وليست نظرية فلسفية واضحة المعالم، ونظرًا لهذا الاضطراب والتذبذب لم تستطع إلى الآن أن تأخذ مكانها بين العقائد والأفكار.

وفي سياق هذا التعريف، وقبل أن ندخل في تفاصيل الوجودية نتطرق أولًا لما يذكره بعض العلماء حول قضية الوجود والعدم، التي هي من الوضوح بحيث لا تخفى على أحد إلا أن عبث الفلاسفة، وخيالاتهم التي تسرح هنا وهناك لم تقف بهم عند حد في إيراد الشبهات، وهؤلاء يبحثون الواضح حتى يجعلونه غامضًا بما يخترعونه من أفكار متضاربة، واستنتاجات بعيدة وافتراضات خيالية.

وحينما كان الناس على فطرتهم السليمة، ما كانوا بحاجة إلى من يشرح لهم قضية الوجود والعدم؛ لأنهم كانوا يحكمون على الموجود بأنه موجود، وعلى المعدوم بأنه معدوم، وأن الموجود هو مقابل المعدوم، والمعدوم يقابله ضده الموجود في بداهة لا تعرف التعقيد.

كما أن كلمة الوجود لم يذكرها الله في القرآن الكريم، ولا ذكر كذلك فكرة العدم بالمعنى الذي ذهب إليه الفلاسفة، وبتتبع الموجودات فإنك ستجد أول ما يظهر لك أنها تنقسم إلى قسمين:

١. موجودات مشاهدة ومحسوسة.
٢. موجودات غير مشاهدة، وإنما هي في الأذهان تسمى الموجودات العقلية أو المنطقية.

وسارتر يرى أن العدم لا معنى له إلا من جهة ما هو نفي شيء أو فقدان شيء، فلا وجود للعدم بذاته وإنما يعود إلى تصور الإنسان له، والقصد هو إنكار الحياة الأخروية والإسلام يقرر أن فكرة العدم المحضة بالنسبة للإنسان غير صحيحة، بل إنه سيحيى حياة أخرى بعد نهاية حياته الدنيوية، ويؤكد الله هذا في كثير من آيات القرآن الكريم، ويؤكده نبيه -صلى الله تعالى عليه وسلم- في أكثر من نص في السنة النبوية.

للوجودية أسماء كثيرة، وأشهرها هو:

١. الوجودية.
٢. وتسمى -أيضًا- فلسفة العدم.

٣. وفلسفة التفرد.

٤. وفلسفة الانحلالية.

وأما أوصافها فقد وصفت بأنها :

١. مرض العصر.

٢. ومرض الإنسان في منتصف القرن العشرين.

تأسيســـــها وتطورهـــــا

الوجودية رأي فلسفي قديم، والتفكير فيها كان قديمًا عبر العصور الغابرة الممتدة في رحاب الزمن، فكانت في حياة البشرية يقظات وجودية، تهتف بأن الإنسان هو المشكلة الأساسية، التي يجب أن يكون له أولوية الصدارة في الفكر الإنساني، وأن هذا الفكر يخطئ خطأً كثيرًا عندما يمنح الأولوية في بحثه للفكرة المجردة، أو لبيان وجود العالم وتعليله، كما حدث في دولة اليونان قديمًا، وفي إبان عصر النهضة في أوربا حديثًا.

ومن أول هذه اليقظات الوجودية ما ينسب إلى سقراط؛ وذلك بمعارضته فلاسفة اليونان ممن كانوا يوجهون جل اهتمامهم في البحث عن أصل المادة، أو في طبيعة الكون؛ حيث قعَّد لهم قاعدته المشهورة عندما قال: اعرف نفسك بنفسك.

ومن بعد سقراط كان الرواقيون الذين فرضوا سيادة النفس، ومواجهة المصير على الإنسان الإغريقي الذي تجلد لتلاعب السوفسطائيين، ولن يتراجع عن ما وطَّن نفسه عليه من البحث عن طبيعة النفس أمام المجادلات العقلية، التي لا تكاد تكل أو تمل.

ولقد جاءت الرسالات السماوية التي كرمت الإنسان، ووضعت له منهج حياته، وأوقفتهُ على حقيقة ذاته، فانصرفت البشرية إلى شرع الله، تهذب به سلوكها، وتنظم به حياتها، إلا من صد عن ذلك السبيل.

ولما جاء الإسلام وجدت البشرية في كتابه (القرآن) منهجًا متكاملًا عن النفس وطبائعها، والنفس وخصائصها، والنفس المطمئنة، والنفس المؤمنة، والنفس اللوامة، والنفس الأوابة، والنفس الأمارة بالسوء، ولم يهمل الإسلام العلاج إذا مرضت.

قال الله ﷻ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨] وقال: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] وقال: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١-٢]، وقال على لسان امرأة العزيز: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف: ٥٣].

والنفس -كما يقرر الإمام ابن القيم-: قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد، والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب من أحوالها؛ فكونها مطمئنةً وصفُ مدحٍ لها، وكونُها أمارةً بالسوء وصف ذمٍّ لها، وكونها لوامةً ينقسم إلى المدح والذم بحسب ما تلوم عليه.

ويقرر أن النفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنت بذكره، وأنابت إليه، واشتاقت إلى لقائه، وأنست بقربه -فهي مطمئنة.

ولكن هذا لا يمنع من ضلال بعض البشر، ونفورهم من هدى الشرائع؛ حيث تظهر بين الفينة والأخرى دعواتٌ إلى التفلت والانحلال؛ فمرة تحمل اسم المانوية وتدعو الناس إلى الرهبنة والخلاص من هذه الدنيا، وتدين بالولاء لإلهين، وتصدق ببعض الرسل وتكفر ببعضهم الآخر، ومرة باسم المزدكية، ومرة باسم الباطنية، إلى غيرها من الدعاوى الهدامة.

حتى أتى عصر النهضة وتخلص فيه رجال الفكر من السلطان الكنيسية، وتحرروا من ربقة الدين -أيضًا- وجاء بعض المفكرين كديكارت حيث جاء ليرفع قيمة العقل، ويقوض سلطان الكنيسة، ويطالب بتحكيم المنطق، ويرفض زيف المزيفين.

ثم جاء بَسْكال ورفض أصول المذهب الديكارتي، الذي عني فيه بالعلم، ولم يهتم بمصير الإنسان وحياته وموته إلا قليلًا.

ويمكن الجزم بأن بسكال هو الذي رسم طريق الوجودية الحديثة، وخطط معالمها، ووضع الخطوط العريضة لهياكل نماذجها.

ثم جاء سورين كيركجورد الذي يعده رجال الفكر في الغرب الأب الرسمي لمدرسة الوجودية، وقد كان متأثرًا بالمبادئ النصرانية وعلى الأخص البروتستانتية، ولكنه مع هذا ظل مجهولًا نحو مائة سنة؛ إذ لم تُتَرْجَمْ آراؤه إلى الألمانية إلا في أوائل القرن العشرين، ولم يعرف في فرنسا إلا في عصر الاضطراب، الذي حدث في الحربين العالميتين.

ومن ثم تضافرت آراؤه مع كوارث الحرب، وآثارها في النفوس على ترعرع الوجودية وتفتيحها، خصوصًا في ألمانيا وفرنسا.

وفي روسيا ظهر بيرديائيف وشيستوف وسولوفييف حيث ارتموا في أحضان الوجودية لأسباب منها: تَحَكُّمُ البابويةِ، وفَرْضُ الآراءِ التي لا تتفق مع العقل، إلى غير ذلك.

ثم جاء بعد ذلك جان بول سارتر الذي يعد زعيم الوجودية في العصر الحديث، وهو أكثر الوجوديين شهرة ودعاية، فهو القدوة للمخدوعين بهذا الاتجاه.

ولو استعرضنا حياة بعض رجال الوجودية، لوجدنا أن العامل الأساسي لاندفاعهم في هذا الطريق هو تحكم رجال الكنيسة وطغيانهم.

ولقد ساهم في جرم نشأة هذا المذهب بعض المفكرين، حيث يرى رجال الفكر الغربي أن سورين كيركجورد هو مؤسس المدرسة الوجودية، ومن مؤلفاته: "رهبة واضطراب".

جون بول سارتر: هذا الرجل يعد أكثر الوجوديين شهرة، وهو يهودي فرنسي، فيلسوف وأديب، من فلاسفة القرن العشرين، ولد سنة ١٩٠٥م بباريس.

ولما نشأ بعد دراسته في مدينة لاردشيل، ثم أتمها في باريس، وقد أخذ شهادة في الفلسفة في سنة ١٩٢٩، ثم عين أستاذًا للفلسفة في مدينة (لان) في (ليهافر).

وقد اجتذبته الفلسفة الألمانية، فسافر إلى (برلين)، ومكث فيها سنة على نفقة المعهد الفرنسي، وقام سنة ١٩٣٨م بنشر مؤلفه الأول، أو روايته الأولى (الغثيان) التي تشتمل على كثير من معالم النظريات الوجودية، التي أعلنها فيما بعد واضحة صريحة.

وفي سنة ١٩٣٩ نشر مجموعة قصص عنوانها (الحائط)، وعندما اشتعل لهيب الحرب العالمية الثانية جُنِّد في التعبئة العامة، ثم أسر في سنة ١٩٤٠م من قبل الألمان، وبعد أن أطلق سراحه اشترك في حركة المقاومة، وأنشأ سنة ١٩٥٠ مجلة العصور الحديثة، التي تتضمن أبحاثًا وجودية في الأدب والسياسة.

وقد أطلق كلمة وجودية على فلسفته فقط دون فلسفات الوجودية، هذا وقد كتب عددًا من المؤلفات مثل:

١. الغثيان ١٩٣٨م.
٢. المتخيل ١٩٤٢م.
٣. مسرحية الذباب ١٩٤٣م.
٤. مسرحية الباب المغلق ١٩٤٣م.

٥. الكينونة والعدم ١٩٤٣م.

٦. مسرحية الأيدي القذرة ١٩٤٨م.

وقد لقيت مؤلفاته رواجًا جعله الممثل الأول للوجودية، وقد ترجمت إلى لغات عديدة، أما حياته الشخصية فإنها تحمل طابعًا شاذًا.

وقد نشرت الصحف أنه اشترك في مظاهرات يهودية صهيونية في فرنسا، وحملات تبرع لإسرائيل في الستينيات كان شعارها: ادفع فرنكًا فرنسيًّا تقتل عربيًّا أي: مسلمًا.

وحين حضره الموت ١٩٧٩م سأله من كان عنده: ترى إلى أين قادك مذهبك؟ فأجاب في أسًى عميق ملأه الندم: إلى هزيمة كاملة.

ومن رجالها كذلك: القس كبرييل مارسيل وهو يعتقد أنه لا تناقض بين الوجودية والنصرانية.

كارل جاسبرز: فيلسوف ألماني.

بسكال بليز: مفكر وفيلسوف فرنسي.

وفي روسيا: بيرد يائيف، شيسوف، سولوفييف.

وهناك أسباب كثيرة أدت إلى قيام الوجودية، وتلك الأسباب في الأغلب هي التي أدت إلى قيام كثير من الحركات والمذاهب الفكرية.

وفيما يلي إجمال لتلك الأسباب التي أدت إلى قيام الوجودية:

١. **أنها ردة فعل للماركسية:** التي ترى أن الإنسان ليس إلا قطعة في الآلة الكبيرة التي هي المجتمع؛ فليس للفرد عندها أي قيمة.

٢. **الطغيان الكنسي:** وتحكم الباباوات في شؤون الناس، وفرض الآراء التي لا تتفق مع العقل والفطرة، وادعاؤهم أن تلك الآراء هي الدين.

٣. **حدوث الحروب المدمرة:** وخصوصًا الحرب العالمية الثانية، التي ذاقت البشرية ويلاتها، حيث دَمَّرت المدن، ومَزَّقت الأسر، وألقت بالآلاف في لهيب الدمار، والموت.

٤. **الخواء الروحي:** الموجود في كثير من بلدان العالم، مما يجعل الناس يقبلون أي نحلة، فهم كلما خرجوا من نفق مظلم دخلوا في نفق أشدَّ حلوكةً وظلمة منه.

٥. **غياب المنهج الصحيح:** الذي يُعنى بجميع جوانب الحياة سواء كانت اجتماعية أو فردية أو غير ذلك، وهو الإسلام الذي أَفَلَتْ شمسه في أوربا، مما جعل الناس يتخبطون، ويبحثون عن الحل، فلا يجدونه.

٦. **تقصير أمة الإسلام في أداء رسالتها:** فهي الأمة القوامة، وهي الأمة الشاهدة على الناس، فلمَّا قصرت في أداء واجبها تجاه البشرية تاهت البشرية في دياجير الظلمة.

٧. **المكر اليهودي:** الحاقد على البشرية، والذي كان له دور في قيام الوجودية؛ فاليهود إما أن يتبنوا كل مذهب خبيث، أو يعملوا على إنشائه.

ومن هذه المذاهبِ الوجوديةُ حيث دعمتها الصهيونية دعمًا كاملًا، والدليل على ذلك أن الصفحات التي كتبها كيركجورد ظلت مغمورة لمدة مائة سنة، حتى أخرجتها الصهيونية التلمودية، وأذاعتها وترجمتها.

ولسائل أن يسأل بإلحاح، فيقول: إذا كانت آراء الوجودية بهذه الضحالة والسخافة فكيف انتشرت، وكيف تقبلها الناس؟ والجواب: إنه بالتأكيد أن آراء الوجودية في غاية السخافة والبطلان، ولكن لا يغيب عن ذهن السائل أن لكل صائح صدى، أو كما قال الشاعر:

لكل ساقطة في الحي لاقطة ❖ ....

وبداهة يعلم أن الذين تقبلوها ونشروها، إنما يريدون من ورائها ما أراد مؤسسوها الأوائل من إشاعة الإلحاد، وهدم الأخلاق والأديان ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣].

وأول ما يدل على بطلانها وسخافتها موقف دعاتها من وجود رب العالمين، الذي يدل على وجوده جميع ذرات هذا الكون- ﷻ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا- لكنه خفي في أذهانهم حين استبعدهم إبليس وجنوده، وقد حدثت أمور خطيرة استفاد منها الوجوديون في ترويج أفكارهم.

وذلك أن بشاعة الحروب العالمية وغيرها وأخطارها، وما كانوا ينتظرونه من ظهور الفتن المتتابعة، وتسلط الكنيسة وطغيانها، وكذا ما تدعو إليه الوجودية من الانطلاق واهتبال الشهوات وتهوين أمر الفواحش، وأنها المنقذ الوحيد من الشقاء، فتلقفها الشباب والشابات والمراهقون والمراهقات على أنها حقيقة يجب أن تطبق.

فانتشرت الفوضى الجنسية، والإباحية التي لا حدود لها ضاربين بكل القيم والمثل الدينية والاجتماعية عرض الحائط، كما أن اليأس الذي كان يعيشه الأوربيون والبطالة الشديدة، والاستغلال الجشع من قبل أصحاب الأموال مع جهل مطبق بالدين الحق، كل هذه كانت روافد لتقبل المحرومين والمترفين على حد سواء للأفكار الوجودية.

وقد ظهرت الوجودية أول ما ظهرت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، ثم انتشرت في فرنسا وإيطاليا وغيرهما، وقد اتخذت من بشاعة الحروب وخطورتها على الإنسان مبررًا للانتشار السريع، وترى حرية الإنسان في عمل أي شيء متحللًا من كل الضوابط، وهذا المذهب يعد اتجاهًا إلحاديًّا يمسخ الوجود الإنساني ويلغي رصيد الإنسانية.

انتشرت أفكارهم المنحرفة المتحللة بين المراهقين والمراهقات في فرنسا وألمانيا والسويد والنمسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها، حيث أدت إلى الفوضى الخلقية والإباحية الجنسية، واللامبالاة بالأعراف الاجتماعية والأديان.

عندما نسي المسلمون حظًّا مما ذكروا به، وقصروا في تبليغ دينهم، وزهد كثير منهم في الأخذ به، ودعوة الناس إليه -أصبحوا عُرْضَةً لكل عدو، وغرضًا لكل دخيل، فهوجموا في عقائدهم وأخلاقهم، حتى ضعف قدر الإسلام في قلوب كثير من أبنائه.

مما جعل كثيرًا من البغبغاوات والمنهزمين يأخذون بهذه الفكرة الخبيثة، وذلك ناتج عن الولع بالغرب، والتقليد الأعمى، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، حتى إن المذاهب في الغرب تموت ولها في الشرق دعاة يهتفون لها؛ فقد تخلى سارتر عن وجوديته، ولا زال بعض أولئك بوجوديته متعلقًا.

تبرؤ عبد الرحمن بدوي من الوجودية:

حوار مع عبد الرحمن بدوي قبل وفاته بشهر أجرته مجلة الحرس الوطني عدد ٢٤٤ تاريخ ١/١٠/٢٠٠٢م:

هل تبرأت من كتاباتك السابقة عن الوجودية والزمن الوجودي، وعن كونك رائد الوجودية في الوطن العربي؟!!

نعم.. أي عقل ناضج يفكر لا يثبت على حقيقة واحدة، ولكنه يتساءل ويستفسر ويطرح أسئلته في كل وقت، ويجدد نشاطه باستمرار، ولهذا فأنا في الفترة الحالية أعيش مرحلة القرب من الله تعالى، والتخلي عن كل ما كتبت من قبل، من آراء تتصادم مع العقيدة والشريعة، ومع الأدب الملتزم بالحق والخير والجمال، فأنا الآن هضمت تراثنا الإسلامي قراءة وتذوقًا وتحليلًا وشرحًا، وبدا لي أنه لم يتأت لأمة من الأمم مثل هذا الكم الزاخر النفيس من العلم والأدب والفكر والفلسفة لأمة الضاد!!.

كما أني قرأت الأدب والفلسفات الغربية في لغاتها الأم، مثل: الإنجليزية والفرنسية واللاتينية والألمانية والإيطالية، وأستطيع أن أقول: إن العقل الأوروبي لم ينتج شيئًا يستحق الإشادة والحفاوة مثلما فعل العقل العربي، وتبين لي -في النهاية- الغي من الرشاد، والحق من الضلال.

مشروعات قادمة:

وماذا تنوي أن تقدم من مشاريع فكرية في المستقبل؟ وهل ستعود إلى باريس ثانية؟.

- مشاريعي الفكرية القادمة هي إن شاء الله تتجه وجهة فكرية أخرى، تميل إلى الأصالة بعد أن افتضحت المعاصرة، وعَرَّاها الجحود والتخلف والتعقيد.

- وأنا من الباحثين عن أسس مرجعية للحضارة الإسلامية، وبصدد تأليف كتاب يكون مرجعيًّا لمعالم الحضارة في الإسلام؛ سماتها، أسماؤها، معالمها، اتجاهاتها، شخصياتها، أبرز علمائها.. إلخ، وهناك كتاب آخر عن الأدب والعقيدة دراسة في نماذج مختلفة.

وغير ذلك من الموضوعات التي تمتاح من الأصالة، وتتعمقها وتتشربها أصلًا ونبراسًا وطريقًا لا مناص ولا محيد عنه، وربما أعود لباريس ثانية.

- وما رأيك في الحداثة بعد أن افتضح أمرها، وثارت حولها القصص والحكايات بشأن التمويل والعلاقات المشبوهة مع المخابرات الغربية؟!!.

الحداثة ماتت في الغرب في السبعينات، لكننا أحييناها على ترابنا، وفي جامعاتنا ومعاهدنا، وفى منتدياتنا الفكرية والثقافية والأدبية، وعادينا من أجلها تراثنا العظيم، وشعرنا العمودي، وفكرنا القويم، وخضنا بسببها حروبًا طاحنة واشتباكات فكرية لا طائل من ورائها!!.

ولم يفطن أدباؤنا ولا مفكرونا إلى حقيقتها وإلى أوزارها ومساوئها، إلا بعد صدور هذا الكتاب (الحرب الباردة الثقافية).

- دور المخابرات المركزية الأمريكية في الثقافة والفن، الذي أحدث صدمة قوية بالنسبة لهؤلاء المتغرّبين، فاقتنعوا أخيرًا بما كنا نقوله من قبل.

- وحش العولمة: يهاجم الجميع العولمة لما يكتنفها من هيمنة وغزو وسيطرة، ومحق لثقافات وتوجهات وهويات الآخرين الحضارية.. فما رأيك في ذلك؟!!.

- العولمة.. شبح يريد الفتك بنا جميعًا فهي وحش كاسر يتربص بالعالم كله، لكي يستحوذ عليه ثقافيًّا وفكريًّا وحضاريًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا، وهي استعمار جديد، وهيمنة غربية على مقدرات العالم، ولقوله وأفكاره وأمواله!!.

ويجب أن نتصدى لها وأن نفيق لمخططاتها الجهنمية!!. وهل تقدرون مغبة عودتك الحميمة للإسلام، بالنسبة للحداثيين والعلمانيين، الذين سيشنون حربًا شرسة ضدكم؟ ما دمت قد هاجمت الأصلاء، وعرضت بهم وبإنتاجهم لسنين وسنين، فما المانع أن أذوق من نفس الكأس، وأن أشرب منه، بعد أن تسببت في تجرع الكبار من هذا الكأس من قبل؟!

وأنا سعيد بأن يهاجمني الوجوديون والعلمانيون والشيوعيون؛ لأن معنى ذلك أني أسير على الحق، وأنني على صواب، ولا أكترث بما يكتبون؛ لأن القافلة تسير، والكلاب تنبح!!. انتهى كلامه.

ويكفينا من هذا الرجل تراجعه وإقراره الشديد بفساد مسلك الوجودية، لكن هذا لا يكفي في ساحة الحقيقة إلّا إذا علمنا بتفصيل مم رجع؟ وإلى ماذا رجع؟

الوجودية (٢)

عناصر الدرس

أهـــم مبـــادئ الوجوديـــة

قد ينخدع كثير من الناس ببعض الظواهر، التي يقدمها المغرضون من الباحثين لمذهب الوجودية، حيث يبرزون للناس صورة هذا المذهب في مظاهر جمالية حسنة، ويخفون كثيرًا مما قبح منها، بلي معانيها، أو إعطائها صورة مخادعة، دون بيان حقيقتها.

والوجودية في أحسن وجوهها - عند مؤيديها - تعني:

١. الدعوة إلى الإشادة بالفردية، وتقويم الشخصية الإنسانية، واحترام القيم الإنسانية الخالصة.

٢. العناية بتحليل المعاني الأساسية في الوجود الإنساني من قلق وخوف وخطيئة، ويأس وفناء وفردية وحرية.

٣. تمجيد الوجدان والانفعال إلى جانب العقل بل فوق العقل.

٤. اتخاذ التجارب الحية موضوعات للتفسير والتفلسف، وعدم الاقتصار على التصورات العقلية المجردة.

٥. معاناة المشاكل من الداخل بدلًا من معالجتها من الظاهر، والناس عند الوجوديين ثلاثة، رجل جمال، ورجل أخلاق، ورجل دين:

أ. **رجل الجمال:** هو الذي يعيش للمتعة واللذة ويسرف فيها، وشعاره: تمتع بيومك، أحب ما لن تراه مرتين، ولا زواج عند هذا الرجل ولا صداقة، والمرأة عنده أداة للغزو وليست غاية.

ب. رجل الأخلاق: وهو الذي يعيش تحت لواء المسؤولية، والواجب نحو المجتمع والدولة والإنسانية، ولذلك فهو يؤمن بالزواج ولكن لا علاقة له بدين أو غيره.

ج. رجل الدين: وهو عندهم لا يحيا في الزمان، فلا صبح ولا مساء، ليس عند ربكم صباح ومساء، ولهذا فهو متجرد عن الدنيا، وأحواله في الجملة هي تلك الأحوال المعروفة عند الصوفية.

وقد تقع هذه الأنواع والصنوف لرجل واحد، فيتدرج من المرحلة الجمالية إلى المرحلة الساخرة، وهذه تؤدي إلى مرحلة الأخلاق، التي تسلمه بدورها إلى العبث ومن العبث تبلغ المرحلة الدينية، وهذا يدل على محاولات الوجودية الفلسفية للجمع الدياليكتيكي بين المتناقضات.

ومن هذا حديث الوجوديين عن الوجود والزمان، ومحاولة الجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل، فالوجود الإنساني مهموم بتحقيق إمكانياته في الوجود، والزمانية هي الوحدة الأصلية لتركيب الهم.

والخلاصة -عندهم- أن الماضي يوجد في ذاته المستقبل، والمستقبل هو خارج الماضي، وفي نفس الوقت ينطوي في ذاته على الماضي.

ونفس الشيء يقال عن الحاضر في علاقته مع الماضي ومع المستقبل معًا، فالعلاقة بين هذه اللحظات الثلاث إذن علاقة اندراج واستبعاد معًا.

والملاحظ لذي الفطنة أن ما قدموه في هذه العبارات هو مجرد تحليل ودراسات، أما الحقيقة والنتائج التي توصلوا إليها من خلالها فلا وجود لها في عالم ما يروجونه، ويخادعون به عامة الناس، ويتظاهرون بأنهم ذلك الرجل المسكين

المظلوم الذي قولوه ما لم يقل ، ولهذا كان لزامًا علينا بيان ما يتضمنه هذا المذهب من الإلحاد الصريح ؛ ليكون الناس على بينة من أمرهم.

وأخطر ما في الوجودية بعد نفي الألوهية عبادةُ الذات ، فهي تدعو الإنسان إلى أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع ، ويطلق لحريته العنان ، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع والملذات ، ولقد كان ظهور البراجماتية مقدمة وتمهيدًا لها.

فالبراجماتية تقوم على النفع المادي العاجل لكل فكرة أو عمل ، سواء كان ذلك للإنسان أو الجماعة ، والوجودية تقوم على النفع المادي العاجل ، الذي يعود على الفرد في ذات نفسه دون نظر إلى الآخرين ، المهم أن يحيى هو ، وأن يعيش هو ، ولو على حساب الآخرين.

فأساس الوجودية الذي تعتمد عليه هو أن الفرد هو الموجود الحقيقي ، ويرتبون على ذلك أنه لا معنى للقول بالطبيعة البشرية ، والقول بالأخلاق التي تفرضها هذه الطبيعة ، أو الأقدار التي رسمت بها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود ، والفرد هو الموجود الحقيقي في الخارج ، والنوع الإنساني لا وجود له إلا في عالم التصور والفروض الذهنية.

وعلى الإنسان أن يوجد نفسه ، ولا يوجد الإنسان نفسه في هذا المذهب الضال ، كما يقول سارتر إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهواته بحيث يفعل ما يشاء ويترك ما يريد ، ولا يبالي العرف أو الدين ، وإنما يتحلل من كل ما يربطه بالمجتمع من نظم وقواعد وقوانين وعادات وتقاليد.

ويطلق نفسه على هواها تهيم في كل واد ، وترعى كل ما يصادفها على طريقها من غير وعي أو تفكير أو تقدير لما تأخذ أو تدع ، وسيان عند الوجودي أن يأخذ كل شيء ، أو لا يأخذ شيئًا ، وسيان عنده الشيء ونقيضه ، فلا خير ولا شر ، ولا

نور ولا ظلام، ولا هدًى ولا ضلال، فإن الوقوف عند اختيار شيء من الأشياء هو في مذهب الوجودي قيد يقيده إزاء هذا الشيء، وفي هذا جور على وجوده الذي يفقده إذا هو خضع لشيء ما، أو تقيد بشيء ما، فلا بيت ولا زوجة ولا ولد، ولا وطن، ثم أولًا وآخرًا لا دين.

ولذلك لا تبعد أن تسمي هذا المذهب بالفوضوية التي تحول الوجود كله إلى عبث لا معنى له، ولا غاية من ورائه، وتستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها المجتمع الإنساني، وتدعو الشباب الباحث عن اللذة إلى الانغمار فيها والعبث من كؤوسها، واطراح كل ما يدعو إلى العفة أو الخلق أو الدين.

ولذلك قام على أنقاضها جموع غفيرة من شباب أوربا وأمريكا تدعو إلى العري والخنفسة، وتهيم على وجهها في الطرقات تحت أسماء الهيبز والخنافس، وغيرها، وجميعهم في مطلع الشباب، وقد تحولوا جميعا ذكوراً وإناثًا إلى قطعان من الحيوانات تأكل من الحشائش، وتنام مفترشة الأرض متغطية بالسماء، لا عن حاجة ولا عن فقر، ولكن عن فلسفة مريضة دخلت في رؤوس هؤلاء الشبان فمسختهم هذا المسخ.

فدعوا إلى الكفر بالله ورسله وكتبه، وبكل الغيبيات وكل ما جاءت به الأديان واعتبروها عوائق أمام الإنسان نحو المستقبل، وقد اتخذوا الإلحاد مبدأً ووصلوا إلى ما يتبع ذلك من نتائج مدمرة.

يعاني الوجوديون من إحساس أليم بالضيق والقلق واليأس والشعور بالسقوط والإحباط؛ لأن الوجودية لا تمنح شيئًا ثابتًا يساعد على التماسك والإيمان، وتعتبر الإنسان قد أُلقي به في هذا العالم وسط مخاطر تؤدي به إلى الفناء.

يؤمنون إيمانًا مطلقًا بالوجود الإنساني ويتخذونه منطلقًا لكل فكرة، يعتقدون بأن الإنسان أقدم شيء في الوجود وما قبله كان عدمًا، وأن وجود الإنسان سابق لماهيته.

يعتقدون أن الأديان والنظريات الفلسفية، التي سادت خلال القرون الوسطى والحديثة لم تحل مشكلة الإنسان.

يقولون: إنهم يعملون لإعادة الاعتبار الكلي للإنسان، ومراعاة تفكيره الشخصي وحريته وغرائزه ومشاعره، يقولون بحرية الإنسان المطلقة، وأن له أن يثبت وجوده كما يشاء، وبأي وجه يريده دون أن يقيده شيء.

يقولون: إن على الإنسان أن يطرح الماضي، وينكر كل القيود دينية كانت أم اجتماعية أم فلسفية أم منطقية.

يقول المؤمنون منهم: إن الدين محله الضمير، أمَّا الحياة بما فيها فمقودة لإرادة الشخص المطلقة.

لا يؤمنون بوجود قيم ثابتة توجه سلوك الناس وتضبطه، إنما كل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيمًا أو أخلاقًا معينة على الآخرين. أدى فكرهم إلى شيوع الفوضى الخلقية، والإباحية الجنسية والتحلل والفساد، رغم كل ما أعطوه للإنسان فإن فكرهم يتسم بالانطوائية الاجتماعية، والانهزامية في مواجهة المشكلات المتنوعة. الوجودي الحق عندهم هو الذي لا يقبل توجيهًا من الخارج، إنما يسيِّر نفسه بنفسه، ويلبي نداء شهواته وغرائزه دون قيود ولا حدود.

لها الآن مدرستان: واحدة مؤمنة والأخرى ملحدة، وهي التي بيدها القيادة وهي المقصودة بمفهوم الوجودية المتداول على الألسنة، فالوجودية إذًا قائمة على الإلحاد.

والوجودية في مفهومها تمرد على الواقع التاريخي، وحرب على التراث الضخم الذي خلفته الإنسانية، تمثل الوجودية اليوم واجهة من واجهات الصهيونية

الكثيرة، التي تعمل من خلالها، وذلك بما تبثُّه من هدم للقيم والعقائد والأديان.

وأما الجذور الفكرية والعقائدية:

فإن الوجودية جاءت كردٍّ فعل على تسلط الكنيسة، وتحكمها في الإنسان بشكل متعسف باسم الدين، تأثرت بالعلمانية وغيرها من الحركات التي صاحبت النهضة الأوروبية، ورفضت الدين والكنيسة، تأثرت بسقراط الذي وضع قاعدة: اعرف نفسك بنفسك.

تأثروا بالرواقيين الذين فرضوا سيادة النفس، كما تأثروا بمختلف الحركات الداعية إلى الإلحاد والإباحية.

وكما تقدم فإن الوجودية دعوة قديمة، تظهر في صور براقة، ويستعمل في الدعاية لها كافة الوسائل، وحيث وجَدْتَ فكرًا يهدف إلى هدم الدين، أو الأخلاق، أو النظم الاجتماعية أو السياسية الصالحة، فابحث عن الأصابع اليهودية تجدْها وراءه.

وسارتر واحد من قافلة اليهود، الذين حملوا على عواتقهم رسالة تضليل الناس، وإغوائهم على منهج إبليس؛ لتحقيق أهداف اليهود العالمية، التي رسمتها بروتوكولات أحبارهم الذين مردوا على كل إثم وشر وتضليل، وأهداف سارتر لا تخرج عن أهداف فرويد، ودوركايم، وبرجسون.

ومن الاعتبارات التي قامت لأجلها الوجودية ما يلي:

١. تحطيم القيم والأخلاق، والخروج على المبادئ والتمرد على المسلمات والثوابت.

٢. إشاعة الرذيلة والإباحية بين الشباب والشابات.

٣. رد الناس عن أديانهم وتشكيكهم في عقائدهم.

٤. السخرية من دعوة الرسل.

نقد الوجودية، وموقف الإسلام منها

بيان بطلان الوجودية لا يحتاج إلى كبير جهد؛ ففسادها يغني عن إفسادها، وتصورها كافٍ في الرد عليها.

يقول الأستاذ عبد الرحمن الميداني: لا تحتاج آراء سارتر، وكذلك كل آراء الوجودية الملحدة إلى جهد كبير لتفنيدها، وكشف زيوفها؛ فهي أقل من أن توضع بين الفلسفات التي تستحق المناقشة، والاعتراض والنقد.

ولولا أنها كتبت بأيدي رجال متخصصين في دراسة الفلسفة، ثم قامت منظمات ذات مخططات سياسية عالمية هدامة بترويجها في أسواق الفارغين من العقول لنشر الإلحاد بالله، وتدمير الأخلاق، وسائر القيم الصحيحة عن طريقها -لما كان لها شأن يذكر، ولما رفعها أحد من مجمع قمامات الآراء؛ لينظر إليها، ويفحص ماهيتها، ولما شُغل بقراءة كتبها مشغولون حريصون على أوقاتهم أن تضيع سدى في قراءة كلام هراء متهافت سخيف، لا قيمة له لدى أهل الفكر والنظر.

وفيما يلي ذكر لبعض الأمور التي يتبين من خلالها بطلان الوجودية وزيفها:

١. بطلان قولها بإنكار الخالق: فالوجودية أنكرت وجود الخالق ﷻ وهذا الأمر منقوض بالشرع، والعقل والفطرة والحس، فهذه كلها تدل على وجود الله ﷻ.

أما دلالة الشرع على وجود الله؛ فلأن الكتب السماوية كلها تنطق بذلك، فما جاءت به من العقائد الصحيحة، والأخلاق القويمة، والأحكام العادلة دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح عباده.

وأما دلالة العقل ؛ فلأن المخلوقات سابقها ولاحقها لابد لها من خالق ؛ إذ لا يمكن أن تُوجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن توجد صدفة ؛ لأن الشيء لا يخلق نفسه ؛ ولأن كل حادث لا بد له من مُحدِث ؛ ولأن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض يمنع منعًا باتًا أن يكون وجودها صدفة، إذا تقرر ذلك تَعَيَّن أن يكون لها مُوجد وهو الله رب العالمين، وبطل القول بإنكاره ﷻ.

وأما دلالة الفطرة على وجود الله ؛ فلأن كل مولود قد فُطر وجُبل على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكيرٍ أو تعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها، قال النبي ﷺ : ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه)).

أما دلالة الحس على وجود الله ؛ فلأن كل ما في الكون شاهد ودليل على وجود الله ﷻ.

فكيف يأتي جاهل سفيه موتور كفور، فينكر وجود الله ﷻ بجرة قلم؟! ومن أدلة الحس: إجابة الدعوات، ومعجزات الأنبياء، ودلالة الأنفس والآفاق ونحو ذلك.

٢. بطلان دعواهم إلى الحرية المطلقة: فلقد دعا الوجوديون إلى الحرية المطلقة، زعمًا منهم بأن هذا هو الطريق الوحيد لأن يثبت الإنسان وجوده.

ويقال لهؤلاء: ما مفهوم الحرية عندكم؟ أهي على حساب حريات الآخرين؟ أم على حساب القيم والمبادئ؟ وهل الإنسان إذا أطلق العنان لنفسه وشهواته يكون حرًّا، فيثبُت وجوده من خلال ذلك؟

الجواب: أن هذا فهم خاطئ للحرية ؛ فهي لا تكون بإطلاق الشهوات، ولا تكون على حساب الآخرين، فإذا لم تضبط بالشرع أصبحت البشرية كقطيع من

البهائم السائبة، ولا يردعها دين، ولا يزُمُّها حياء، ولا يحكمها عقل، وإذا كانت الغاية من الوجودية هي أن تحقق للإنسان وجوده، فإن ذلك مقرر في الإسلام في إطاره الطبيعي، وضوابطه الأصلية، التي تحمي وجوده وكيانه، وليس للإنسان أن يطلق العنان لتحقيق شهواته فيدمر نفسه ويدمر الآخرين.

ثم إن الإنسان -أي إنسان- عبد، لا ينفك عن هذه العبودية طرفة عين، فإذا رضي بعبودية الله تحرر مما سواه، وإلا تناوشته سائر العبوديات، فصار عبدًا للشهوة، أو عبدًا للشهرة، أو عبدًا للمال أو المنصب، أو عبدًا للطواغيت، ونحو ذلك.

ثم إن الحرية المطلقة سبب للشقاء والدمار، والتفكك، والانهيار، ولا أدل على ذلك من حال الدول التي يشيع فيها هذا النوع من الحرية؛ فهي تعاني الأمرَّين من السرقة، والشذوذ، والأمراض الجنسية والانتحار، وما جرى مجرى ذلك مما يطول ذكْرُه.

٣. قيامها على التناقض والجهل، ومخالفتها للثوابت: فمما يكشف زيف الوجودية أنها قامت على التناقض، والجهل، ومخالفة العلم والعقل، والحقائق الثابتة.

فلقد قدم سارتر وسائر الوجوديين آراءهم على أنها أحكام تقريرية، دون أن يُؤيد بدليل علمي، أو حسي، أو واقعي. فما قيمة آراء وأفكار من هذا القبيل؟!

إن أي صاحب خيال يستطيع أن يقول أيَّةَ فكرةٍ تخطر في وهمه، فيزينها بصبغة كلامية، ويزوقها بزخرف من القول، ثم يطرحها في ميادين الفكر، ويجعلها مذهبًا فكريًّا، ولكن عند النظر فيها لا يثبت لها قدم، ولا يستوي لها ساق، وكما قدم الوجوديون أحكامًا تقريرية بدون أي دليل -أنكروا حقائق يشعر بها الناس جميعًا بدون أي دليل.

ونظرًا لهذا الاضطراب، والتذبذب لم تستطع الوجودية إلى الآن أن تأخذ مكانها بين العقائد والأفكار.

٤. شذوذ روادها وانحرافهم: فلقد قامت الوجودية على أيدي دعاة كانوا جميعًا من الشذاذ، وكانت حياتهم مليئة بالاضطرابات والقلق، وهذا مما يدل على بطلانها؛ ففاقد الشيء لا يعطيه، ثم إن كتابات أربابها كانت متسمة بالانحراف والسقوط؛ فهم يُعَنْوِنُونها دائمًا بعنوانات ساقطة، ينفر منها الذوق السليم، وتأباها الفطرة القويمة.

ومن مقالاتهم في ذلك: القلق، الحائط، الذباب، الغثيان، التمزق، اللامعقولية، ولا غرو في ذلك؛ فكل إناء بما فيه ينضح.

٥. آثارها ونتائجها المدمرة: وهذا يدل بجلاء على فساد تلك الفكرة وزيفها؛ ذلك أنها قامت -فيما تزعم- من أجل إسعاد الفرد، ورد اعتباره، فما النتيجة التي حصلت بالدعوة إليها؟ وماذا حدث من جراء اعتناقها؟ النتيجة كما قيل: تلك آثارنا تدل علينا، فلقد انتشر التشاؤم والقلق، والحيوانية، والضياع، والخوف الرهيب، والانتحار والتمرد، والأنانية المفرطة.

أضف إلى ذلك ضياع المشاعر الإنسانية: كالمحبة، والرحمة، والإيثار، ونحو ذلك كلها ضاعت في مستنقع الوجودية الآسن.

يقول بوخينسكي، أستاذ الفلسفة بجامعة فريبورج "بسويسرا" بعد عرضه آراء سارتر في الوجودية: وليس في وسعنا هنا سوى الاقتصار على ذكر النتائج الأخلاقية التي ترتبت على هذه الفلسفة، والتي تمثلت في نكران كل القيم، وكل القوانين الموضوعة، وهي ادعاء عدمية واستحالة، وعدم جدوى الحياة الإنسانية.

بل إن الوجودية قد أفرغت حتى ظاهرة الموت نفسها من معناها على يد سارتر، ومن نتائج الوجودية -أيضًا- دعوتها إلى التشكيك في جدوى قيام كل ما يتسم بروح الجد وطابعه، فهي فلسفة انحلالية عدمية تمامًا.

٦. وبالجملة: فليست الوجودية كما حددها سارتر سوى صورة من صور الضياع؛ فهي ليست إلا ثورة سلبية يائسة، لم تستطع أن تشخص الداء فضلًا عن تقديم الدواء.

وكل ما تستطيع أن تقول بصدق: إن ما قدمته الوجودية للإنسانية هو عرض بعض جوانب المأساة البشرية، تلك المأساة التي تعبر عنها جملة واحدة هي: البحث عن الإله.

فهي ترفض الإيمان بالله كما يبينه الدين، ولكنها لا تجد البديل، والإنسان الذي تحاول تأليهه محصورٌ مقهور أمام القدر الكوني، وأمام وضعه التاريخي المحدد.

وحول إيجاد مخرج من هذا التناقض تأتي الفلسفات الوجودية بشعارات شتى كالحرية عند سارتر، والعبث عند البيركامو، وهكذا ضلوا وأضلوا، وشقُوا وأشقوا.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

حكم الوجودية والانتماء إليها:

فقد عُرض موضوع الوجودية على مجلس المجمع الفقهي في دورته المنعقدة في ١٣٩٩/٤/٢٦هـ-١٣٩٩/٥/٤هـ، وأصدر بذلك قرارًا حول الوجودية وهذا نصه:

"الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد:

فقد درس مجلس المجمع الفقهي البحث، الذي قدمه الدكتور محمد رشيدي عن الوجودية بعنوان (كيف يفهم المسلم فكرة الوجودية)، وما جاء فيه من شرح لفكرتها، ولمراحلها الثلاث التي تطور فيها هذا المذهب الأجنبي إلى ثلاثة فروع تميز كل منها عن الآخر تميزًا أساسيًّا جذريًّا، حتى يكاد لا يبقى بين كل فرع منها والآخر صلة أو جذور مشتركة.

وتبين أن المرحلة الثالثة رجعت بفكرة الوجودية إلى إلحاد انحلالي، يستباح فيه تحت شعار الحرية كل ما ينكره الإسلام والعقول السليمة، وفي ضوء ما تقدم بيانه يتبين أنه حتى فيما يتعلق بالمرحلة الثانية المتوسطة من هذه الفكرة، وهي التي يتسم أصحابها بالإيمان بوجود الخالق، والغيبيات الدينية، وإن كان يقال: إنها رد فعل للمادية والتكنولوجيا والعقلانية المطلقة.

وكل ما يمكن أن يقوله المسلم عنها في ضوء الإسلام هو أن هذه المرحلة الثانية منها، أو عقيدة الفرع الثاني من الوجودية -رأي أصحابها في الدين على أساس العاطفة دون العقل- لا يتفق مع الأسس الإسلامية في العقيدة الصحيحة، المبنية على النقل الصحيح، والعقل السليم في إثبات وجود الله -تعالى-، وما له من الأسماء والصفات، وفي إثبات الرسالات على ما جاء في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله محمد.

وبناءً على ذلك يقرر مجلس المجمع بالإجماع: إن فكرة الوجودية في جميع مراحلها وتطوراتها، وفروعها لا تتفق مع الإسلام؛ لأن الإسلام إيمان يعتمد النقل الصحيح، والعقل السليم معًا في وقت واحد.

فلذا لا يجوز للمسلم بحال من الأحوال أن ينتمي إلى هذا المذهب متوهمًا أنه لا يتنافى مع الإسلام، كما أنه لا يجوز بطريق الأولوية أن يدعو إليه أو ينشر أفكاره الضالة.

الرئيس/ عبد الله بن حميد، نائب الرئيس/ محمد علي الحركان.

الأعضاء:

١. عبد العزيز بن باز.

٢. محمد السبيل.

٣. صالح بن عثيمين.

٤. محمد عبد الودود.

٥. حسين مخلوف.

٦. عبد المحسن العباد.

٧. مصطفى الزرقاء.

٨. محمد قباني.

٩. اللواء محمود شيت خطاب.

١٠. محمد رشيدي.

١١. محمد الشاذلي.

١٢. محمود الصواف.

١٣. عبد القدوس الهاشمي.

وبالجملة : فإن الوجودية اتجاه إلحادي يمسخ الوجود الإنساني ، ويلغي رصيد الإنسانية من الأديان وقيمها الأخلاقية ، وتختلف نظرة الإسلام تمامًا عن نظرية الوجودية حيث يقرر الإسلام أن هناك وجودًا زمنيًّا بمعنى عالم الشهادة ووجودًا أبديًّا بمعنى عالم الغيب ، والموت في نظر الإسلام هو النهاية الطبيعية للوجود الزمني ، ثم يكون البعث والحساب والجزاء والعقاب.

أما الفلسفة الوجودية ، فلا تسلم بوجود الروح ولا القوى الغيبية ، وتقوم على أساس القول بالعدمية والتعطيل ، فالعالم في نظرهم وجد بغير داع ويمضي لغير غاية ، والحياة كلها سخف يورث الضجر والقلق ، ولذا يتخلص بعضهم منها بالانتحار.

الديمقراطية

عناصر الدرس

معنـــــــى الديمقراطيـــــــة

من المذاهب الفكرية الهدَّامة التي ظهرت في العصور المتأخرة: الديمقراطية.

المذهب الذي يحمل في طيَّاته ما لا يُحصى من الأفكار الإلحادية، والذي ترتب عليه كذلك ما لا يحصَى من الآثار السيئة، والحرب المستمرة على الإسلام والمسلمين.

وسنتكلم بالتفصيل حول هذا المذهب من خلال العناصر التالية:

معنى الديمقراطية:

الديمقراطية: كلمة يونانية في أصلها، ومعناها: سلطة الشعب، والمقصود بها -بزعمهم- حكم الشعب نفسه بنفسه عن طريق اختيار الشعب لحكَّامه، وهي الكذبة التي كان يرددها النظام الشيوعي.

ويذكر الباحثون أن أول مَن مارس هذه النظريةَ هم الإغريق في مدينتي "أثينا" و"أسبطرة" ولكنها ارتبطت في الغرب بالنظام السياسي والاقتصادي بخلاف نشأتها عند الإغريق، وكذلك طريقتهم تتمثَّل في أنهم كانوا يشكلون حكومةً من جميع رجال المدينة، وأطلقوا عليها اسم "حكومة المدينة"؛ حيث يجتمع رجال المدينة لبحث كل أمورهم، ينتخبون لهم حاكمًا، ويصدرون القوانين في كل قضية تَعرض عليهم، ويتخذون لها حلًّا يكون حاسمًا، ويشرفون جميعهم على تنفيذه بكل دقة وحزم.

واستمروا على هذه الصورة الفريدة إلى أن انتهت "حكومة المدينة" في كلٍّ من "أثينا" و"أسبطرة" حينما غلبهم المد النصراني، وبرز رجال الكنيسة، وقد بقيت تلك الحكومة في ذاكرة الناس.

ثم كان لطغيان رجال الكنيسة فيما بعد الأثر الحافز على الرغبة في العودة إلى تلك الحكومة الغابرة، وظل أهل أوربا يتوقون إلى الخلاص من قبضة رجال الكنيسة تحت أي تيار يسوقهم علَّهم يجدون متنفسًا من أوضاعهم المخزية تحت سلطة الإقطاع والنبلاء والأشراف من البابوات، وكِبار الملاك الظالمين لجميع طبقات الشعوب.

ونجَمَ عن كثرة الضغط الانفجار الذي تمثَّل في "الثورة الفرنسية"، حيث أخذ زعماؤها في التفتيش عن مصدر يحل محل ذلك الحكم البغيض، ولم يكن أيام حكم المدينة غائبًا عن أذهانهم خصوصًا وقد اتصل كثير من الأوربيين بالمسلمين، وتفهموا كثيرًا من تصورات المسلمين ونظامهم الإلهي العادل الذي منعهم من الانقياد له حقدهم الشديد على الدين والمتدينين، ثم رغبتهم في الانفلات من كل قيد، وغير ذلك.

فوقع اختيارهم على ذلك الماضي الجاهلي الإغريقي، ونادوا بتجديده والسير على نهجه؛ كي يبعدهم عن شبح البابوات والأباطرة والإقطاعيين، ومَن جاء بعدهم من الجشعين الرأسماليين، فاتخذوه شعارًا -بغض النظر عن تحقيقه- يحاربون تحته، ومع طموح الشعوب إلى إلى تحقيق هذا الحلم، فقد وجد الدعاة له من المشقة والتنكيل والسجن على أيدي أصحاب السلطة المستأثرين بها، وعلى أيدي البابوات والوجهاء الأثرياء في ذلك الوقت ما لا يُوصف.

وهو أمر بديهي، إلا أن دعاة تلك الديمقراطية لم يضعف عزمهم، ولم تخنهم شجاعتهم، وتم لهم بعد الكفاح المرير الوصول إلى كراسي السلطة، وإخضاع أمراء الإقطاع والمستأثرين بالسلطة إلى الرضوخ للأمر الواقع، وزحزحت البساط من تحت أقدام البابوات أصحاب الحق الإلهي المقدس بزعمهم!! ومن تحت

أمراء الإقطاع الذين كانوا لا يُسألون عما فعلوا والناس يُسألون، وصدق الله تعالى حينما قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وابتلى الله الظالمين بعضهم ببعض، ولا يزال بأسهم بينهم شديدًا وقلوبهم شتى.

نشأة الديمقراطية

الديمقراطية مذهبٌ من المذاهب الضالة الخدَّاعة التي أنتجتها العقلية الأوربية في التفافها على الكنيسة وديانتها الزائفة، والديمقراطية اسم جذاب، إذ يقصدون به العدالة والحرية في الظاهر، مما جعل كثيرًا من المسلمين ومن غيرهم يتأثرون بدعاية المذهب، ظانين أنها تحمل تحت هذا الاسم ما يوحي بظاهره، ولم يعلموا أنها تسمية سراب، وأن المستفيدين منها هم الطبقات العليا -طبقة الحكام والأثرياء- الذين هم نسخة عن الإقطاعيين في الزمن القديم، أو مَن لهم غرض في محاربة الأديان، وخصوصًا الإسلام.

وعلى رأس ذلك ظهور الرأسمالية الصناعية، التي تطلب نشأتها وازدهارها المرور بثلاث مراحل:

١. الثورات الداخلية للقضاء على مراكز القوى التي كانت سائدة في البلاد، والتي تقف في طريق سيطرتها، وهما الإقطاع والكنيسة المحرَّفة، الذين كانوا بالإضافة إلى كونهم إقطاعيين نافس البعض منهم الملوك والأباطرة على امتلاك الاقتطاعات الواسعة، يسيطرون على أمور الحياة، ويقفون في سبيل التقدم العلمي والصناعي اللذين تحتاجهما الثورة الصناعية.
٢. النظام الديمقراطي في الحكم ليوفر لهم الاستقرار بعد تلك الثورات التي بعد أن قضت على الأنظمة القديمة، لم تعد تخدم مصالحهم وخاصةً في القرن

الثامن عشر؛ إذ يقول "ثومبسون" في كتابه (الثورة الفرنسية): "إنه كان عالم اتفق فيه المتنظرون مع السياسيين الواقعيين، على أنه لا يمكن أن يتحقق شيء بعنف الثورة، لا يمكن تحقيقه بالإصلاح القانوني، وأنه كان عالم فيه فجوة عميقة بين طبقة وأخرى، إلا أنه لم يكن هناك حرب طبقات... الكل يرغب بحرية أكبر، ويدين بالولاء لِلكية محدودة الصلاحية تسمح بالمشاركة في حكم البلاد".

٣. الحروب الاستعمارية وغزو البلاد الأخرى واحتلالها؛ لتوفير المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم، ولتأمين الأسواق الدائمة لهذه الصناعات، هذا من جهة، أما من جهة أخرى فالحروب كانت تهدف أيضًا إلى إشغال أبناء الأمة عما كانت تعاني مجتمعاتهم من فجوة طبقية شديدة، ومن فقر واستغلال بشع لهذا الفقر، تبدو آثاره في حياة الطبقة العاملة في المصانع والمدن الصناعية الكبيرة التي كانت تستدعي الثورة عليها.

وهكذا تولت مراكز القوى الرأسمالية بقيادة البلاد الأوربية، ونظام الحكم الديمقراطي فيها توجهه كما تشاء لخدمة مصالحها، وتنظم نشاطات الناخبين والمنتخبين بوسائلها المختلفة؛ لتحقق الفوز لمن تريد، والفشل لمن لا تريد! وهذا هو ذات ما تسعى لتحقيقه في البلاد الأخرى؛ لتتحقق لها تبعيتها بشكل نهائي وإلى الأبد، ولا يعود هناك حاجة للثورات!!

إن إلحاح الدول الأوربية على الديمقراطية، وتحريض الشعوب على المطالبة بها كحقوق إنسانية قبل الاحتلال وهدرها بعده كما حدث في مصر وغيرها من البلاد المحتلة، واستخدامها وسيلة لإسقاط الحكام المعارضين، ولإضعاف الدولة العثمانية وإسقاطها، جعل الزعماء العرب الأوائل والأواخر يفهمونها كذلك وسيلةً للمعارضة، وهدم الأنظمة القائمة لا غير، تنتهي مهمتها عندما تحقق

أغراضها هذه، وليس حلًّا لأزمة الحكم، خاصة وأنه لم يكن هناك قبل الاحتلال وقبل التدخل الأوربي أزمة حكم، ولهذا جعلوا أشخاصهم وأحزابهم فوق هذه الديمقراطية التي يدعون لها مع الداعين، وقدأكد "الأفغاني" هذا الاتجاه عند الزعماء والأحزاب، عندما قال: " تتخيل الأمة من وراء وعود الحزب سعادة ورفاهة وحرية واستقلالًا ومساواة ... فيؤازرون الحزب بكل معاني الطاعة والانقياد والنصرة والتضحية و... إلخ". فإذا ما تم للحزب ما طلبه من الأمة واستحكم له الأمر، ظهرت هنالك في رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية.

وقد انتقل هذا المفهوم للديمقراطية بمبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" عبر المفكرين إلى الأحزاب في البلاد العربية، فلا يهم الحزب من أجل جمع المؤيدين حوله والوصول إلى السلطة ما يشيع عن المنافسين له من الإشاعات الباطلة، ولا ما يكيل من الوعود بالجنة الموعودة، إِنْ هو وصل إلى الحكم! ليصل بعد ذلك بالانتخابات أو بالثورة، وتتبخر الوعود، ولا يبقى غير الحقد على المنافسين، وملاحقتهم وتصفيتهم، وحتى هذه الملاحقة والتصفيات ليست إبداعًا خاصًّا بهذه الأحزاب كما قد يعتقد البعض، فهي إن لم تكن تقليدًا لحال الدول الأوربية المتعددة الأحزاب، والتي يخفُّ التنافس فيها حال فوز أحد الأحزاب، ويبدأ التهيؤ للحملة التالية، إلا أنها تقليد لحال الدول الأوربية ذات الحزب الواحد، فكل يوم تُظهِر الصحف الروسية -مثلًا- فضائح جديدة للتصفيات التي قام بها "ستالين" لخصومه، ولتصفيات مَن جاء بعده من الحكام لخصومهم! هذا غير ما فعله "تيتو" و"شاوسيسكو" وغيرهم.

بل أكثر مفكري النهضة لم يروا الديمقراطية الأوربية على حقيقتها ولا كما هي في الواقع، وإنما دعوا إليها كما توهموها، فنشروا على الناس أوهامهم هذه عنها، فتوهموا أنها تأتي بأكفأ مَن في المجتمع وأحسن رجاله، مهملين القوى الخفية التي تحرك الانتخابات لإيصال رجالها بغض النظر عن كفاءتهم.

والقارئ لسير معظم من أوصلتهم الانتخابات للحكم في أوروبا وأمريكا، ليعجب كيف وصل هؤلاء وبلادهم فيها الكثير ممن هم أكثر كفاءة؟!!

وتوهموا أن الديمقراطية الأوروبية تمنع استبداد الحكام؛ لأنها لا تسمح للوصول إلى السلطة إلا من تشرب السلوك الديمقراطي، بينما يؤكد "سالزبرجر" على أن "ديغول" كان يحكم بأسلوب أوتوقراطي إلا أنه مستبد عادل، وأنه لا يؤمن بالديمقراطية، ويرى أن نظام الحزبين على النمط البريطاني أو الأمريكي متعذر إقامته في فرنسا، وهو مقتنع بحاجة فرنسا إلى حكم قوي؛ لأن صغار الرجال في نظره لا يستطيعون معالجة عظائم الأحداث، ولذلك كان معجبًا بـ"ستالين" ويقول: إنه كان عالمًا ضخمًا، قيصرًا حقيقيًّا، كان يسيطر على كل شيء بنفسه.

وقد توهم المفكرون أيضًا أن الديمقراطية هذه توفر الاستقرار، وتمنع التغييرات العنيفة؛ كالثورات، وتجعل الحكام يعيشون آمنين مطمئنين؛ لأنهم جاءوا إلى السلطة باختيار الشعب لهم، وهو وهم تبدده الاغتيالات المتكررة لرؤساء الجمهوريات؛ وخاصةً في أمريكا معقل الديمقراطية، وتبدده إجراءات الأمن المشددة التي تحيط بالرؤساء.

استطاع المحتلُّ بواسطة الأحزاب -الديمقراطية- أن يكرِّس احتلاله ويجعله أسهل وأرخصَ، كما كان احتلاله بفضل الأحزاب كذلك. وبدلًا من أن تجتمع كلمة الأمة ضد المحتل، تفرقت بين الأحزاب المتنافسة التي اشتدَّت مع الأيام منافستها حتى صارت بعد عام ١٩٢٣ في مصر مثلًا إلى حدٍّ لم يعد فيه هم الأحزاب وهدفهم بلوغ السلطة في البرلمان، بل التنديد بخصومها وإسقاطهم عبر الغوغائية بالتحريض حتى ولو كانت النتائج تناقض المصلحة العامة، وكثيرًا ما انهمك الزعماء السياسيون في تبادل الشتائم والسباب والمهاترات، متهمين بعضهم

البعض بالخيانة والنفاق، مما أدى إلى زعزعة ثقة الناس بجميع الزعماء إلى حد كبير.

ولم تحل سنة ١٩٥٢م حتى كانت المهاترات وفوضى الخلافات الحزبية قد بلغت قمتها، وزاد الأمر سوءًا أن الشعب نفسه قد تقسمته أهواء الأحزاب التي يزعم كل منها أنه ينطق باسمه، وهي جميعًا أحزاب مصطنعة لا مبررَ لوجودها، فكلها قد وجدت لأسباب شخصية، ولا فرق بين برامجها؛ لأنها جميعًا متولدة عن حزب الأمة، وقد بدأت جميعًا مستندة إلى العصبيات وإلى أصحاب المصالح من كبار الملاك.

ولم يقتصر دور الأحزاب على تسهيل الاحتلال وتكريسه، وإنما استمر دورها في خدمة مصالح الاستعمار بعد الجلاء والاستقلال، وذلك إذ صارت تعمل على إدامة التبعية بكل أشكالها للاستعمار، ولم يأتِ عملها هذا بالصدفة !! وإنما جاء نتيجة تخطيط مسبق من قبل المحتل الذي أجرى خلال احتلاله عملية مسح للأفكار والنزعات، والآمال والأهداف السائدة في الوطن، ولما أدخله من أفكار وقيم ونزعات، ولما كان سائدًا في العالم من نزعات عالمية كالاشتراكية والشيوعية والفابية ....إلخ التي كان من المتوقع لها أن تسود، ثم قام بصهر كل ذلك وصبه في القوالب التي يريد، فشجع تأليف الأحزاب المختلفة الأسماء والاتجاهات، منها ما هو قومي، ومنها ما هو اشتراكي، ومنها ما هو ديمقراطي، ومنها ما هو شيوعي .... إلخ

ولكن الحزب القومي هذا يدعو إلى ذلك المفهوم من القومية الذي يريده الاستعمار والبعيد كل البعد عن كل مقومات الأمة، وكل ما يشكل شخصيتها.

وكذلك هو حال الأحزاب الاشتراكية، فهي رغم كونها فكرة عالمية، فهي الأخرى مرتبطة بهذا أو ذاك من الأحزاب الاشتراكية في هذه أو تلك من الدول

المستعمرة، تستمد منها الوحي والدعم معًا، وحتى الأحزاب الشيوعية، وبالرغم من وجود النظام الماركسي الروسي الذي ترتبط به الشيوعية العالمية والأحزاب الشيوعية في العالم، والذي يعتبر الأب الروحي لها، إلا أن ارتباط الأحزاب الشيوعية في الدول العربية بروسيا يمر خلال الأحزاب الشيوعية في دول الاستعمار هذه التي أنشأتها ودعَّمتها منذ البداية، إذ يذكر مجيد خدوري في كتابة (الاتجاهات السياسية في العالم العربي) مثلًا أن الحزب الشيوعي اللبناني كان يتلقى دعمه من الحزب الشيوعي الفلسطيني الذي كان مقتصرًا على الجالية اليهودية، ومقاطع من قبل العرب، ولكن بعد تأسيس الحزب الشيوعي السوري في أوائل الثلاثينيات، اتجه الحزبان السوري واللبناني إلى الحزب الشيوعي الفرنسي؛ طلبًا للمساعدة والتوجيه.

وكل هذا تخطيط من أجل ما بعد الجلاء، فأي حزب يسيطر على الساحة السياسية في البلاد بعد الجلاء، لا يعدم الاستعمار من أن يجد من بين صفوفه من يواليه ويحقق مصالحه، ويضمن استمرار تبعية البلاد له.

وليس هذا فقط، وإنما عمل الاستعمار أيضًا -وخاصة الإنكليزي- على بناء زعامات وطنية يقوم بتربيتها وإبرازها وإشهارها، كشخصية عبقرية فذة، مؤكدًا على وطنيتها من خلال ما يرتبه لها من مواقف وطنية مناهضة للاستعمار فيلتف حولها الوطنيون، وتنال دعمًا شعبيًّا كبيرًا، فتصبح هذه الزعامة بفضل هذه المواقف التمثيلية المرتبة، والحزب الملتف حولها هي القوة الغالبة. وبهذا يهيئهالتسلم دفة الحكم عندما تزف ساعة الرحيل بعد أن ينتهي دور الاحتلال بتحقيق أهدافه.

فالاستعمار لا يمكن -كما يقول مالك بن نبي: "أن يلغي من حسابه مبدئيًّا احتمال الاستقلال... إن الاستعمار لواثق اتجاه هذا الاحتمال، ولمواجهته في

الوقت اللازم. ولذلك يهيئ لمن يُسلم البلاد، ويقول عن حال الجزائر: "إن الصراع لم يكن صراع أفكار، وإنما صراع مصالح تشرف عليها السلطات العليا، متظاهرة بمقاومته أحيانًا، عندما تعلن غضبها على هذا العدو لفرنسا، أو ذاك حتى يرى الشعب المغرور في تلك العداوات بطولات توجب عليه السمع والطاعة لأصحابها.... وليس أدل على ذلك من الكيفية التي ظهر فيها سعد زغلول وأصبح أكبر زعيم وطني في مصر، وهو الذي استوزر لأول مرة وهو شاب صغير بترشيح من "بلنت" و"كرومر" وأصبح وزيرًا مزمنًا في الوزارات المختلفة والمتعاقبة في الدولة، ينتقل من وزارة إلى أخرى، منفذًا للإنكليز كل استبدادهم، ومكرسًا احتلالهم لمصر !!".

فمن المعروف أن الوزير آنذاك هو المنفذ لسياسة الإنجليز، وقد اعترف بذلك اللورد "ويفل" الذي قال عن كيفية الحكم في مصر: "إن الإنجليز ليس لديهم سلطات تنفيذية بأنفسهم ولكنهم يُباشرون التنفيذ عن طريق الوزراء المصريين..."، ولما أنشأ كتشنر عام ١٩١٣ الجمعية التشريعية استقال سعد وانتخب رئيسًا لها، وتحول إلى معارض للإنكليز بقدرة قادر !! وتطرف سعد بعد ذلك لينافس الحزب الوطني المتطرف ضد الإنكليز، إلا أنه احتوى هو وجماعته من أعضاء حزب الأمة هذا التطرف ضد الإنكليز ووجهوه ضد الخديوي وإن عارضوا الإنكليز كما يقول محمد محمد حسين: فهم لا يعارضونهم إلا في تسامحهم مع الخديوي.

وكون الديمقراطية والحزبية نبتة أجنبية لا يحتاج منا إلى دليل، فهي لم تدخل كفكرة وكممارسة إلا مع أوائل الغزو الأوربي الذي تمثَّل أول الأمر بالمدارس الأجنبية، والإرساليات التبشيرية، ومن ثم الماسونية وما نسخ عنها من الأحزاب، فالعراق مثلًا لم يعرف الحياة الحزبية العلنية إلا في عهد الانتداب

الإنكليزي عام ١٩٢١-١٩٣٣م، وتألفت عشرة أحزاب، لم تدم طويلًا حتى أن مواد القانون الأساسي الذي نص على أن السيادة للأمة، ووضع موادًّا لحماية حقوق الشعب الأساسية كانت مترجمة عن الإنكليزية، وأن القانون وضع نتيجة معاهدة فرضتها بريطانيا على العراق.

ولم يُدخل الإنكليز الديمقراطية إلى البلاد حرصًا على مصالح الأمة وحكمها لنفسها كما قد يعتقد البعض، بل العكس؛ حتى يحكموا سيطرتهم عليها، ويسيروها باسم الديمقراطية كيفما شاءوا. أدخلوها؛ لأنها مهزلة ليس إلا، وقد وصفها السر "أرنولد ويلسن"، نائب الحاكم المدني في العراق سنة ١٩١٨-١٩٢٠م كذلك؛ إذ كتب مقالة عام ١٩٣٦م إثر انقلاب بكر صدقي في العراق قال فيها: "حررناهم من حكم الأتراك الخفيف الوطء والكسول حينما احتللنا العراق، بقصد منع الألمان من الوصول إلى الخليج، ولقد حملناهم على تبني نظام برلماني، بمجلسين أعلى وأدنى، وانتخابات دورية، في وقت كان الأتراك والإيرانيون قد ألغَوا فيه برلماناتهم باعتبارها سببَ دمارهم، لقد أخذنا العراق من الأتراك الذين لهم تقاليد الحكم وخبرته، وأودعناهم أناسًا ليس لهم حظ من أيهما".

وبعد أن يلوم بريطانيا يقول عن الانقلاب: "وهذا الانقلاب يعني نهاية مهزلة الحكومة البرلمانية في العراق، ومهزلة الديمقراطية التي أرسى دعائمها الاستعمار الإنكليزي تظهر في الاستفتاءات التي أجراها في أول أمر الاحتلال؛ ليعطي الشرعية لأعماله. فقد أُجري استفتاء شعبي شبه رسمي في العراق، وكان هناك مرشحان لحكم العراق، وكانت إنكلترا قد وعدت أن تجري انتخابات عامة حرة في البلاد لاختيار مجلس نيابي يناط به تقرير دستور للبلاد، واختيار رئيس الدولة المقبلة، وكانت الحكومة الإنكليزية تعلم أنه سوف لن يختار هذا المجلس

مرشحها، فقررت فرضه على البلاد، فقامت قوة باختطاف المرشح الآخر، بناءً على أوامر "كوكس" بينما كان ينزل ضيفًا عليه في منزله، وحُمل إلى عربة مدرعة توجهت به إلى زورق نقله إلى البصرة، ومنها إلى السجن في سيلان".

ونظم "بيرس كوكس" هذا استفتاء شعبيًّا يقوم على سؤال وحيد يجعل البديل هو استمرار الحكم الأجنبي مما اضطر المستفتون إلى قول: "نعم" !! فبريطانيا لم تحكم البلاد العربية التي احتلتها بشكل مباشر، بل من خلال ما توجده من تنظيمات، ومنها الأحزاب، والمجالس النيابية. وقد ذكر "خدوري" ما يؤكد هذا الأمر إذ قال: "أصرت فرنسا بصفتها السلطة المنتدبة على ضرورة تضمين دستور كل من سوريا ولبنان موادًّا تشترط موافقتها -فرنسا- المسبقة على كل إجراء رسمي، أما بريطانيا فقد آثرت إخضاعَ الشكل للمضمون، فلم تشترط مثل هذه السلطات، بل فضلت الاعتماد على نفوذ غير مباشر عوضًا عن النفوذ المباشر".

أما بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أن انتصرت الديمقراطية الأوربية متمثلةً بالحلفاء على جبهة المحور، أو عزت الأولى إلى الأنظمة السائرة في ركابها بالسماح لشعوبها بممارسة الديمقراطية كأسلوب لإيقاف الاتجاهات التبشيرية الشيوعية، والتي كان نشاطها قد تزايد بفضل دعم الحلفاء لها خلال السنوات الآخرة من الحرب من أجل الاستفادة من تنظيماتها في الدعاية للحرب الاستعمارية هذه، وجعلها حرب تحرير وديمقراطية، ولكن بعد أن حطت الحرب أوزارها، وتقاسم الحلفاء من جديد مناطق النفوذ، ظهر التخوف من انتشار الشيوعية من جديد.

إن الديمقراطية دخلت البلاد العربية مشوهةً وكوسيلة لتكريس الاستعمار لا غير. لقد فرضت الدول الأوربية على الدول العربية نظامها الديمقراطي، ولم تدع للعرب

حرية اختيار نظامهم السياسي الذي ينسجم مع ظروفهم الخاصة بهم، وجعلت الزعماءَ المحليين الذين وضعتهم على رأس السلطة يتبنون مؤسساتها هذه:

المؤسسات الفرنسية في الدول الخاضعة لفرنسا، والمؤسسات البريطانية في الدول الخاضعة للنفوذ البريطاني، بغض النظر عن ملاءمة هذه المؤسسات لحال الدول العربية وأوضاعها المحلية. وفوق كل ذلك لم تسمح للمؤسسات التي أوجدتها، هذه أن تعمل بحرية؛ بحيث تتمكن من تكييف نفسها للأوضاع القائمة في البلاد؛ بل كثيرًا ما كانت تفرض القيود عليها كلما لاح من هذه المؤسسات ما يناقض مصالحها، فنجد بريطانيا مثلًا في الوقت الذي تؤيد فيه سيطرة البرلمان على الحكومة ضد رغبة الملك، كان قناصلتها في العراق وغيره يفضلون تعزيز سلطة الحكام، وإعطائهم حق النقض لقرارات البرلمان. هذا غير أن النماذج التي طبقتها الدول الأوربية من مفاهيم الديمقراطية في البلاد العربية كان مهلهلًا، إذ هي فرضت على هذه البلاد ما شاءت من أنظمة ودساتير، وحتى عندما كانت تجري استفتاء على أمر ما، كانت تدبره بشكل يجعل نتيجته توافق ما كانت قد قررته مسبقًا ويحقق مصالحها، وكانت تعامل الحكام بصَلَف وتفرض عليهم إرادتها.

أهم مبادئ الديمقراطية

يتميز النظام الديمقراطي بمجموعة من الخصائص الأساسية التي لا قيامَ له بدونها، بحيث يصدق القول على كل نظام لا توجد فيه إنه نظام غير ديمقراطي.

وأبرز هذه الخصائص الأساسية وأظهرها أمران هما:

١. سيادة الشعب أو الأمة.

٢. الإقرار بحقوق الأفراد وحرياتهم وضمانها.

الأساس الذي بُنيت عليه نظرية السيادة:

نظرية السيادة التي هي لُبّ وحقيقة وأصل الديمقراطيات الحديثة، بما انتهت إليه من الشرك بالله العظيم، لا يمكن أن تصدر إلا عن أساس إلحادي كفري.

وهذه الحقيقة تكشف عنها السطور التالية:

ولنعد إلى بدايات هذه النظرية التي تشكّلت في الغرب النصراني، الذي كان يدين بعقيدة محرَّفة وشريعة مبدّلة، حيث كانت ملوكهم تحكم فتظلم، وتستبد، بناءً على أنهم أصحاب السيادة بمقتضى التفويض الإلهي لهم في ذلك، وقد ساعد الملوك على ذلك نظرية التفويض الإلهي التي اخترعت لتبرير سلطانهم المطلق، والتي تقول: إن الملوك يستمدون سلطانهم من تفويض الله لهم، سواء كان تفويضًا مباشرًا أو غيرَ مباشرٍ.

وفي ظل هذا الجو المملوء بظلم الملوك وطغيانهم، لم تكن الكنيسة -الممثلة للدين عند النصارى- بما حدث فيها من فساد وإفساد، وانحراف وتحريف، بقادرة على إيجاد مخرج صحيح للناس، أو حتى تقليل ظلم الملوك وطغيانهم، والحد من سلطانهم؛ لأنها كانت هي ركنًا من أركان الظلم والطغيان.

ومن ثمَّ بدأ الناقمون على هذه الأحوال يفكرون -بعيدًا عن الدين وعمن يمثلون الدين عندهم- في طريقة يسلبون بها كل سلطان الملوك، ولم تكن طريقتهم في هذا إلا استبدال كفر بكفر؛ حيث قالوا: إن السيادة لا تكون لشخص الملك، وإنما تكون السيادة للشعب كله، فالملوك والناقمون عليهم كلاهما يقول بنظرية السيادة. أما الملوك فيجعلونها لأنفسهم، والأساس الذي بَنَوْا عليه ذلك القول هو نظرية التفويض الإلهي.

وأما الناقمون فيجعلون السيادة للشعب، وقد كان الأساس الذي بنوا عليه ذلك القول هو: نظرية "العقد الاجتماعي".

فماذا تعني نظرية "العقد الاجتماعي"؟

اشتهر من المتكلمين بهذه النظرية ثلاثة أسماء: "توماس هوبز"، و"جون لوك"، و"جان جاك روسو". ومن غير تعرُّض لتفصيلات واختلاف وجهات نظرهم في بعض جوانب هذه النظرية، فإن جوهر النظرية يقوم على تصور أن الناس في أول أمرهم كانوا يعيشون حياتهم الفطرية البدائية، وكانت حياة غير منظمة، فلم يكن لهم تشريع يحكمهم، ولا دولة أو مؤسسة تنظم معاملاتهم وترعى شئونهم، وأن الناس في طور لاحق من حياتهم احتاجوا إلى التشريع الحاكم، والدولة التي تنظم أمور حياتهم، وأنهم لأجل ذلك عقدوا فيما بينهم عَقدًا لإقامة السلطة التي تحكمهم، وتنظم شئونهم ومعاملاتهم، وتحفظ عليهم ما بقي من حقوقهم وحرياتهم، والسلطة حسب هذا التصور قامت بناءً على الإرادة الشعبية، لذلك كان الشعب هو صاحب السيادة.

هذا هو جوهر نظرية "العقد الاجتماعي"، فماذا يعني ذلك؟!

يعني ذلك: أن هذه النظرية تنطلق من تصور كفري إلحادي؛ لأن هذه النظرية إما أنها تصورت الناس وكأنهم وُجدوا من غير خالق لهم، وأنهم وُجدوا هكذا غير منظمين بغير شريعة هادية أو قانون حاكم، وإما أنها تعترف بوجود خالق، لكن الخالق -في هذه النظرية- لا فعل له إلا مجرد الخَلْق، أما أن يرسل مِن عنده رسلًا إلى الناس تعلمهم وترشدهم وتهديهم، وتأمرهم بالخير وتنهاهم عن الشر، وتنظم شئونهم ومعاملاتهم، فهذا ما لا وجودَ له في هذه النظرية. ولو كان ذلك موجودًا فيها ما احتاجوا إلى هذا العقد الذي عقدوه.

هذا بالإضافة إلى أن من ضمن مفاهيم الديمقراطية كما نشرها الأوائل أمثال "الأفغاني" و"عبده" و"الكواكبي" وغيرهم واقتبسها عنهم المعاصرون هي: أن أفضل الخلق وأعظم الوطنية هو أن تُعارِض الحكام ولا تقرب مجلسهم !! مما جعل النواب يفهمون أن مهمتهم إن كانوا وطنيين شرفاء أن يتناحروا مع أعضاء الحكومة، أو أن أفضل طريق لعرض وطنيتهم وتحقيق الشهرة لأنفسهم، هي المعارضة لكل ما تفعله الحكومة بالحق أو بالباطل !! ولذلك لم تقتصر مسألة الشتم والضرب على بعضهم البعض، وإنما صار بينهم وبين الوزراء أيضًا كما حدث في مجلس النواب المصري مؤخرًا ومر ذكره.

وهذا يجعل القول: إن الديمقراطية الغربية إن طُبقت في البلاد الأخرى وخاصةً البلاد النامية، تصبح أداة هدم هو الحقيقةُ.

ثم إن الديمقراطية ليست هدفًا كما تصورها الدعاة وتبنوها وصوروها للناس، وكما دعاهم إليها الأوربيون قبل ذلك، حتى صار كل حزب يزين بها اسمه أو برنامجه على اعتبار أنه سيحقق الديمقراطية، وكل حكومة تدعي في برنامجها ذلك، وكل دولة تجعله شعارًا له وتلحقه باسمها.

إن الديمقراطية الأوربية هي حلٌّ لمشكلات سياسية واجتماعية عانت منها مجتمعات أوربا، وتطلبتها الظروف السائدة فيه والخاصة بها، التي لا تنطبق على كل المجتمعات الأخرى.

تابع: الديمقراطية

عناصر الدرس

حكم من يتمسك بالديمقراطية الغربية، وحكمها في ذاتها

نكمل الكلام على ما يتعلق بالديمقراطية ؛ وذلك ببيان حكم مَن يتمسك بها ، وحكمها في ذاتها ، وموقف الإسلام منها.

حكم مَن يتمسك بالديمقراطية الغربية :

أما منزلتها في الإسلام :

فقد ظهر أن بعض المنخدعين بها قد تصور أنه لا فرقَ بين الديمقراطية وبين الإسلام ، بل ويزعم أن مبادئ الديمقراطية هي نفس المبادئ التي دعا إليها الإسلام ، ولا شك أن من قرأ ما كتبه علماء المسلمين عن الديمقراطية سيلمس الفرق واضحًا لا خفاء فيه ، والقائل بعدم الفرق إما أن يكون جاهلًا ، أو مخادعًا ، أو ملحدًا مغالطًا. ومن الفوارق الواضحة أن أهداف الديمقراطية وحلولها للمشكلات كلها سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية ، أو غير ذلك ، هي غير الأهداف وغير الحلول التي جاء بها الإسلام ، ولا بد أن يحصل الاختلاف بكل بساطة ووضوح ، حلول الإسلام دائمة وعامة ، وحلول الديمقراطية مؤقتة ولمصالح.

كما أن تعاليم الإسلام جاءت من رب العالمين عالم الغيب والشهادة ، بينما تعاليم الديمقراطية لم تقم إلا بتجارب البشر ، وبالاحتجاجات ضد طغيان السلطات الرأسمالية ، وقبلها الإقطاع وبالمظاهرات الصاخبة والاضطرابات المتوالية ، إلى أن ترقوا بمفهوم الديمقراطية إلى ما وصلوا إليه في ظاهر الأمر ، بينما

الأمر في الإسلام يختلف تمامًا. ذلك أن المسلمين ليسوا في حاجة إلى سلوك مثل تلك المهام، ولا يحتاجون إلا إلى تطبيق الشريعة الإسلامية؛ ليجدوا أنفسهم في غاية السعادة، وفي غاية التكافل الاجتماعي بمعناه الحقيقي، وفي أتم ما يكون من الأحكام العادلة الرحيمة التي يطبقها المسلم على نفسه قبل أن يُطالب بها غيره.

ومَن تصور هذا الفرق هان عليه معرفة الفرق بين الإسلام وبين الديمقراطية، كما أن تعاليم الإسلام تجعل المرءَ يشعر ويحس بمسئوليته أمام الله تعالى، وتوجد في داخل نفسه المراقبة الذاتية لله تعالى التي لا تصل إليها أي قوة غير قوة مراقبة الله -تبارك تعالى، التي يتغير بموجبها سلوك الإنسان نحو معاملته لربه، ومعاملته لإخوانه المسلمين، بل ومع غير المسلمين في تنظيم بديع لن يصل إليه، بل ولن يقاربه أي تنظيم بشري، وهو عرضة للنقض والتغيير بين كل فترة وأخرى، وفرق بين سلوك ينتج عن مراقبة الله وخوفه، وسلوك ينتج عن غيره.

فما من شخص يزعم أن الديمقراطية هي التي تحقق السعادة للشعوب، أو أنها أرحم من التعاليم الربانية، ما من شخص يزعم ذلك إلا وتجده إما جاهلًا جهلًا مركبًا، وإما ملحدًا لا يعرف عن حقيقة الإسلام شيئًا، أو مخدوعًا بشعارات الديمقراطية البراقة لم يتعظ بما يشاهده من حال بُلدان دعاة الديمقراطية.

كما نجد كذلك أن تعاليم الإسلام لا تجيز الفصل بين الدين والدولة، بل الدين الإسلامي هو الشامل والمهيمن على كل أمور الحياة، وما لم تصدر عنه فإنها تعتبر من الضلال، ومن اتخاذ البشر بعضهم بعضها أربابًا من دون الله تعالى، بينما تعاليم الديمقراطية قائمة على الفصل بينهما، فرجال الدين مهمتهم تنحصر في أماكن العبادة والمواعظ الدينية، ونحو ذلك، ورجال الدنيا لا حد لمهماتهم، فَهُم المشرعون والمنفذون، ومعنى هذا أن الإسلام والديمقراطية الغربية ضدان هنا، فأين التوافق الذي يدعيه المغالطون؟!!

كما أن الديمقراطية لا تعتمد الحكم بما أنزل الله وتنفر منه ؛ لأنها في الغرب قامت من أول يوم على محاربة الأديان، وكل شيء فيها يتصل بها، وأن الحكم فيها يجب أن يتم على تشريع الشعوب والبرلمانات، ورؤساء الدول وقوانينهم، مقدمة على ذلك الحكم بما أنزل الله -تبارك تعالى ؛ بينما الإسلام يعتبر هذا خروجًا عن الدين، وكفرًا وظلمًا وفسوقًا ومحادةً لله، وردًّا لشرعه، خصوصًا ممن يعلم بهذا الحق ولكنه يرفضه ويفضل حكمَ الجاهلية عليه، كما أن في الديمقراطية الوصول للحكم مشاع لكل أحد، ومن حق المرأة أن تصل إلى القضاء والتمثل الدبلوماسي، والجندية والرئاسة، وغير ذلك، بينما الإسلام يجعل الشخص المناسب في المكان المناسب، فجعل للرجال مجالاتٍ وجعل للنساء مجالاتٍ أخرى تناسبها.

ولهذا، فإننا نجده لم يجز للمرأة أن تتولّى الإمامةَ العظمى لأمور كثيرة تُذكر في كتب العلم، ولا يجوز لها مزاحمة الرجال في حق الانتخابات.

هل المسلمون في حاجة إلى الديمقراطية الغربية؟

إن الجواب عن هنا هذا السؤال لا يحتاج إلى تفكير من قبل أي مسلم لم تدنس فطرته الشبهات. لقد قامت الحياة في الدول الغربية على المناداة بالديمقراطية سلوكًا ومنهجًا في كل شئون حياتهم، وصار كل سياسي يتباهَى بتطبيقها، والرغبة في تصديرها، والواقع أنه قد يكون للغرب ما يبرِّر كل هذا السلوك ؛ لأنهم ليسوا على شيء، فلم يعرفوا من النظم إلا هذا النظام الذي اكتشفوه وفرحوا به ؛ لعدم معرفتهم بما هو أفضل منه، وهو الشرع الحنيف الذي أكمله الله ورضيه لنفسه ولعباده دينًا وسلوكًا .

وإذا كان للغرب والنظم الجاهلية ما يبرر هذا السلوك، فإنه لا مبررَ لانسياق الكثير من النظم الإسلامية، ومن بعض المفكرين من المسلمين إلى اتباع أولئك بعد أن من الله عليهم بأفضل دين، وأكمله، وأفضل نظام اجتماعي وأعدله: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وأحكامه غاية العدل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

يَتركون هذا المعنى الفياض ثم ينساقون إلى نظام ثبت فشله، ويتركون نظامًا صالحًا إلى يوم القيامة مضى عليه سلفهم، فكانوا مصابيح الدجى ومشارق الأنوار.

إن الشرع الإسلامي يستهوي بعدله ورحمته وشموله حتى أعداء الإسلام، فإذا بهم ينساقون إليه مذعنين، بل ويصبحون من جنوده البواسل حينما قارنوا بين ما جاء في الإسلام وبين النظم الجاهلية التي تقود البشر من شقاء إلى شقاء؛ لأنها من صنع البشر الذين قصرت أفهامهم والتبست عليهم الأمور، وهؤلاء حجة على أولئك الهاربين إلى الديمقراطية دون أن يعلموا شيئًا عن الإسلام، وعن تعاليمه الشاملة.

لقد انبهر الكثير من المسلمين ببريق الحضارة الغربية وصناعاتها المادية، فظنوا أن ذلك إنما هو بسبب ما عندهم من الأنظمة، ولم يفطنوا إلى أن سبب ذلك إنما يعود إلى نشاط الغرب، وشحذ هممهم، وإصرارهم على اكتشاف خيرات الأرض، والاستفادة منها، وطَرْقِهم لآلاف التجارب دون كَلل أو ملل، مهما واجهتهم من المصاعب، كلما فشلوا في تجربة صناعية زادهم ذلك إصرارًا على إعادة الكرة، والله ﷻ لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، فأعطاهم الله من الدنيا على قدر عزمهم، بينما المنتظرون من المسلمين للحضارة الغربية يغطون في سُباتهم.

فلما أفاقوا على هدير مصانع الغرب وإنتاجهم ألقوا باللائمة على الإسلام ظلمًا وزورًا، وظنوا أن هذا التبرير يبقي على ماء وجوههم، فإذا بهم لا ظهرًا أبقوا، ولا أرضًا قطعوا، فلا هم بقوا على إسلامهم وتلافوا أخطاءهم، ولا هم لحقوا بالدول الغربية في إنتاجها المادي. وكان يجب عليهم أن يعرفوا أن الإسلام الذي عاش عليه ملايين البشر في القرون الغابرة على أحسن حال وأعدل نظام، لا يزال كذلك على مر الدهور، عاش عليه البشر قبل أن يظهر قرن الديمقراطية التي يريدون إحلالها محله، والتي قامت من أول أمرها على محاربة الدين وخداع الجماهير للوصول إلى الحكم بأي ثمن يكون، واعتبار ذلك فوزًا أو مغنمًا، بينما الإسلام لا يجيز الخداع ولا النفاق، ولا يجيز الاحتيال على الناس وابتزازهم، لا في دينهم ولا في دُنياهم، بل يعتبر الوصولَ إلى سُدة الحكم أمانةً عظيمةً، حملها ثقيل، ومزالقها خطيرة، ولا يعتبر الوصول إليه فوزًا كما نسمعه في تطالب الديمقراطيين للوصول إلى الحكم.

إن الحاكم في الإسلام مؤتمن على مصالح المسلمين وليس له أكثر من كونه منفذًا لا مشرعًا؛ لأن التشريع إنما هو لله ﷻ، وبذا يضمن الحاكم والمحكوم -على حد سواء- الخوف من الوقوف في الجور، أو انتشار الفساد، وتفكك المجتمع، والفُرقة التي تنشأ في الغالب من البُعد عن هدي الله ﷻ وهدي نبيه محمد ﷺ، وهذا بخلاف الديمقراطية التي يكون الحاكم فيها مشرعًا من دون الله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠]. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

فإذا طَبق الشعب والحاكم هذه المفاهيمَ كانوا صخرةً قويةً تتحطم عليها كل آمال الحاقدين وأعداء المِلة، وعاشوا في سعادة ووئام وكأنهم أسرة واحدة.

إذا تبيّن هذا، فليُعلم أنّ ما يُسمى "الديمقراطية" بمعناها الذي أراده مخترعوها، والدعاة إليها - فقد يُراد بإطلاقها -جهلًا- أنها ما يُضاد الاستبداد فحسب- هي أعظمُ مناقضٍ للشريعة، والداعون إليها هم الدعاة إلى أبواب جهنم؛ لأنهم هم الداعون إلى رفض الحكم بما أنزل الله تعالى، المبتغون حكمَ الجاهلية، ذلك أن الديمقراطية تعني اتخاذَ أحكام البشر باعتبار أصوات غالب ممثليهم شريعةً بديلةً عن شريعة الله تعالى، مهيمنةً بأحكامها على الأقوال، والأفعال، والأفكار، وجميع السلوك الإنساني، والعَلاقات الدولية الداخلية والخارجية، لها أنْ تحلّ ما حرّم الله، وتحرّم ما أحلّ الله تعالى !!

فهي أمّ القوانين التي تخلقها إفكًا، وهي منبع الطواغيت التي تحدثها باطلًا، وهي مصنع الجاهلية المعاصرة التي تصدّ عن سبيل الله تعالى، وتحارب شريعته.

والمقصود: أنّ سدنة هذا الصنم قالوا: "إنّ التشريعات التي تنتج عن حكم الأغلبيّة مقدمة على كلّ حكم آخر حتى شريعة الله تعالى، وأنها مُلزِمة للشعوب، فهي شريعة كاملة، وأحكام نافذة، والخارج عليها مجرم، والمتمرد عليها خائن، والساعي في تعطيلها مرتد يحكم عليه أحيانًا بالإعدام، أو الحبس المؤبد، أو النَّكال الشديد"، ثم جعلوا لهذا الدين خبراء يطوّرونه، أطلقوا عليهم اسم "فقهاء القانون" كما أطلقوا على آراءهم " الفتوى"؛ إمعانًا في المضادة لشريعة الله -تبارك تعالى- واستبدالها بغيرها.

وبهذا يتبين أن القوانين الوضعية ترجع إلى أصل عَقَدي، هو دين الديمقراطية، تنبثق منها على أساس اعتقاد أنّ الحكم بين الناس، والتشريع لهم، ولا يرجع فيه إلى الله تعالى خالق البشر، بل إلى البشر أنفسهم.

نقد الديمقراطية، وبيان موقف الإسلام منها

أولًا: نقد الديمقراطية:

للديمقراطية عيوب في ذاتها، منقوضة بالأدلة الشرعية، وهذه العيوب والمثالب كثيرة، منها ما يلي:

أولًا: لا تنظر الديمقراطية إلى حقوق الله على عباده، ولا تنظر بعدل إلى الحقوق العامة، وحقوق المجتمع على الأفراد، فهي منحازة بإسراف لجانب الفرد وإطلاق حريته.

ثانيًا: تخضع الديمقراطية لدى وضع الدستور والقوانين والنظم لأهواء أعضاء المجالس النيابية، واللجان التي تفوض في وضعها، أو وضع مشروعاتها. وغالبًا ما يحرك هذه المجالس أفراد معدودون، ويوجهونها حسب أهوائهم، وبوسائلهم وأحابيلهم الشيطانية. وتظفر بنصيب الأسد فيها غالبًا بعض الطبقات الاجتماعية التي تسخر التطبيقات والمؤسسات الديمقراطية لصالحها، أو يظفر بنصيب أسد فيها الأفراد المحركون لها، والموجهون لمسيرتها وآرائها ومناقشاتها.

وتتدخل عناصر الحيلة، والذكاء، والمال، والشهوات، ومطامع المناصب، وشراء الضمائر، وتزوير إرادات الجماهير بأساليب شتى، في استغلال المجالس وتجميع الأصوات، وتحريك الجماهير الغوغائية، والتغشية على الأفكار والبصائر، وإبعاد كل رأي صحيح عن مجال رؤية الجماهير له، وصناعة الضجيج الإعلامي المشوه بالحقائق والمزين للباطل.

ثالثًا: إن الديمقراطية باعتبارها تنادي بأن الدين لله والوطن للجميع، وأن شأن الأقليات في الدولة كشأن الأكثرية في الحقوق والواجبات، تمكِّن الأقليات من

التكاتف والتناصر؛ لاستغلال الوضع الديمقراطي ضد الأكثرية ومبادئها وعقائدها ودينها. وتمكنها أيضًا من التسلل إلى مراكز القوة في البلاد، ثم إلى طرد عناصر الأكثرية رويدًا رويدًا من هذه المراكز بوسائل الإغراء، وبالتساعد والتساند مع الدول الخارجية المرتبطة بالأقليات ارتباطًا عقديًا أو مذهبيًّا أو سياسيًّا أو قوميًّا، أو غير ذلك.

رابعًا: الديمقراطية وفق مبادئها المعلنة حقل خصيب جدًّا لتنمية أنواع الكذب والخداع والمكر والحيلة والدس الخبيث، والغش والخيانة، والغدر والغيبة، والنميمة والوقيعة بين الناس، وتفريق الصفوف، ونشر المذاهب والآراء الضالة الفاسدة المفسدة، إلى سائر مجمع الرذائل الخلقية الفردية والجماعية.

خامسًا: الحريات الشخصية في الديمقراطية حريات مسرفة، تفضي إلى شرور كثيرة وانتشار فواحش خطيرة في المجتمع، ومآلها إلى الدمار الماحق.

سادسًا: الحريات الاقتصادية في الديمقراطية حريات مسرفة، تُفضي إلى عدوان المحتالين على حقوق الشرفاء، ونشر الاستغلال والاحتكار، وحيل سلب الأموال، وتمكين الغشاشين والمقامرين والمرابين والمحتكرين والرائين والمحتالين ومستغلي السلطة الإدارية أو العسكرية من تحقيق مكاسب مالية وفيرة، بالظلم والعدوان وهضم الحقوق، وأكل أموال الناس بالباطل، والغلول في الأموال العامة.

سابعًا: حق كل مواطن في في المساواة السياسية في الحكم، دون شرط الإسلام والعدالة الشرعية والأهلية للمشاركة في الرأي، أو المساهمة في الاقتراع، أو الانتخاب، أو الاختيار، يُفضي إلى نسف دعائم الدولة الإسلامية، وجعلها علمانية غير دينية، أو تمكين الأرذال من اعتلاء سلطة الحكم، وتحويل الدولة إلى دولة فساد وإفساد، وفسق وفجور، وفحش في الأقوال والأعمال، وشر كبير.

ثامنًا: حق الفرد في ترشيح نفسه للحكم في الديمقراطية، يجعل طلاب مغانم الحكم يتنافسون عليه، ويتقاتلون من أجله، ويسلكون مسالك كثيرة غيرَ شريفة للوصول إليه، ويبذلون أموالًا طائلة؛ أملًا بأن يعوضوها أضعافًا مضاعفةً متى ظفروا بالحكم.

ثانيًا: موقف الإسلام من الديمقراطية:

قبل البدأ ببيان موقف الإسلام من الديمقراطية، لا بد أن نلقي الضوء على بعض جوانبها؛ زيادةً على ما سبق:

واعلم بأن العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية هي علاقة الفرع بأصله، أو علاقة الثمرة الخبيثة بالشجرة التي أثمرتها، فالعلمانية هي "مذهب من المذاهب الكفرية التي ترمي إلى عزل الدين عن التأثير في الدنيا، فهو مذهب يعمل على قيادة الدنيا في جميع النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأخلاقية، والقانونية وغيرها، بعيدًا عن أوامر الدين ونواهيه". والديمقراطية تقوم أساسًا على إسناد السيادة أو السلطة العليا للأمة أو الشعب، وهذا يعني أن الكلمة العليا في جميع النواحي السياسية إنما هي للأمة أو الشعب.

وعلى ذلك يمكننا القول:

إن الديمقراطية مذهب من المذاهب الفكرية التي ترمي إلى عزل الدين عن التأثير في جميع النواحي السياسية، فالديمقراطية إذن هي التعبير السياسي أو الوجه السياسي للعلمانية، كما أن الاشتراكية والرأسمالية تعبير اقتصادي عن العلمانية، وهذه العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية نستطيع أن ندركها بكل سهولة ويسر، إذا علمنا أن نظرية "العقد الاجتماعي" التي تمثل الأساسية

الفلسفية لنظرية السيادة التي تقوم عليها الديمقراطية، كانت في نفس الوقت تمثل الركن الأساسي في فكر زعماء الثورة الفرنسية التي أقامت دولة علمانية لأول مرة في تاريخ أوربا المسيحية.

وإذ قد تبينت لنا حقيقة الديمقراطية، وحقيقة الأصول والأسس الإلحادية التي انطلقت منها الديمقراطية، وتبين لنا ما اشتملت عليه من الكفر الغليظ، والشرك بالله العلي الكبير، إذ تبين لنا حقيقة ذلك بكل وضوح وجلاء، يصبح من الأمور المنكرة جدًّا أن تسمع مَن يقول: "إن الديمقراطية من الإسلام، أو إن الإسلام نظام ديمقراطي، أو الديمقراطية الإسلامية، أو أشباه ذلك من الأسماء الملفقة من كلمة الحق وهي الإسلام، ومن كلمة الباطل وهي الديمقراطية".

إن على المسلمين الذين تعلو ديارهم أو بلادهم أحكام النظام الديمقراطي، عليهم العمل لإزالة هذه الأحكام بالطرق الشرعية حتى تعلوها أحكام النظام الإسلامي. كثيرًا ما يحدث أن يقول بعض الناس: إننا لا نشك بأنه لا توجد ديمقراطية في الإسلام بهذا المعنى المذكور، والموجود فعلًا في الدول النصرانية وغيرها من ملل الكفر، ثم يضيفون إلى هذا القول قولهم: "ولكننا وجدنا في الديمقراطية بعض العناصر الطيبة مثل: حق الشعوب في اختيار حكامهم، ومساءلتهم بما يمنع من استبدادهم، وحقهم في إبداء آرائهم، وأن يكون لهم نصيب في إدارة شئون بلادهم، وحق في خيراتها ومواردها"، يقولون: "إذا كان الأمر كذلك، فما الذي يمنع من أن نأخذ من الديمقراطية ما فيها من خير، وندع ما فيها من شر؟!"

والسؤال على هذا النحو يدل على ذلك الجهل المطبق المتفشي في الأمة، وخاصةً فيما يتعلق بالفقه الشرعي السياسي.

والجواب يتلخص فيما يلي:

قد ذكرنا من قبل أن أصول الديمقراطية وجذورها إنما هي أصول وجذور إلحادية كفرية، فما معنى أن ندع ما فيها من الشر؟ معناه: أن تترك هذه الأصول، وبالتالي ما نتج عنها أو تفرع منها، وإذا كنا سوف نترك أصول الديمقراطية فهل يمكن أن نقول عن نظام ليس فيهأسس الديمقراطية: أنه نظام ديمقراطي؟! وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذن الإصرار على التمسك بلفظ لا حقيقة له؟!

وقد ذكرنا أيضًا من قبل أنه في ظِل النظام الديمقراطي لا يمكن الفصل بين ما يظن أنه حسن وبين ما هو خبيث؛ لأن الجميع يصدر عن أساس واحد. ثم نقول: وهل في الديمقراطية، أو في غيرها من النظم شيء من الخير ينقصنا حتى يقال: نأخذ ما فيها من خير وندع ما فيها من شر؟! هل الأمة التي قال فيها الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آلعمران: ١١٠] تحتاج في شيء من نظامها السياسي الذي هو جزء من دينها إلى ما عند أمم الكفر والضلال؟

إن من عقيدة الإسلام التي يعتقدها كل مسلم: أن ديننا لم يترك بابًا من أبواب الخير إلا ودلنا عليه، ولم يترك بابًا من أبواب الشر إلا وحذَّرنا منه. كما قال رسول الله ﷺ: ((إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه، وينذرهم شر ما يعلمه لهم)). فهل يسوغ في عقيدة المسلم -بعد ذلك- أن يقال: إن في النظام الديمقراطي عناصرَ طيبة أو نوعًا من الخير تنقص النظام الإسلامي، ومن ثم فنحن في حاجة إلى استعارتها منه وتطعيم النظام الإسلامي بها؟!

لقد بلغ من عناية الدين بالمسلمين أن علمهم كل شيء حتى أدب قضاء الحاجة، فهل يمكن أن تكون الهداية في مجال النظام السياسي غير كاملة حتى نحتاج إلى غيرنا؟

إن من المقاصد الأساسية في شريعة الإسلام إقامة دولة على أساس الإيمان، وتنظيمها تنظيمًا دقيقًا محكمًا وصحيحًا، يكفل الخير كله، والحق كله، والعدل كله، لكل مَن أظلتهم راية الدولة الإسلامية، فهل يمكن أن يقال: إن هناك عناصرَ من الخير لازمة لدولة الإيمان لم تأتِ في شريعة الإسلام، ونحن في حاجة إلى استيرادها من أمم الكفر والضلال؟!

إن ما يمكن أن يقال فيه: نأخذ ما فيه من خير، وندع ما فيه من شر، هو ما كان من قبيل المخترعات التي بُنيت على الاكتشافات والتجارب المعملية، أو ما كان من قبيل الأمور المباحة التي تركها الله لنا؛ لنجتهدَ فيها وفق ظروف العصر ومصالح الأمة، أما ما جاءنا فيه من الله ورسوله أمر أو نهي، أو هداية أو إرشاد، فلا خيرَ إلا فيه، وليس في غيره خير نحتاج إليه.

للديمقراطيين والعلمانيين وغيرهم من أعداء الإسلام وسائل متعددة في محاربة النظام الإسلامي، ومن ذلك: زعمهم أن الإسلام ليس فيه نظام سياسي، وأن الرسول ﷺ لم يكن من عمله إقامة دولة وإدارتها، وأن عمله لم يتجاوز حدود البلاغ والإنذار المجرد من كل معاني السلطان، وأن الخلافة ليس لها سند من الدين، وأن بيعة أبي بكر > كانت بيعة سياسية ملكية قامت على أساس القوة والسيف.

كانت تلك إحدى وسائلهم، وهي إنكار النظام السياسي في الإسلام جملةً، وكانت هذه الكلمات السابقة هي مجمل ما افتراه على النظام السياسي الإسلامي الشيخ علي عبد الرزاق القاضي الشرعي في كتابه (الإسلام وأصول الحكم)، وممن قفا قفوه في إنكار النظام السياسي الإسلامي الكاتب خالد محمد خالد في كتابه (من هنا نبدأ).

لكنه -بفضل الله وحده- وقف لهم العلماء بالمرصاد، وبينوا كذبهم وافتراءَهم، ومخالفتهم للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولهذا لم يكن

عجبًا أن تعقد جلسة محاكمة لعلي عبد الرزاق من قِبل شيخ الأزهر وباجتماع هيئة كبار العلماء، ويتم فيها إخراجه من زمرة العلماء، لكن في الحقيقة إن الذي أتاه علي عبد الرزاق إنما يخرجه من زمرة المسلمين لا من زمرة العلماء فقط. ، وقد خفت -بحمد الله- هذا الصوت بل مُحِقَ، فلم نعد نسمع به، ولم يعد أحد يجرؤ على ترديده بعدما تبين عَواره، وبعدما افتضح أمر الداعين إليه، وأنهم إنما كانوا يرددون كلامًا نقلوه من كلام أعداء الإسلام.

وإذا كانت هذه الصورة من إنكار النظام الإسلامي صورة فجة ومستقبحة، فإن هناك صورة أخرى لإنكار النظام الإسلامي، ولكن بطريقة أكبر مكرًا، وأشد خبثًا من الطريقة الأولى، وذلك بالتدرج عبر مراحل للوصول إلى هدفهم ومبتغاهم، وهذه الطريقة تعتمد على الهجوم على مصادر التشريع في الإسلام، وإخراجها عن أن تكون مصدرًا للأحكام السياسية.

وتوضيح ذلك: أنّ هذه الوسيلة تقوم على التسليم بأن الإسلام له نظام سياسي، وأن الإسلام دين ودولة، وهذا أمر لا غبار عليه، ثم ينطلقون من هنا إلى القول: بأن مصادر الأحكام السياسية "الدستورية" إنما هي الكتاب والسنة فقط، ويرفضون بقية أدلة الأحكام الأخرى، حتى الإجماع عندهم مرفوض في مجال الأحكام السياسية ولو كان إجماع الصحابة { .

ثم يخطون خطوة ثانية في مجال تفريغ اعترافهم السابق -بأن الإسلام له نظام سياسي- من مضمونه فيقولون: إن ذكر القرآن الكريم للأحكام السياسية إنما كان على سبيل القواعد العامة لا الأحكام التفصيلية؛ ومعنى ذلك: أنه ليس هناك أحكام محددة يجب التقيد بها في مجال النظام السياسي، وإنما هناك قواعد عامة فقط هي التي يجب التقيد بها، وما يترتب على ذلك من إدخال نظام أو طرق غربية إلى النظام الإسلامي بدعوى أنها لا تتعارض مع القواعد العامة !!

ثـم يخطـون خطـوة ثالثـة لإفـراغ المصدر الثـاني عنـدهم وهـو السـنة مـن أن يكـون مصدرًا للأحكام السياسية "الدستورية" فيقولـون: "إن الأحكـام الـتي جـاءت بهـا السنة منها مـا هـو تـشريع دائـم ومنهـا مـا هـو تـشريع وقـتي مـرتبط بـزمن النبـوة"، ويقولــون -وهــم في ذلــك كــاذبون: "إن الــسنة المتعلقــة بالأحكــام الــسياسية "الدستورية" كقاعدة عامة، هي من ذلك النوع الثاني الـذي يعـد تـشريعًا وقتيًّا أو زمنيًّا". ثم لا يكتفون بهذا القدر حتى يضيفوا إليه قولهم: "ولا يوجـد أحيانًـا حـد فاصل دقيق بين ما يعد من السنة تشريعا دائمًا، وما لا يعد كذلك".

وبهـذا الطريـق يكـون هـؤلاء قـد أفرغـوا الكتـاب والـسنة مـن أي مـضمون يتعلـق بالاحتجاج بنصوصهما في مجال مسائل الفقه السياسي "الدستوري".

ومن وسائلهم أيضًا: القول بأن النظام الإسلامي نظام مثالي -ومثل هـذه المقولـة قد يفرح بها الذين لا يفهمون اصطلاحاتهم- ومرادهم بهذه المقولة أنه نظـام غـير صالح للتطبيق، وإذا طُبِّق فهو غيرُ صالح لقيادة الحياة؛ وذلك لأن النظام المثالي -في عُرفهم- لا يصلح إلا لأنـاس مثـاليين، ولما كـان النـاس غـير مثـاليين بـل فـيهم الطيب وفيهم الخبيث، وحتى الطيب فهو عرضة للزلل، يكون النظام الإسـلامي -على قولهم- غير قابل للتطبيق، أو غير صالح لقيادة الحياة.

ويكفي في الرد على هذا الـزعم البـاطل أن يقـال: إن النظـام الـسياسي الإسـلامي ظل يحكم دولة الإسلام منذ قيامها في المدينة المنورة بقيـادة الرسـول الأعظـم ﷺ ولعدة قرون بعـدَهُ، وفـتح المسلمون في ظلـه مـشارقَ الأرض ومغاربَهـا، ورفعـوا على ربوعها رايـاتِ الإسـلام، ونـشروا الحـق والعـدل بـين النـاس، وغـيروا وجـه التاريخ الإنساني، كل ذلك حدث باسم الإسلام، وفي ظل دولة الإسلام.

فهل حدث ذلك في ظل نظام غير قابل للتطبيق، أو غير صالح لقيادة الحياة؟!!

العلمانية

عناصر الدرس

حقيقـــــــة التـــــــسمية

مـن المـذاهب الهدامـة المناهـضة للإسـلام وأصـوله ومبادئـه في هـذا العـصر تيـار العلمانية.

يجب البدء أولًا ببيان حقيقة التسمية، وبيان صحة نسبتها إلى العلم، فهل هي كذلك؟ لقد انخدع الناس بتسمية العلمانية بهذا الاسم.

ولا يزال أنصارها يتبجَّحون بها ويتطاولون بتعاليمها مغترين بها حيث وجدت لها سوقًا ورائجة لدى فئات ممَّن قلَّت معرفتهم، أو كانت لهم أهدافٌ شريرة ضد الـدين لعزلـه عـن قيـادة البـشر، أو التحـاكم إليـه لإحـلال تعـاليم عَبـدَة الأوثـان وأصحاب الأحقاد محله.

وحين انطلقـت هـذه التـسمية في أوربـا كـان يُقـصَد بهـا عنـدهم حـسب ترجمتهـا الـصحيحة فـصل الـدين عـن الـسياسة، أو الفـصل الكامـل بينـه وبـين الحيـاة الاجتماعية، على أساس أنه لا يجتمع العلم مع الدين بزعمهم، وقد كذبوا في ذلك وقلبوا الحقيقة.

فإن الدين والعلم جميعًا يكمل أحدهما الآخر ويقويه، أما نسبتهم مذهبهم إلى العلم، فإن الحقيقة تدل على أنه لا علاقة بين العلم وبين هذه الفكرة الضالة، بل إن تسميتها علمانية إنما هـو بسبب سـوء الترجمـة مـن معناهـا الغربـي، الـذي هـو الابتعاد عن الدين.

أو من باب الخداع والتضليل إذا كان الأولى أن تكون ترجمتها وتسميتها أيضًا هي اللاتينية؛ لأن مفهومها الأصلي هو هذا وليس نسبة إلى العلم.

وما أقوى التشابه بين تسميتهم العلمانية بهذا الاسم نسبة إلى العلم، وبين تسميتهم الاشتراكية العلمية بهذا الاسم كذلك، كلاهما تمسَّح بالعلم وهو بريء منهما، وكلاهما خداع للناس وتضليل.

وبعض الباحثين ذهب إلى أن عِلمانية بكسر العين وسكون اللام معناها: العلم الذي هو ضد الجهل، وأما عَلمانية بفتح العين وسكون اللام، فمعناها العالم، أو الدنيا في مقابل الآخرة.

وتأتي علمانية أيضًا بمعنى دهري وهو تفسير لكلمة "لايك" الفرنسية، وهو تعبير نشره اليهود في فرنسا، فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر الميلاديين.

الواقع أن دارس العلمانية سيلاحظ تعريفات كثيرة، إلا أن أصدق تلك التعريفات وأقربها إلى حقيقة العلمانية هو:

أن العلمانية مذهب هدَّام يُراد به فصل الدين عن الحياة كلها وإبعاده عنها.

أو هي إقامة الحياة على غير دين، إما بإبعاده قهرًا ومحاربته علنًا كالشيوعية، وإما بالسماح به وبضده من الإلحاد كما هو الحال في الدول الغربية، التي تسمي هذا الصنيع حرية وديمقراطية أو تدين شخصي.

بينما هو حرب للتدين، ذلك أن حصر الدين في نطاق فردي بعيدًا عن حكم المجتمع، وإصلاح شؤونه هو مجتمع لا ديني؛ لأنه أقام حياته الاجتماعية والثقافية وسائر معاملاته على إقصاء الدين، وهو حال الحضارة الغربية الجديدة ونظامها.

وهذا هو الواقع الصحيح، ولا عبرة بمراوغتهم في زعمهم أنهم يرعون التدين، فإنها مجرد خداع للمتدينين، فإن تسميتهم لهذا الإلحاد علمًا هو من باب فرحهم بمعرفتهم ظاهرًا من الحياة الدنيا، وأين هو من العلم الحقيقي الذي يوصل صاحبه إلى معرفة ربه ودينه، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة.

نشأة العلمانية وموقف دُعاتها من الدين وبيان الأطوار التي مرت بها

لقد أقامت العلمانية اللا دينية على الإلحاد وإنكار وجود الله تعالى وإنكار الأديان، وهي رِدَّة في حق من يعتنقها من المسلمين مهما كان تعليله لها.

وكانت العلمانية عند قيامها في مرحلتها الأولى في القرنين: الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين تنظر إلى الدين على أنه ينبغي أن يكون أمرًا شخصيًّا، لا شأن للدولة به، إلا ما يتعلق بجباية الضرائب للكنيسة.

ولعل هذا كان خداعًا لأهل الدين، ثم اشتدت المواجهة للدين على النحو الذي تطورت إليه بعد ذلك، وكان الخلاف محتدمًا ما بين رجال الدين ورجال العلمانية على السلطة، مما جعلهم ينادون بفصل الدين عن الدولة؛ ليستقل كل فريق بسلطته.

حتى إذا جاء القرن التاسع عشر، وهي المرحلة الثالثة، إذ بالعلمانيين يتجهون اتجاهًا منافيًا لكل مظاهر الدين والتدين، وأحلوا الجانب المادي محل الدين.

وبدأ الصراع يشتد بين العلمانيين واليساريين الناشئين وبين رجال الدين الكنسي المتقهقر، إلى أن أُقصِيَ الدين تمامًا، ولم يعد للإيمان بالغيب أي مكانة في النفوس، إذ حل محله الإيمانبالمادي المجرد المحسوس.

ورغم وضوح الإلحاد في المذهب العلماني، فقد ظهر من يزعم زورًا وكذبًا أنه لا منافاة بين العلمانية وبين الدين، وأخذ بعض الجاهلين والمتجاهلين يردِّدون هذا الفكر المغالط للاشتراكيين تمامًا.

على أنه لا ينبغي أن يغيب عن ذهن أي إنسان أن حرب الغرب للدين وأهله إنما جاءهم من دين مُحرَّف معادٍ لكل مفهوم للحياة الجديدة؛ لأن النصرانية التي جاء بها المسيح # قد اندثرت وحُرِّفت وضاع إنجيله بعد رفعه بفترة قصيرة.

فتزعمت ديانة بولس اليهودي الحاقد، فجاءتخرافية مصادمة للعقل والمنطق والواقع، ومن هنا وجد أقطاب العلمانية أن الدين -وهو تعميم خاطئ- لا يمكن أن يساير حضارتهم الناشئة، وأن رجال دينهم طغاة الكنيسة لا يمكن أن يتركوهم وشأنهم.

وهو ما حدث بالفعل وعلى إثر ذلك قامت المعركة بين الدين وأقطاب العلمانية، ونشط العلمانيون في بسط نفوذهم، وساعدتهم على ذلك عامة الشعوب الأوربية، التي أذاقتها الكنيسة الذل والهوان والالتزام بدين لا يقبله عقل أو منطق، فوجدوا في الالتجاء إلى رجال الفكر العلمانيين خير وسيلة للخروج عن أوضاعهم.

وإذا كان الإنسان يرى أن للغرب حجتهم في رفض ذلك الدين البوليسي الجاهلي، فإنه سيرى حتمًا أن انتشار العلمانية في بلاد المسلمين أمر لا مبرر له بأي حال.

ولا سبب له إلا قوة الدعاية العلمانية، وجهل كثير من المسلمين بدينهم، وجهلهم كذلك بما تبيته العلمانية للدين وأهله واتباعًا للدعايات البرَّاقة.

الأدوار التي مرت بها العلمانية في نشأتها:

وقد ذكر الدكتور الألماني أن العلمانية قد مرت في تطورها بأدوار هي كما يلي:

الدور الأول: وقد كان دور الصراع الدموي مع الكنيسة، وسُمي هذا الدور بعصر التنوير أو بداية عصر النهضة الأوربية، ويعود سببه إلى تأثر الأوربيين بالمسلمين أثر اختلاطهم بهم عن طريق طلب العلم في الجامعات الإسلامية.

وقد ذاق علماء الغرب في هذا الدور ألوانًا من العذاب على أيدي رجال الكنيسة إثر ظهور الاكتشافات العلمية هناك، ووقوف رجال الكنيسة ضدتلك الاكتشافات وجهًا لوجه.

الدور الثاني: ظهور العلمانية الهادئة، وتغلب رجالها على المخالفين من رجال الكنيسة، وفيه تمَّ عزل الدين عن الدولة، وانحصرت مفاهيم الكنيسة في الطقوس الدينية فقط بعيدة عن الحياة الاجتماعية كلها.

الدور الثالث: وفيه اكتملت قوة العلمانية ورجالها، وحلَّ الإلحاد المادي محل الدين تمامًا.

ثم برزت الرأسمالية وغيرها من الروافد المقوية للإلحاد العلماني، فاكتمل تطويق الدين ورجاله، واعتبر الدين عدوًّا للحضارة، وصار محل سخرية للجميع في رد فعل عارم يريد أن يكتسح كل شيء أمامه مما كان موجودًا؛ ليفسح الطريق أمام الوضع الجديد المتمرد على كل الأوضاع التي قبله.

الرد على من زعم أنه لا منافاة بين العلمانية وبين الدين

ما أكثر المغالطات التي توجه إلى خلط المفاهيم، إما عن جهل بالحقائق، وإما عن معرفة وطويةمبيتة شريرة. ومن العجيب حقًّا أن يتبجح مُنشئوا العلمانية بأنها حرب على الأديان، وتذويب للمجتمعات في بوتقة اللا دينية، ثم يأتي بعد ذلك من يحاول تغطية هذا المفهوم الواضح، فيدَّعي التوافق بينها بحجة أن العلمانية والدين يجتمعان في الحث على نبذ التأخر حسب مفهومهم.

وعلى الحث على العلم والاكتشافات والتجارب، والدعوة إلى الحرية، أو أن العلمانية تخدع جوانب إنسانية بينما الدين يخدع جوانب إلهية... إلخ تُرهاتهم.

ولنا أن نقول للمغالطين: إن العلمانية لم تظهر في الأساس إلا بسبب الخلافات الشديدة بين دينهم وبين علمانيتهم، وإلا فما الذي أذكى الخصومة بين الدين والعلمانية عندهم؟

نعم إن الدين الصحيح يدعو إلى نبذ التأخر، والأخذ بالعلم ومعرفة الاكتشافات والبحث والتجارب، ويدعو إلى الحرية، لكنه لا يجعل تلك الأمور بديلًا عن الخضوع للتعاليم الربانية أو الاستغناء عنها، وإحلال المخترعات محل الإله ﷻ.

بل يحكم على كل من يعتقد ذلك بالإلحاد، ومحاربة الدين علنًا، وهو ما سلكته العلمانية بالنسبة لنبذها للدين.

والدين الصحيح لا يفصل بين السياسة والحكم بما أنزل الله -تبارك وتعالى-، ولا يجعل قضية التدين قضية شخصية مزاجية، ولا يبيح الاختلاط ولا السفور، وإعلان الحرب على القيم والأخلاق.

بينما العلمانية لم تقم في الأساس إلا على تكريس البعد عن الدين النصراني، وإباحة الشهوات بكل أشكالها، فأي وفاق بينهما؟!!

كذلك فإن الدين لا يبيح لأي شخص أن يُشرِّع للناس من دون الله -تبارك وتعالى-، ولا أن يتحاكموا إلى غير شرع الله تعالى، وهذا بخلاف العلمانية، كما أن التوافق بين شيئين في بعض الجوانب لا يجعلهما متماثلين حتمًا.

أما هل يوجد وفاق بين الإسلام بخصوصياته وبين العلمانية؟

فإنها إذا كانت العلمانية لا تتوافق مع بعض المذاهب الوضعية الجاهلية، وتقف ضد نفوذها، أفيمكن أن تتوافق مع الإسلام بخصوصه.

إن الذين يتصورون ذلك لا يحترمون عقولهم ولا مشاعر الآخرين، أليس الإسلام هو العدو اللدود لجميع الجاهليات، مهما اختلفت أسماؤها في حزم وصرامة دون أن تحفظ لا يختلف في ذلك مسلمان؟

وكيف تتفق العلمانية على الشرك بالله ﷻ وبين الإسلام القائم على عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده لا شريك له، ذلًا وخضوعًا وحكمًا في كل شيء.

قامت العلمانية من أول يوم على محاربة الدين وعدم التحاكم إليه، وعلى الخضوع لغير الله -تبارك وتعالى، إما الطبيعة وإما في عبادة بعضهم بعضًا بعد أن ابتعدوا عن الدين، وعن الخضوع لرب العالمين، وأشركوا معه سبحانه فئة من البشر يسمونهم بالمشرعين أو القانونيين.

ويقدمون كل ما يقرره هؤلاء وينفرون عن ذكر الشريعة الإلهية والرسل والرسالات؛ لأنها بزعمهم لا تقدم الحلول الناجحة كالتي اخترعوها، متناسين هذه الفوضى الفكرية والأخلاقية والاقتصادية... إلخ، الفوضى التي تعيشها المجتمعات العلمانية، ونقضها اليوم ما أثبتته بالأمس ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولعل الذي حمل بعض القائلين بأن العلمانية لا تحارب الدين، ما يرونه من عدم تعرض العلمانيين لسائر أهل العبادات بخلاف النظام الشيوعي، ولكن يجب أن تعرف أن أساس العلمانية لا ديني، ولعل تركهم لأهل العبادات إنما هي خطة أو فترة مؤقتة.

مظاهر العلمانية في بلاد المسلمين

كانت العلمانية في بداية ظهورها تهدف إلى تحقيق غرض، وهو من أهم الأغراض التي أشغلت أذهان القائمين عليها، ألا وهو فصل الدين عن السياسة، والحكم على طريقة ما ينسبه الكتاب المقدس إلى نبي الله عيسى ﷺ: "أعط ما لله لله، وما لقيصر لقيصر".

وبغض النظر عن صحة هذه المقولة عن عيسى ﷺ، فإن العلمانيين وهم في محاولتهم الأولى لتصديع الدين المسيحي وجدوا أن هذا النص من الأمور المساعدة لهم، وقد جدوا وناضلوا حتى تم لهم ما يهدفون إليه من فصل الدين عن الدولة، وبالأحرى عزل رجال الكنيسة عن الدولة، ولم يعد دينهم صالحًا

للحكم بين الناس في شئون حياتهم، بل تولاه التشريع الجديد المسمى العلمانية في قوانينها الوضعية.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تعداه إلى طور آخر وهو عدم السماح بالدين في كل مظاهر الحياة، ولم تعد مقولة: "أعط ما لله لله، وما لقيصر لقيصر" قائمة في أذهان زعماء العلمانية الجامحة، فحورب الدين حربًا شعواء تحت الكراهية الشديدة لطغاة الكنيسة، الذين يمثلونه -حسب مفهوم أقطاب العلمانية-، هذا ما حصل في العالم النصراني ومبرراته، وهو ما يمثله دعاة العلمانية في البلدان الإسلامية التي تم لهم الحكم فيها.

وما دام الأمر قد وصل إلى محاربة الدين وإقصائه نهائيًّا، فلا بد أن يوجد البديل له في كل مظاهر الحياة، وهو ما وقع بالفعل، فطورت العلمانية لتشمل بعد ذلك الحكم والاقتصاد والعلم، والتاريخ، والحياة الاجتماعية، ومظاهر السلوك والأخلاق، وصور الآداب والفنون.. أي أنها أصبحت دينًا قائمًا بذاته، ملأ الفراغ الذي خلفه إقصاء الدين النصراني عن المجتمعات.

ولم يعد الناس بحاجة إلى الدين في أي قضية من القضايا التي تصادفهم؛ لأن المراد الجديد قد سد كل الحاجات، ولبَّى كل المطالب التي تواجه الفرد في حياته اليومية كلها، في الحكم وفي سائر متطلبات الحياة الاجتماعية الجديدة، وأصبح دعاة العلمانية كلهم على خط واحد وهدف واحد مع اختلافهم في الوسائل من بلد إلى آخر، وفيما يلي بيان ذلك في المسائل الآتية:

الأولى: العلمانية في الحكم:

أما العلمانية في الحكم، فمن الطبيعي أن لا يجد الحاكم العلماني أدنى ضرورة إلى الاستعانة بحكم الدين في أية قضية ، وذلك أولًا: لجهله بالدين وعدم معرفته به.

وثانيًا: للعداء الشديد المستحكم الحلقات بين الدين، وبين آراء المفكرين العلمانيين الذين يتصورون أنه لا تتم السعادة الحقيقية للشعوب، إلا إذا أُقصي الدين تمامًا عنهم، وحكموا أنفسهم بأنفسهم بعيدين عن التأثر بأحكام الدين.

وقصر بهم العزم أن يبحثوا عن مصدر العدل الحقيقي، والأحكام المتناسقة التي يسبق العقل إلى تصديقها قبل الواقع، وقد قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولقد وجدوا في علمانيتهم اختلافًا كثيرًا وتناقضًا فاحشًا في الأحكام، ولكن طبع على قلوبهم.

الثانية: هل يوجد فرق في الإسلام بين الدين والسياسة؟

لا يمكن لأي شخص عرف الإسلام -مهما قلت معرفته به- أن يقول: إن الإسلام يفرق بين الدين والحكم، بحيث يكون الدين لله والحكم للشعب أو القانون أو مجلس التشريع أو الحزب أو غير ذلك من الإطلاقات العلمانية الباطلة؛ لأن الإسلام يعتبر جميع البشر عبيدًا لخالقهم.

ولا مزية لأحد على الآخر إلا بالتقوى، ويحرم أن يتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، وأن من رضي بالتحاكم إلى غير الله، فهو طاغوت خارج عن الفطرة محارب لله ظالم لنفسه، متعد لما ليس له، وسيحاسبه الله تعالى على ذلك.

وفي الإسلام البيان التام الشامل لكل جوانب الحياة السياسية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية.. إلخ، بينها الله تعالى في قواعد شاملة، وأحكام جامعة وأمر الناس بفهمها، واستخراج كل ما يصادفهم من أحكام وتشريع على ضوئها من من كتاب الله تعالى أو من سنة نبيه ﷺ.

فالمشرع في الإسلام هو الله وحده، وما نطق به رسوله، والمنفذ للأحكام الشرعية هم الحكام الذين تختارهم الأمة ويرضون بحكمهم لتنفيذ الشرع الشريف،

وهؤلاء الحكام ليسوا طبقة فوق البشر، أو لهم صفات إلهية -كما كان يتصور الجاهلون قديمًا-، وإنما هم منفذون فقط، وأن كل مسلم مطالب بأن يعرف الأحكام الشرعية وأمور العبادات والاقتصاد وغير ذلك من أمور الحياة.

وبعض آخر يطلب الإسلام من كل أتباعه أن يكونوا صالحين لتنفيذ أحكام الله في كل قضية تعرض للشخص، ومعنى هذا أنه لا يوجد في الإسلام تلك الدعوى النصرانية التي بنى عليها اللادينيون فكرهم، وهي: "أعط ما لله لله، وما لقيصر لقيصر"، فهذه الازدواجية لا مكان لها في الإسلام.

وإنما الذي فيه هو تساوي الناس في التكليف أمام الله، ومطالبتهم جميعًا بتنفيذ أحكام الشريعة وطاعة ولاة أمورهم في غير معصية الله، ورد ما يختلفون فيه إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه ﷺ، وبهذا تصلح الحياة وتستقيم الأمور ويحصل التنافس في فعل الخير، قال الله ﷻ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال -تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

إنه لا يوجد في الشريعة الإسلامية نص واحد يثبت التفرقة بين الدين والحكم، لا في القرآن الكريم، ولا في السنة النبوية، ولا في أقوال علماء الإسلام، بل نجد أنه لا شرعية لحاكم لا يتخذ الدين منهجًا له.

ولا يوجد كذلك نص واحد يثبت أن أحدًا من خلفاء المسلمين من الصحابة أصدر حكمًا على طريقة الفصل بين الدين والحكم، أو اعتذر عن أي حكم

أصدره بأن سياسة الحكم اقتضته، حتى وإن كان مخالفًا للدين، بل كانت طريقتهم أن كل حكم يخالف الدين يعتبر حكمًا جاهليًّا باطلًا، وذلك للتلازم التام بين الدين والحكم.

الثالثة: العلمانية والاقتصاد:

أما العلمانية والاقتصاد والدين، فلقد كان الاقتصاد هو العصى السحرية التي أسهمت في قيام المذهب العلماني.

فقد كانت الحالة الاقتصادية في أوربا في أتعس وضع، وأبأس حال بسبب الوضع الاجتماعي المتخلف، الذي أنتجته الديانة النصرانية وحكامها ممثلة في البابوات وأصحاب الجاه والسلطان، الذين كانوا لا يهمهم إلا ضمان استرقاق الشعوب النصرانية، وإذلالها لطواغيت رجال الدين وأباطرة الدولة، ولتكن حالتهم بعد ذلك إلى النار، فالدولة ليست مسئولة عن الفقراء والبائسين.

فنشط النظام الإقطاعي واستبداد الطبقة العليا بمن دونها حسب النظام الجاهلي، وكان النظام الاقتصادي مكبلًا بتعاليم الكنيسة تحليلًا وتحريمًا، وكان قائمًا على ظلم الكادحين وشرع رجال الكنيسة، الذين احتووا جل مصادر الاقتصاد مضافًا إلى ذلك صنوف الضرائب المفروضة على الفلاحين وغيرهم، الذين كانوا يُسخرون كلهم كما يسخر العبيد.

وإذا بتلك الأنظمة المعادية للدين لم تقدم حقيقة للناس، إلا آمالًا خيالية وإلا الإلحاد والإفلاس والغبن الفاحش، وانتزاع احترام الدين والتدين من قلوب أتباعه، وإحلال ضلالاتهم بدلًا عن ضلالات الدين النصراني البولسي.

وصح عليهم المثل القائل: "إنك لا تجني من الشوك العنب"، وظهر سوء الاقتصاد، وسوء التوزيع للثروات، وسوء التكافل الاجتماعي جليًّا في

العلمانية، ولكنهم لا يعرفون بديلًا منقذًا في حال استكبارهم عن طريقة الإسلام في نظامه الاقتصادي.

الرابعة: العلمانية في التربية والثقافة:

قبل أن يصطدم الغرب المتحضر بالشرق المتخلف كانت التربية في الأخيرة متأخرة أسلوبًا وموضوعًا، وكانت الثقافة جامدة ومحدودة.

كان نصيب الأمة الإسلامية من المعرفة ينحصر في بقايا التراث الفكري، الذي دوَّنه علماء الكلام والفقه واللغة في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، تلك البقايا التي تُسمى (الكتب الصفراء) أو الثقافة التقليدية، وفي أحسن الأحوال الثقافة الأصلية -كما في بلاد المغرب.

ولنأخذ شاهدًا قريبًا لذلك من الأزهر الذي صبت عليه اللعنات لجموده وتخلفه.

كان الأزهر منذ تأسيسه يدرس في حلقاته المكتظة الفلك والجبر والهندسة والطب، كما يدرس الفقه والنحو والحديث سواء بسواء بلا حرج، ولا غضاضة.

وظل كذلك إلى عصر ليس ببعيد، فها هو ذا الجبرتي يورد في تاريخه أسماء كثيرين ممن نبغوا في هذه العلوم بالنسبة لعصرهم -منهم والده-، وإن كان مستواهم متخلفًا بالنسبة لما هو عليه حال معاصريهم في الغرب، ذلك أن هؤلاء يمثلون الدفعات الأخيرة لحضارة منهارة، في حين يمثل أولئك الغربيون طلائع متقدمة لحضارة فتية.

ومع ذبول الحضارة الإسلامية التدريجي تقلص ميدان العلم؛ ليقتصر على العلوم الضرورية التي لا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يحيا بغيرها، وأهملت العلوم الأخرى لا تحريمًا لها، ولكن عجزًا وتهاونًا يميلها الواقع المنهار من كل ناحية.

وفي فترة الركود العلمي تلك وُلدت أجيال بررت ذلك العجز والتهاون بصنوف المعاذير، ثم استساغت الانغلاق، وفسرت الدين نفسه تفسيرًا ضيقًا، وحددت علومه تحديدًا نابعًا من واقعها المظلم لا من حقيقة الدين وجوهره.

وحدثت نفرة شديدة بين علم الأزهر الذي كان يعتقد أنه يمثل الثقافة الإسلامية أصدق تمثيل، وبين علم الغرب الذي بدا لأعين الأزهريين غريبًا خاصًّا بالكفار.

من هذا الخطأ التاريخي تقريبًا نشأت الازدواجية الخطرة في العالم الإسلامي: تعليم ديني ضيق محدود، وتعليم لا ديني يشمل نشاطات الفكر كلها.

وقد لخص المستشار علي جريشة علمنة التعليم فيما يلي:

أولًا: القضاء على التعليم الديني:

أ. التطويق من الخارج:

١. الازدراء بالتعليم الديني.
٢. ازدراء معلمه وطلابه.
٣. قفل الوظائف اللامعة في وجوه خريجيه.
٤. خفض رواتبهم.

ب. التطويق من الداخل:

١. تقليص التعليم الديني.
٢. ازدياد التعليم العلماني.

ثانيًا: نشر التعليم العلماني:

اهتمام الدولة به.

الابتعاث.

المدارس الأجنبية والاختلاط.

العلمانية في الاجتماع والأخلاق:

كانت الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي قد انحرفت منذ بضعة قرون، لكن صورة الانحراف لم تبلغ أوجها إلا في مطلع العصر الحديث، حيث أصبح المجتمع في أخلاقه وتقاليده وعاداته ينطلق من منطلقات غير إسلامية، إذ غلبت الأعراف الجاهلية والعواطف المتهورة والعادات المستحدثة على الأخلاق الإسلامية الأصيلة.

غير أن الناس بحكم العاطفة الدينية الموروثة، وبما جُبلوا عليه من الغيرة على فضائل الخلق كانوا ينسبون كل قيم وموازين وأعراف مجتمعهم للدين، أو على الأقل - يلتمسون لها فيه أصولًا، ورسخ ذلك الانحراف المتمسح للدين حتى أصبح هو الواقع الذي كان لدى الناس استعدادًا للوقوف في وجه من يحاول تغييره، سواء أكان مجددًا إسلاميًّا أو مفسدًا أجنبيًّا، وهم - على أي حال - يبررون موقفهم بالاستناد إلى الدين.

وفي القرن الماضي احتك المجتمع الإسلامي المنحرف بالمجتمع الغربي الشارد عن الدين، ومنذ اللحظة الأولى أحس الغرب - المغرور بتقدمه المادي - بتفوقه الاجتماعي على الشرق، الذي لا شك أنه كان فيه من الفضائل ما يفتقده الغرب، لكن نظرة الغالب إلى المغلوب لا تسمح بالرؤية الصحيحة عادةً، لا سيما والروح الصليبية من ورائها.

وبالمقابل أحس المجتمع الشرقي بالانهيار القاتل، واستشعر النقص المرير، ولم يتردد الغربيون الكفرة في القول: "بأن سبب تخلف الشرقيين هو الإسلام"، فقد استمدوا ذلك من الوهن الذي كان يسيطر على أولئك بأنهم مسلمون حقًّا!

وهكذا كان الطريق مفتوحًا لمهاجمة الأخلاق، وتدمير مقومات المجتمع من خلال مهاجمة ذلك الواقع المتخلق الذي لا يمثل الإسلام، وكان النموذج الغربي المشاهد -الذي فصل الأخلاق عن الدين- يزيد الأمر قوة ووضوحًا.

وإذا علمت قوى الصليبية الحاقدة -من مستعمرين ومبشرين ومستشرقين- أن البؤرة التي تتجمع فيها أصول أخلاق، ومقومات المجتمع وغيره، فقد وضعت المخططات الماكرة لسلب هذه الميزة من المسلمين بإفساد المرأة المسلمة، وإشاعة الدياثة بينهم.

تابع العلمانية

عناصر الدرس

آثار العلمانية في سلوك بعض المسلمين

قد كان لتسرب العلمانية إلى المجتمع الإسلامي أسوأ الأثر على المسلمين في دينهم ودنياهم.

وها هي بعض الثمار الخبيثة للعلمانية:

أولا: رفض الحكم بما أنزل الله -تبارك وتعالى-، وإقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة عن الوحي الإلهي المُنزَّل على سيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ، بالقوانين الوضعية التي اقتبسوها عن الكفار المحاربين لله ورسوله.

واعتبار الدعوة إلى العودة إلى الحكم بما أنزل الله، وهجر القوانين الوضعية، اعتبار ذلك تخلفًا ورجعية وردة عن التقدم والحضارة، وسببًا في السخرية من أصحاب هذه الدعوة واحتقارهم، وإبعادهم عن تولي الوظائف التي تستلزم الاحتكاك بالشعب والشباب، حتى لا يؤثروا فيهم.

ثانيًا: تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه، وتصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلامية، على أنها عصور همجية تسودها الفوضى، والمطامع الشخصية.

ثالثًا: إفساد التعليم وجعله خادمًا لنشر الفكر العلماني، وذلك عن طريق:

أ. بث الأفكار العلمانية في ثنايا المواد الدراسية بالنسبة للتلاميذ، والطلاب في مختلف مراحل التعليم.

ب. تقليص الفترة الزمنية المتاحة للمادة الدينية إلى أقصى حد ممكن.

ج. منع تدريس نصوص معينة؛ لأنها واضحة صريحة في كشف باطلهم.

د. تحريف النصوص الشرعية عن طريق تقديم شروح مقتضبة ومبتورة لها، بحيث تبدو وكأنها تؤيد الفكر العلماني، أو على الأقل أنها لا تعارضه.

ه. إبعاد الأساتذة المتمسكين بدينهم عن التدريس، ومنعهم من الاختلاط بالطلاب، وذلك عن طريق تحويلهم إلى وظائف إدارية، أو عن طريق إحالتهم إلى المعاش.

و. جعل مادة الدين مادة هامشية، حيث يكون موضعها في آخر اليوم الدراسي، وهي في الوقت نفسه لا تؤثر في تقديرات الطلاب.

رابعًا: إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة، وهم المسلمون، وبين أهل التحريف والتبديل والإلحاد، وصهر الجميع في إطار واحد، وجعلهم جميعًا بمنزلة واحدة من حيث الظاهر، وإن كان في الحقيقة يتم تفضيل أهل الكفر والإلحاد والفسوق والعصيان على أهل التوحيد والطاعة والإيمان.

فالمسلم والنصراني واليهودي والشيوعي والمجوسي والبرهامي كل هؤلاء وغيرهم، في ظل هذا الفكر بمنزلة واحدة يتساوون أمام القانون، لا فضل لأحد على الآخر إلا بمقدار الاستجابة لهذا الفكر العلماني.

وفي ظل هذا الفكر يكون زواج النصراني أو اليهودي أو البوذي أو الشيوعي بالمسلمة أمرًا لا غبار عليه، ولا حرج فيه، كذلك لا حرج عندهم أن يكون اليهودي أو النصراني، أو غير ذلك من النحل الكافرة حاكمًا على بلاد المسلمين.

وهم يحاولون ترويج ذلك في بلاد المسلمين تحت ما سموه بـ الوحدة الوطنية، بل جعلوا الوحدة الوطنية هي الأصل والعصام، وكل ما خالفوها من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ طرحوه ورفضوه، وقالوا: هذا يعرض الوحدة الوطنية للخطر !!.

خامسًا: نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية، وتهديم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية، وتشجيع ذلك والحض عليه: وذلك عن طريق:

أ. القوانين التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها، وتعتبر ممارسة الزنا والشذوذ من باب الحرية الشخصية، التي يجب أن تكون مكفولة ومصونة.

ب. وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز، التي لا تكل ولا تمل من محاربة الفضيلة، ونشر الرذيلة بالتلميح مرة، وبالتصريح مرة أخرى ليلًا ونهارًا.

ج. محاربة الحجاب، وفرض السفور والاختلاط على المدارس والجامعات والمصالح والهيئات.

سادسًا: محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق:

أ. تضييق الخناق على نشر الكتاب الإسلامي، مع إفساح المجال للكتب الضالة المنحرفة التي تشكك في العقيدة الإسلامية، والشريعة الإسلامية.

ب. إفساح المجال في وسائل الإعلام المختلفة للعلمانيين المنحرفين لمخاطبة أكبر عدد من الناس؛ لنشر الفكر الضال المنحرف، ولتحريف معاني النصوص الشرعية، مع إغلاق وسائل الإعلام في وجه علماء المسلمين الذين يُبصِّرون الناس بحقيقة الدين.

سابعًا: مطاردة الدعاة إلى الله ومحاربتهم، وإلصاق التهم الباطلة بهم، ونعتهم بالأوصاف الذميمة، وتصويرهم على أنهم جماعة متخلفة فكريًّا، ومتحجرة عقليًّا، وأنهم رجعيون يُحاربون كل مخترعات العلم الحديث النافع، وأنهم متطرفون متعصبون لا يفقهون حقيقة الأمور، بل يتمسكون بالقشور ويَدعون الأصول.

ثامنًا: التخلص من المسلمين الذين لا يهادنون العلمانية، وذلك عن طريق النفي أو السجن أو القتل.

تاسعًا: إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله، ومهاجمتها واعتبارها نوعًا من أنواع الهمجية وقطع الطريق.

وذلك أن الجهاد في سبيل الله معناه القتال؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وحتى لا يكون في الأرض سلطان له القوة والغلبة والحكم إلا سلطان الإسلام، والقوم - أي: العلمانيين- قد عزلوا الدين عن التدخل في شئون الدنيا، وجعلوا الدين - في أحسن أقوالهم- علاقة خاصة بين الإنسان وما يعبد، بحيث لا يكون لهذه العبادة تأثير في أقواله وأفعاله، وسلوكه خارج مكان العبادة.

فكيف يكون عندهم إذن جهاد في سبيل إعلاء كلمة الدين ؟!!

والقتال المشروع عند العلمانيين وأذنابهم، إنما هو القتال للدفاع عن المال أو الأرض، أما الدفاع عن الدين والعمل على نشره والقتال في سبيله، فهذا عندهم عمل من أعمال العدوان والهمجية، التي تأباها الإنسانية المتمدنة!!

عاشرًا: الدعوة إلى القومية أو الوطنية: وهي دعوة تعمل على تجميع الناس تحت جامع وهمي من الجنس أو اللغة أو المكان أو المصالح، على ألا يكون الدين عاملًا من عوامل التجميع، بل الدين من منظار هذه الدعوة يُعد عاملًا من أكبر عوامل التفرق والشقاق.

حتى قال قائل منهم: والتجربة الإنسانية عبر القرون الدامية، دلَّت على أن الدين -وهو سبيل الناس لتأمين ما بعد الحياة- ذهب بأمن الحياة ذاتها.

هذه هي بعض الثمار الخبيثة، التي أنتجتها العلمانية في بلاد المسلمين، وإلا فثمارها الخبيثة أكثر من ذلك بكثير.

والمسلم يستطيع أن يلمس أو يدرك كل هذه الثمار أو جُلها في غالب بلاد المسلمين، وهو في الوقت ذاته يستطيع أن يُدرك إلى أي مدى تغلغلت العلمانية في بلدٍ ما اعتمادًا على ما يجده من هذه الثمار الخبيثة فيها.

وهذا ملخص بعض الآثار إضافة إلى ما سبق كما ذكرها بعض الباحثين:

آثار العلمانية السيئة على العالم الإسلامي:

وقد كان لتسرب العلمانيةإلى المجتمعات الإسلامية أسوأ الأثر على المسلمين في دينهم ودنياهم.

وإليك بعض الآثار السيئة التي جنتها المجتمعات الإسلامية من تطبيق العلمانية:

أولًا: رفض التحاكم إلى كتاب الله تعالى، وإقصاء الشريعة الإسلامية عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة عن ذلك بالقوانين الوضعية المقتبسة عن أنظمة الكفار، واعتبار الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية تخلفًا ورجعية.

ثانيًا: جعل التعليم خادمًا لنشر الفكر العلماني، وذلك عن الطرق التالية:

أ. بث الأفكار العلمانية في ثنايا المواد الدراسية.

ب. تقليص الفترة الزمنية المتاحة للمادة الدينية إلى أقصى حد، وتكون في آخر اليوم الدراسي وقد لا تؤثر في تقديرات الطلاب، كما تقدم.

ج. منع تدريس نصوص معينة؛ لأنها واضحة صريحة في كشف باطلهم وتزييف ضلالهم.

د. تحريف النصوص الشرعية عن طريق تقديم شروح مقتضبة ومبتورة لها، بحيث تبدو وكأنها تؤيد الفكر العلماني، أو على الأقل لا تعارضه، كما تقدم.

ثالثًا: إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة، وهم المسلمون، وبين أهل التحريف والتبديل، وصهر الجميع في إطار واحد، كما تقدم بيانه.

رابعًا: نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية كما تقدم بيانه أيضًا، وذلك بـ:

أ. القوانين الوضعية التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها.

ب. وسائل الإعلام المختلفة التي لا تكل ولا تمل من محاربة الفضيلة ونشر الرذيلة.

ج. محاربة الحجاب، وفرض السفور والاختلاط في المدارس والجامعات والمصالح والهيئات، كما تقدم.

خامسًا: الدعوة إلى القومية أو الوطنية، وهي دعوة تعمل على تجميع الناس تحت جامع وهمي من جنس، أو لغة، أو تاريخ، أو مكان، أو مصالح، أو المعيشة المشتركة، أو وحدة الحياة الاقتصادية إلى آخره، كما تقدم.

سادسًا: الدعوة إلى الارتماء في أحضان الغرب، وأخذ حضارته دون وعي ولا تمييز.

سابعًا: الزعم بأن الشريعة الإسلامية لا تتوافق مع الحضارة الحديثة.

موقف الإسلام من العلمانية

الإسلام يرفض العلمانية رفضًا قاطعًا سواء أكانت العلمانية بمعنى فصل الدين عن الحياة، أم بمعنى اللا دينية؛ لأنها دعوة ضد الإسلام.

فالدولة في الإسلام ضرورة لابد منها، وذلك لإنفاذ الأحكام الشرعية، وصيانة الحقوق، ووصول الدين إلى أهدافه وأغراضه في حفظ الدين والنفوس والعقول والأعراض والمال وغيرها.

أمَّا إذا أبعد الإسلام عن الحكم وعطلت صلاحياته، فستصبح كثيرٌ من أحكامه وتشريعاته حبرًا على ورق؛ لأنه لا يمكن تنفيذ تلك الأحكام من قبل الفرد وحده، وذلك كالجهاد في سبيل الله تعالى، وتنفيذ القصاص، وجباية الزكاة، وتأمين الطرق، ونشر الأمن، وفض الخصومات وما شابه ذلك.

إن الإسلام جاء عقيدة تنظم علاقة الإنسان بربه، وشريعة تدير جميع شئون الحياة كلها، والدين عند الله -تبارك وتعالى- هو الإسلام، والإسلام كما يدلُّ عليه اسمه هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

وقد شملت أوامر الله ونواهيه الحياة بأسرها، فليس هناك جانب من جوانب الحياة أو شيء من نظمها إلا ولله تعالى فيه حكم، فحياتنا العقدية والاجتماعية، والتربوية والاقتصادية، والسياسية، وضع لنا أصول التعامل فيها، وفصل لنا بعض جوانبها تفصيلًا. قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله: "قال ابن مسعود: قد بُين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم".

ويمكن إيضاح بيان حكم الإسلام من العلمانية كما يلي:

١. العلمانية من الجانب العقدي تعني التنكر للدين وعدم الإيمان به، وترك العمل بأحكامه وحدوده، وهذا كفر صريح.

٢. العلمانية في الجانب التشريعي تعني فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن الحياة كلها، وهذا يعني الحكم بغير ما أنزل الله.

وقد فصل علماء العقيدة الحكم بهذا على النحو التالي:

أ. إذا وقع الحكم بغير ما أنزل الله تبارك وتعالى والحاكم -سواء أكان فردًا أم مجموعة- يرى أن حكم الله غير صالح أو غير جدير، أو أن حكم القوانين أصلح وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس... أو اعتقد أن حكم القوانين مساوية لحكم الله ورسوله، أو اعتقد جواز الحكم بما يُخالف حكم الله ورسوله ونحو ذلك، فهو كفر اعتقاد مخرج عن الملة وهو من نواقض الإسلام.

قال سماحة الشيخ ابن باز -رحمه الله-: "ويدخل في القسم الرابع -أي: من نواقض الإسلام- من اعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنها الناس أفضل من شريعة الإسلام، أو أنها مساوية لها أو أنه يجوز التحاكم إليها، ولو اعتقد أن الحكم بالشريعة أفضل أو أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في القرن العشرين، أو أنه كان سببًا في تخلف المسلمين، أو أنه يحصر في علاقة المرء بربه، دون أن يتدخل في شئون الحياة الأخرى.

ويدخل في الرابع أيضًا: أن من يرى أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق، أو رجم الزاني المحصن، لا يناسب العصر الحاضر، ويدخل في ذلك أيضًا كل من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير شريعة الله في المعاملات أو الحدود أو غيرهما، وإن لم يعتقد أن ذلك أفضل من حكم الشريعة؛ لأنه بذلك يكون قد استباح ما حرمه الله إجماعًا.

وكل من استباح ما حرمه الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة، كالزنا والخمر والربا والحكم بغير شريعة الله، فهو كافر بإجماع المسلمين.

ب. وإذا وقع الحكم عن جهل، أو ضعف، أو لهوى في نفس صاحبه، أو لغرض دنيوي، مع الاعتقاد بأن حكم الله تعالى ورسوله ﷺ أحق وأصلح وأجدر، وأنه أفضل من القوانين الوضعية، فهذا كفر عملي، وهو فسق وظلم تقام الحجة على

صاحبه، ويبين له الحق، ويجب على المسلم أن يتوب إلى الله تعالى، ويرجع إليه. ويدل على ذلك فهم السلف لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

حيث قال ابن عباس >: "ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وبكذا وكذا". وقال طاوس مثله، وقال عطاء: "كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق".

قال شارح (الطحاوية): " وهنا أمر يجب أن يتفطن له، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرًا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة"، وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر.

وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كافرًا". والمقصود كافرًا عمليًّا، أو كفرًا دون كفر. ومن المعلوم أن الحكم بما أنزل الله في الشريعة الإسلامية، يعني الحكم بكتاب الله والسنة على السواء.

كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى: "... أما من حكم بغير ما أنزل الله اتباعًا للهوى، أو لرشوة، أو لعداوة بينه وبين المحكوم عليه، أو لأسباب أخرى، وهو يعلم أنه عاص لله بذلك، وأن الواجب عليه تحكيم شرع الله فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر.

ويعتبر قد أتى كفرًا أصغر وظلمًا أصغر وفسقًا أصغر، كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس { ، وعن طاوس وجماعة من السلف الصالح وهو المعروف عند أهل العلم".

ثالثًا: والعلمانية من الجانب الأخلاقي تعني: الانفلات والفوضى في إشاعة الفاحشة والرذيلة والشذوذ، والاستهانة بالدين والفضيلة، وسنن الهدى، وهذا ضلال مبين وفساد في الأرض، ومن العلمانيين من يرى أن السنن والآداب الشرعية والأخلاق الإسلامية إنما هي تقاليد موروثة، وهذا تصور جاهلي منحرف.

إن العلمانية في حكم الإسلام دعوة مرفوضة؛ لأنها دعوة إلى حكم الجاهلية، أي إلى الحكم بما وضع البشر، لا بما أنزل الله، والله تعالى يقول في محكم كتابه العزيز: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧، ٤٩].

يقول ابن كثير -رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ : أي: "فاحكم يا محمد بين الناس: عربهم، وعجمهم، أُمِّيهم وكتابيِّهم بما أنزل الله إليك هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء، ولم ينسخه في شرعك".

وقال -رحمه الله- عند قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ : "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل

على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله.

كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم... ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء".

ومن الآيات المبينة لأصول الحكم وقواعده:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

يقول ابن كثير -رحمه الله تعالى- عند الآية الأخيرة: "يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا".

ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾، أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة...".

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. إلى غير ذلك من الآيات في هذا الخصوص.

ومن نصوص السنة التي تتعلق بالحكم فيما يلي:

١. عن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((إنما الإمام جُنَّة يقاتل من ورائه ويُتقى به)).

٢. وعن ابن عمر } أنه أتى ابن مطيع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من خلع يدًا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية)).

٣. وعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني)).

٤. وعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك)).

٥. وعن أبي سعيد الخدري > أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم))، وقد أمر النبي ﷺ بذلك حتى لا يقع بينهم خلاف.

٦. وعن عبد الله بن عمرو } أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا عليهم أحدهم)).

يقول ابن تيمية -رحمه الله: "فإذا كان أي النبي ﷺ قد أوجب في أقل الجماعات، وأكثر الاجتماعات أن يولي أحدهم كان هذا تنبيهًا على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك".

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، التي تدل على أنه لا بد من إقامة حاكم يرعى حقوق الله تعالى، ويصون حقوق الناس، ويسوس الأمة بالعدل، وينصف المظلوم، ويؤدي لكل ذي حق حقه.

وأنه يجب له السمع والطاعة في غير معصية الله، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأنه لا يجوز الخروج أو خلع هذه الطاعة، وأن من خلع هذه الطاعة لا حجة له في فعله، ولا عذر له يوم القيامة.

كما أن الأحاديث تدل على وجوب لزوم الجماعة، وعدم الخروج عنها؛ لأن ذلك يؤدي إلى الافتراق والاختلاف في الأمة، وهذا الأمر أصل من أصول أهل السنة والجماعة، التي باينوا فيها أهل البدع والأهواء، فعلى المرء المسلم أن يسمع ويطيع لولاة الأمر في المعروف، فإن ذلك من طاعة الله ﷻ.

ولقد كان أبو بكر الصديق > إذا أعياه أمر سأل الناس، وقال: "أتاني أمر كذا، فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فإن كان عندهم عن رسول الله ﷺ فيه قضاء أخذوا به، وقال: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا، وإن لم يجد فيه سنة، استشار رءوس الناس وخيارهم، فإن أجمع أمرهم على رأي قضى به". وكان عمر > يفعل ذلك، فإن لم يجد في القرآن والسنة نظر: هل لأبي بكر فيه قضاء، فإن وجد قضى به، وإلا دعا رءوس المسلمين فاستشارهم، فإذا اجتمعوا على أمر أخذ به.

العقلانية، والقومية

عناصر الدرس

تعريــف العقلانيــة، ونــشأتها

من المذاهب الفكرية المعاصرة الهدامة في هذا العصر العقلانية أو العصرانية، وكذلك القومية.

أولًا: التعريف:

العقلانية: مذهب فكري يزعم أنه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشرية؛ وكذلك يرى إخضاع كل شيء في الوجود للعقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه. ويحاول المذهب إثبات وجود الأفكار في عقل الإنسان قبل أن يستمدها من التجربة العملية الحياتية، أي: أن الإدراك العقلي المجرد سابق على الإدراك المادي المجسد.

والعقلانية نسبة إلى العقل -كما هو الواضح من التسمية، ولقد كان العقل في المفاهيم الأوربية دينية -أي: نصرانية- وغير دينية مواقف غاية في التناقض والاختلاف.

وكان للعقل في مفاهيمهم أطوار مختلفة قوةً وضعفًا.. وسنعرف كذلك من خلالها تمامًا أن أكثر المبادئ الفكرية إنما جاءت من البلاد المضيافة لمختلف الأفكار، وهي أوربا وأمريكا، بسبب تلك الظروف القاسية التي أنتجتها حماقات رجال الدين النصراني وما نشأ عنها من أفكار شتى مختلفة الأسماء والاتجاهات والمبادئ، ثم تلقفتها اليهودية العالمية ممثلةً في الصهيونية والماسونية الحاقدة، فشبت وترعرت على أيديهم وعنايتهم بها، حتى أتت ثمارها في إقصاء الأديان وتمزيق وحدة

الشعوب، وإثارة النعرات الجاهلية، وضرب الناس بعضهم بالبعض الآخر، وأفسدت الأخلاق وسائر القيم لترجع المكاسب كلها في النهاية إلى اليهود لتحقيق مخططهم في استعمار العالم "الجوييم" مكتسحةً في طريقها تعاليم الكنيسة، وأفكارها الباطلة المنحرفة التي ادَّعت أنها من عند الله تعالى، ثم فرضتها بالقوة رغم رفض العقل لها، وإنزال العقاب الشديد بمن يتجرأ على ردِّها، أو حتى طلب مناقشتها بالعقل بسبب عدم ثقة القائمين عليها بما فيها من آراء فاسدة لا تقبل النقاش.

وأما النشأة: فإن العقلانية مذهب قديم جديد بنفس الوقت، برز في الفلسفة اليونانية على يد "سقراط" و"أرسطو"، وبرز في الفلسفة الحديثة والمعاصرة على أيدي فلاسفة أثَّروا كثيرًا في الفكر البشري أمثال: "ديكارت" و"ليبنتز" و"سبينوزا" وغيرهم.

ثانيًا: زعماء عصر التنوير:

برز مجموعة من الفلاسفة الذين كان لهم دور في إرساء قواعد هذا العصر، ونشر أفكاره الإلحادية، ومواجهة طغيان الكنيسة وهيمنتها على مختلف الجوانب الدينية والسياسية والاقتصادية وغيرها، ومن أبرز هؤلاء:

"رينيه ديكارت" ١٥٩٦ - ١٦٥٠م فيلسوف فرنسي اعتمد المنهج العقلي لإثبات الوجود عامة ووجود الله على وجه أخص، وذلك من مقدمة واحدة عُدَّت من الناحية العقلية غير قابلة للشك، وهي: "أنا أفكر، فأنا إذن موجود".

"ليبنتز": فيلسوف ألماني، قال: بأن كل موجود حي وليس بين الموجودات مِنْ تفاوت في الحياة إلا بالدرجة -درجة تميز الإدراك- والدرجات الأربع: مطلق الحي أي: ما يسمى جمادًا، والنبات فالحيوان فالإنسان.

وغير هؤلاء مثل "ولف"، "ولسنج"، "فيتشه" في ألمانيا، و"فولتير" و"بيلي" و"لامتري" في فرنسا، و"كانت" و"نيوتن" و"هويز" و"آدم سميث" وغيرهم ممن سار على دَرْبهم.

وفي المجتمع الإسلامي نجد المعتزلة تقترب من العقلانية جزئيًّا؛ إذ اعتمدوا على العقل وجعلوه أساسَ تفكيرهم، ودفعهم هذا المنهج إلى تأويل النصوص من الكتاب والسنة التي تخالف رأيهم. ولعل أهم مقولة لهم قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، ولو لم يرد بها شيء. وقال المعتزلة: "الدين إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية؛ وذلك لتأثرهم بالفلسفة اليونانية.

وقد فنَّد علماء الإسلام آراء المعتزلة في عصرهم، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل، ثم جاء بعد ذلك ابن تيمية وردَّ عليهم ردًّا قويًّا في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) وبيّن أن صريح العقل لا يمكن أن يكون مخالفًا لصحيح النقل. وهناك مَن يحاول اليوم إحياء فكر المعتزلة؛ إذ يعدونهم أهل الحرية الفكرية في الإسلام، ولا يخفَى ما وراء هذه الدعوة من حرب على العقيدة الإسلامية الصحيحة، وإن لبست ثوب التجديد في الإسلام أحيانًا.

ثالثًا: المقصود بعصر التنوير:

المقصود بعصر التنوير: هو ما نجم عن خضم العراك بين الدين النصراني ورجال الفكر، حيث ظهرت مذاهب عديدة للإجهاز على سلطة الدين النصراني ورجاله، فنشأ ما يسمى بعصر التنوير، وهي الفترة التي أقصي فيها الدين النصراني وحل محله العقل في كل شيء، وصار له الحكم على الدين وعلى سلوك الناس بدايةً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، الذي

عُرف فيما بعد ذلك بعصر التنوير، أي: سيادة العقل وحده دون منازع في رد فعل عارم لكبت الكنيسة له، والإتيان بخرافات وخزعبلات لا يقرها العقل بحال.

ولشدة هربهم من ظلم الكنيسة، فقد اعتبروا تقديم العقل على الدين هو بداية النور، مع أنهم بعد فترة أداروا ظهورهم لهذا الإله -العقل عندهم- وتفلتوا منه كذلك ما سيأتي بيانه.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] خصوصًا وأن الذين أقاموا هذا المذهب ودعوا إليه كانوا يريدون هذا الخلاف، ويؤججون ناره لحاجات في أنفسهم. وحين غزت حركةُ التنوير العالم الغربي اتجهت بقوة إلى الفكر والآداب في دعوة جادة إلى نبذ الدين وسائر القيم الدينية، وكل السلوك القائم في استكبار وعتو شديد عن الدين - أي: دين - حيث حل محله العقل الذي حكَّموه في كل شيء، سواء كان أهلًا لذلك أو ليس أهلًا له، فهو الحاكم في المحسوسات والمغيبات أيضًا، حيث عللوا لكل ظواهر هذا الكون وما يقع فيه بتعليلات أكثرها خرافية، مستندين إلى تأييد العقل لهم بزعمهم.

وفي النهاية إنما يكون الحكم أولًا وأخيرًا للأهواء والمصالح المختلفة، وأنى للفلسفة أن تفلح في بيان الحقائق الإلهية والعقائد الربانية، أو سعادة البشر وهي لا تملك هذا الجانب. وقد قيل: "فاقد الشيء لا يعطيه". ولهذا فإن تدخل الفلاسفة في بيان الجوانب العقدية إنما هو تطفل عليها وتطاول قبيح، لا يقدم للنفس غذاءها الذي تحيا به وتسير بموجبه راضيةً مطمئنةً، وإنما يقدم للعقل نظريات وافتراضيات ليلهو بها إلى حين.

وما ذكرناه من أن خروج أهل أوربا بتلك الأفكار إنما كان بسبب الدين النصراني، إنما هو وصف لما وقع وليس بعذر منج لهم عند الله تعالى؛ لعدم بحثهم عن الدين الصحيح الذي سيجدون فيه السعادة والعدل لو أنهم طلبوه بعد أن أقام الله الحجة على جميع البشر.

رابعًا: قضية العقل في المفهوم الأوربي، والأدوار التي مرَّ بها:

لقد ظلت الاتجاهات الفلسفية الإغريقية التي تُمثِّل العقلانية قسمًا بارزًا منها تسيطر على الفكر الأوربي، حتى جاءت المسيحية الكنسية فغيرت مجرى ذلك الفكر في انعطافه حادة تكاد تكون مضادة لمجراه الأول الذي استغرق من تاريخ الفكر الأوربي عدةَ قرون. فلم يعد العقل هو المرجع في قضايا الوجود إنما صار هو الوحي -كما تقدمه الكنيسة- وانحصرت مهمة العقل في خدمة ذلك الوحي في صورته الكنسية تلك، ومحاولة تقديمه في ثوب معقول.

يقول الدكتور محمد البهي في كتابه (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي): "كان الدين أو النص طوال القرون الوسطى سائدًا في توجيه الإنسان في سلوكه وتنظيم جماعته، وفي فهمه للطبيعة. وكان يقصد بالدين المسيحية، وكان يراد من المسيحية الكثلكة، وكانت الكثلكة تعبر عن البابوية، والبابوية نظام كنسي ركز السلطة العليا باسم الله في يد البابا، وقصر حق تفسير الكتاب المقدس على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى، وسَوَّى في الاعتبار بين نص الكتاب المقدس وإفهام الكنيسة الكاثوليكية....

وقد نشأت عن ذلك في الحياة الأوربية والفكر الأوربي مجموعة من الاختلالات التي لم تنشأ -كما تصور الفكر الأوربي في مبدأ عصر النهضة- من إهمال الفلسفة والعلوم الإغريقية والالتجاء إلى الفكر الديني. فلم يكن الفكر الديني من حيث المبدأ، ولا إخضاع العقل للوحي هو مصدر الخلل في فكر العصور الوسطى في أوربا، إنما كان الخلل كامنًا في ذلك الفكر الذي قدمته الكنيسة باسم الدين، وفي إخضاع العقل لما زعمت الكنيسة أنه وحي، بعد تحريفها ما حرفت منه، وإضافتها ما أضافت إليه، ومزج ذلك كله بعضه إلى بعض وتقديمه باسم الوحي.

والفلسفة الإغريقية التي ظنت أوربا في عصر النهضة أن ضلالها في العصور الوسطى كان بسبب إهمالها، وأن العلاج هو الرجوع إليها والاستمداد منها، لم تكن هي في ذاتها بريئة من الخلل ولا سليمة من العيوب، ولا كانت في صورتها التي قدمها فلاسفة الإغريق القدامى زادًا صالحًا لحياة إنسانية مستقيمة راشدة، على الرغم من كل ما احتوته من إبداع فكري في بعض جوانبها.. وإنما ظل الفكر الأوربي في الحقيقة ينتقل من جاهلية إلى جاهلية حتى عصره الحاضر. فمن الجاهلية الإغريقية والرومانية، إلى جاهلية الدين الكنسي المحرف في العصور الوسطى، إلى جاهلية عصر الإحياء، إلى جاهلية عصر التنوير، إلى جاهلية الفلسفة الوضعية ... إلى الجاهلية المعاصرة.

كانت العقلانية الإغريقية لونًا من عبادة العقل وتأليهه، وإعطائه حجمًا مزيفًا أكبرَ بكثير من حقيقته، كما كانت في الوقت نفسه لونًا من تحويل الوجود كله إلى قضايا تجريدية مهما يكن من صفائها وتبلورها، فهي بلا شك شيء مختلف عن الوجود ذاته، بحركته الموارة الدائمة بمقدار ما يختلف القانون الذي يفسر الحركة عن الحركة ذاتها، وبمقدار ما تختلف البلورة عن السائل الذي نتجت عنه.. قضايا تعالج معالجة كاملة في الذهن بصرف النظر عن وجودها الواقعي، وبصرف النظر عن كون وجودها الواقعي يقبل ذلك التفسير العقلاني في الواقع أو لا يقبله، ويتمشى معه أو يخالفه.

وكان أشد ما يبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسفة لقضية الألوهية، وقضية الكون المادي وما بينهما من عَلاقة، ويتشعب هذا الانحراف شعبًا كثيرةً في وقت واحد. فأول انحراف هو محاولة إقحام العقل فيما ليس من شأنه أن يلم به، فضلًا عن أن يحيط بكنهه في قضية الذات الإلهية. والانحراف الثاني: هو تحويل

الموضوع كله إلى قضايا فلسفية ذهنية بحتة، تبدأ في العقل وتنتهي في العقل، ويثبت ما يثبت منها وينفى ما ينفى بالعقل، فلا تمس الوجدان البشري، ولا تؤثر في سلوك الإنسان العملي، فتفقد قيمتها. وأما الانحراف الثالث الناشئ من التناول العقلاني لقضية الألوهية، وعدم الرجوع فيها إلى المصدر اليقيني الأوحد، وهو الوحي الرباني؛ فهو تخبط الفلاسفة فيما بينهم وتعارض ما يقوله كل واحد منهم مع ما يقوله الآخر.

ولا عجبَ في ذلك، فما دام العقل هو الحكم في هذه القضية، فعقل مَن؟!

إن العقل المطلق أو العقل المثالي تجريد لا وجود له في العالم الواقع، إنما الموجود في الواقع هو هو عقل هذا المفكر وذاك المفكر، ولكل منهم طريقته الخاصة في تعقل الأمور، ولكل منهم نوازعه الخاصة التي يحسبها بعيدةً عن التأثير في عقله، وهو واهم في حُسابه، ولكل منهم اهتماماته الخاصة التي تجعله يركز على أمور ويغفل غيرها من الأمور.

ومن ثَمَّ لا تصبح تلك الفلسفة في هذه القضية بالذات أداة هداية، وإنما أداة تشتيت وأداة تضليل. من هذه الجاهلية انتقل الفكر الأوربي إلى عصر سيادة الدين، وكان المفروض أن يخرج ذلك الفكر إذن من الجاهلية إلى النور، ولكنه في الحقيقة دخل إلى ظلمات حالكة ليس فيها حتى ذلك البريق الذي تميزت به الفلسفة الإغريقية في كثير من المواضع بصرف النظر عن القيمة الحقيقية لذلك البريق، وعن كونه بريقًا هاديًا أم مضللًا عن الطريق.

كان المفروض وقد التزم العقل بالوحي، واستمد منه اليقين والهدى في المسائل التي لا يهتدي فيها وحده ولا يستيقن فيها بمفرده، أن ينطلق الفكر في ميادينه الأصيلة يبدع وينتج، ويمد الإنسان بما يحتاج إليه في شئون الخلافة وعمارة

الأرض. ولكن الكنيسة الأوربية أفسدت ذلك كله بما أدخلته من التحريف على الوحي الرباني المنزل من السماء لهداية البشرية على الأرض، وتخبطت في قضية الألوهية تخبطًا من نوع جديد، حين قالت: إن الله ثلاثة أقانيم، وإن المسيح ابن مريم # واحد من هذه الأقانيم الثلاثة، وإنه ابن الله، وفي الوقت ذاته إله، وشريك لله في تدبير شئون الكون -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- وفضلًا عن ذلك -أو ربما بسبب ذلك- حُجِرَ على العقل البشري أن يعمل وأن يفكر.

فإن هذه الألغاز التي ابتدعتها المجامع المقدسة في شأن الألوهية لم تكن معقولة ولا مستساغة، فما يمكن للعقل البشري أن يتصور ثلاثة أشياء هي ثلاثة وهي واحد في ذات الوقت، وما يمكن أن يتصور أن الله ﷻ ظل متفردًا بالألوهية، وتدبير شأن هذا الكون ما لا يحصَى من الزمان، ثم إذا هو -فجأةً- يوجد كائنًا آخر؛ ليكون شريكًا له في الألوهية، ومعينًا له في تدبير الكون!! تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ومن أجل كون هذا العبث المقدس الذي ابتدعته المجامع المقدسة غير معقول ولا مستساغ، فقد سخرت الكنيسة العقل في محاولة إخراج هذا المزيج المتنافر المتناقض في صورة فلسفية مستساغة -أو هم قالوا عنها: إنها مستساغة- وفي الوقت ذاته حجرت على العقل أن يناقشها، لئلا تجر المناقشة إلى القول بأنها غير معقولة على الرغم من أن كل الصناعة العقلية وضعت فيها. ومن ثم نشأت في الفكر الأوربي تلك المسلمات أو العقائد المفروضة فرضًا التي لا يجوز مناقشتها لا لأنها في حقيقتها من الأمور التي ينبغي للعقل أن يسلم بها دون مناقشة، ولكن لأنها مناقضة للعقل، ومفروضة عليه فرضًا من قبل رجال الدين، الذين زعموا لأنفسهم حق صياغة العقائد، وفَرْضها على الناس بالقوة، دون أن يكون لهم

حق المناقشة أو الاعتراض، وإلا كانوا مهرطقين مارقين، يجوز فيهم كل شيء حتى إهدار الدم وإزهاق الأرواح.

القوميـــــــــــــــــة

أولًا: تعريفها:

القومية: فكرة وضعية نشأت أول ما نشأت في البلاد الأوربية، نشأ غيرها من الحركات والأفكار التي تبعث عن التفلت من رابطة الدين، ويلاحظ أن دعاتها قد اختلفوا في المفهوم الصحيح لها، هل هي بمعنى تجمع أمة من الناس وارتباط بعضهم ببعض هدفًا وسلوكًا وغايةً؟ إما لانتمائهم إلى لغة واحدة كما يرى القوميون الألمان، وإما لانضوائهم في عيشة مشتركة كما يرى القوميون الفرنسيون، أم أنها لكليهما، أو أنها لغير ذلك من أمور سياسية واقتصادية كالاشتراك في المعيشة الاقتصادية كما يرى الماركسيون، أو الاشتراك في التاريخ واللغة في البلد الواحد كما يرى كثير من دعاة القومية العربية ساطح الحصري ومَن سلك سبيله بحيث يحسون أنهم جميعًا كتلة واحدة، وأن ما يجري على البعض من آلام وآمال هو ما يجري على الكل، فتقوم قوميتهم على هذا المفهوم.

إنه خلاف مرير بين القوميين على تعريف القومية، ولكنهم جميعًا متفقون على أن إبعاد الدين -خصوصًا الإسلامي- أمر حتمي لانتعاشها.

والقوميون العرب دائمًا يصرحون بأن الدعوة إلى القومية ليس معناها الدعوة إلى الدين؛ لأن كل الناس عباد لله تعالى، وكلهم يريدون الحياة السعيدة في الدنيا وما بعد الحياة الدنيا، وهذا لا شأن للقومية به، بل يعتبرونه الدعوى إلى الدين دعوى

ناقصة عن تحقيق طموحات القوميين، بل إنها رجعية في نظرهم، ويجب فصله عن الدولة أيضًا؛ انسياقًا مع مفاهيم الحركات الأوربية التي قامت في البداية على القومية وحرب الدين، بل وصل طمع دعاة القومية أن تكون بديلًا عن النبوات، وأن نبوة القومية يجب أن يبذل لها كل غال ورخيص، وأن يكون الإيمان بها أقوى من كل الروابط، وجعلوها في الكِفة الأخرى مع الإيمان بالله تعالى، وأنها يجب أن تكون هي الديانة لكل عربي، وأخذوا يتباكون على مصير العرب حينما لا يتم تحقيق هذا الدين الجديد الذي سيخلص العرب من كل سيطرة أجنبية، ويرفعون رءوسهم عاليةً أمام كل أجنبي، ليس بعربي بزعمهم !!

ولا ريبَ أنها دعوات جاهلية ليس وراءها إلا الخراب، سواء أكانت الدعوة إلى القومية أو إلى الوطنية، فلا عزة للعرب ولا استرجاع لحقوقهم إلا بالتمسك بالدين الحنيف.

إن القومية والوطنية كلتاهما نعرتان جاهليتان خرجتَا من أوربا الجاهلية، وفي هذا يقول "فرنارد لويس": فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشعوبية والاشتراكية، كلها أوربية الأصل، مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الأوسط، أحلها القوميون والوطنيون محل الدين، ورأوا أن الاجتماع عليها خير وأنفع من الاجتماع على الدين، وذلك للاختلاف الواضح بين الناس في قضية التدين -حسب زعمهم- بخلاف القومية والوطنية التي تضم كل أفراد القوم وجماعاتهم؛ ليكونوا مجتمعًا واحدًا لا خلافَ فيه؛ لاتحادهم التام في الانتساب إلى القومية. أما الوطنية التي تقبل كل تناقضات المذاهب المختلفة وهي في الواقع لا تقبلها كما يدعون، بل ترمي بها كلها وتؤخذ بدلًا عنها شعار القومية والوطنية، ومن هنا قدسوها ورفعوها فوق كل اعتبار، واجتمعوا على التفاخر

والتباهي بها، حتى صار كل قوم يدعون أنهم هم أفضل الجنس البشري، وغيرهم في الدرجة الدنيا.

ولهذا تسمع وتعجب حين يفتخر كل قوم أو كل شعب بأنهم أرقى أمة وأفخرها، فما دام قد انحل الوكاء فما الذي يمنع كل جنس أو قوم من الافتخار، بل والتعالي على الآخرين، راكبين كل صعب وذلول في تقرير ذلك، فكثرت تبعًا لذلك القداسات المزيفة لهذه الفئات من البشر، كما كثرت الأماكن والأراضي المقدسة عندهم كما يقتضيه شرح القومية والوطنية.

ثانيًا: كيف ظهرت القومية؟

أساس ظهور القومية في شكل مذهب جماعي وله دعاته المتحمسون له، كان من البلد المضياف لكثير من الآراء والمذاهب المختلفة أوروبا، وكان سبب ظهورها هو نفس الأسباب التي أظهرت بقية المذاهب الفكرية فيها، متوخيةً الرغبة الشديدة في هدم سلطة الكنيسة الطاغية التي سامتهم سوء العذاب -كما تقدم- إضافةً إلى ما كان يعيشه الأوربيون من شريعة الغاب، والظلم والعدوان، وسوء الأخلاق في معاملة بعضهم، وعدم وجود الدين الصحيح الذي ينير لهم الحياة، فكان ظهور القومية هناك مظهرًا مشاركًا لبقية مظاهر الخروج والانفلات عن سلطة الكنيسة وقبضة رجالها، وكانت القومية هي إحدى معاول الهدم التي تكاثرت على الكنيسة بعد أن بدأت الكنيسة تترنح للسقوط النهائي، إثر إفاقة الشعوب الغربية الأوربية على واقعهم الشنيع من الذل والخوف والتنكيل والقتل الجماعي، والجهل المركب، والأحكام الجائرة على أيدي فئة تزعم أنها تمثل الرغبة الإلهية في كل ما تأتي وتذر.

فظهرت القومية كغيرها من الأفكار الأخرى، ووقفت من الدين وأهله نفس المواقف للنظريات الإلحادية الأخرى، ويظهر أنه لم يكن لديهم أي جامع أو رابط يقدمونه لشعوبهم غير هذا الرابط الجديد الذي داروا حوله بكل جد وقدسوه، إلى أن أوصلوه قريب الألوهية، علهم يجدون فيه عزاءً عن الالتجاء إلى الإله الذي كان هو السبب في إذلالهم على أيدي رجال الكنيسة -كما زعموا- الذين كانوا يمثلونه في الأرض كما قرره زعماء الكنيسة الرهبان لهم لتحقيق شهواتهم، وافتراء على الله -تبارك تعالى.

وعلى هذا، فإن ظهور القومية في أوروبا وعامة دول العالم المسيحي، إنما كان لتلك الأسباب الظاهرة وغيرها، وكان لهم ما يبرر ذلك الخروج فيما ظهر من أحوالهم -وإن لم يكن مبررًا حقيقيًّا- وبعد خروجهم ذلك ألّهوا كل ما راق لهم، ومنها القومية التي قدسوها وزينوا أمرها لكل الشعوب؛ لتكون العزاء والبديل عن الدين النصراني ورجاله.

يقول الندوي: "ولا يزال القوميون في داخل البلاد وخارجها يزينون للشعوب الصغيرة القومية، ويطرون آدابها ولسانها، وثقافتها وتهذيبها، ويمجدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانة بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء، وتدل بنفسها وتظن أنها مانعتها حصونها، وما أعدت للحرب، وتنقطع عن العالم، وتتحرش أحيانًا بالدول الكبيرة؛ غرورًا بنفسها أو تهجمًا عليه الدول فلا تلبث إلا عشيةً أو ضحاها، وتذهب ضحية لقوميتها وانحصارها في دائرة ضيقة، ولا يغني أولئك المسئولون عنها شيئًا: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

ومن الجدير بالذكر أن القومية كانت في نشأتها لا يرمي أهلها إلا إلى الخلاص من قبضة رجال الدين، وتنفس الصعداء من الأغلال التي كانت عليهم.

ولكن ما إن تم لهم ذلك الخلاص المنشود حتى انتقلوا نقلة أخرى، فصاروا لا يقنعون بذلك الخلاص، وإنما تطلعوا إلى ظلم الآخرين والبغي عليهم، واستعمار الضعفاء من الناس، واستعبادهم، وحصل من وراء ذلك شر عظيم وفتن عريضة وحروب، ثم انقلب السحر على الساحر، فأصبحوا في دوامة القومية التي لا تعقل ولا ترحم، ونبغت قرون الشر في رأس كل فريق من القوميين، كل ينوح على ليلاه، وكل فتاة بأبيها معجبة، فانتعش بينهم فن المفاخرات؛ لضرورة الحاجة إليه في ظل القومية التي لم يقم بناؤها في الأساس إلا على هذا المسلك البغيض في بداية تكوينها في أوروبا.

وبعد أن سار ركب القومية في أوروبا يحطم بعضه بعضًا، وكثرت الحروب بينهم؛ نتيجة التعصبات القومية الشعوبية الهوجاء، عاد الأسد إلى عرينه، فقام مفكروهم وقادتهم بالدعوة الجادة إلى نبذ القومية، وأنها رجعية وليست تقدمية حضارية، ويجب نبذها، وأنها تمثل أفكار "هتلر" النازي حين قسَّم العالَم على أساس عرقي، أفضلهم الألمان.

ولأن مسلك التقدم والحضارة لا يتماشَى مع مسالك القومية الضعيفة، فلفظتها أوربا لتقع في أيدي المخادعين والماكرين من النصارى العرب وغيرهم؛ ليتموا حاجةً في نفس يعقوب، بعد أن بيتوا النيةَ لحرب الإسلام -كما سنذكر ذلك في موضعه.

يقول الدكتور صلاح الدين المنجد: "تنبه العرب إلى فكرة القومية في أوائل القرن بعد أن مضى على موتها في أوروبا فترة طويلة بتأثير الغرب، ومما يذكره الباحثون عن القوميات الأوربية وسبب ظهورها، أن البدايات الأولى لظهور القوميات

هناك، كان إثرَ النزاعات التي احتدمت بين رجال الدين الكنسي والملوك حول الأحقية بالسيطرة والأمر والنهي، هل هم الملوك فقط أم رجال الدين فقط؟ وكاد أن يتم الحل بينهم على أن تكون السلطة الأمنية للملوك، والسلطة الروحية للبابوات، إلا أن الأمور انحدرت إلى هاوية سحيقة كانت هي ثالثة الأثافي، وهو النزاع الشرس الذي نشب بين رجال الدين أنفسهم، وما وقع بين الكنائس من عداوات خرجت تباعًا عن الكنيسة الأم في روما، وتعصبت كل كنيسة لآرائها: كاثوليكي، بروتوستانتي، وإصلاحيات...إلخ.

وانفلت الأمر، وصار الحبل على الغارب، فقام كل فريق بتكوين نفسه ومذهبه، فانتشرت المذاهب والأفكار، ومنها قيام القوميات على ذلك النحو، وأخذ النزاع طابعًا قوميًّا.

ثالثًا: أسس الدعوة القومية والهدف من ورائها:

الدعوة القومية التي ظهرت في أوروبا وتأسست بتأثيرها دول مثل إيطاليا وألمانيا يُظهِرُ الواقع أن الاستعمار هو الذي شجَّع الفكر القومي، وعمل على نشره بين المسلمين؛ حتى تصبح القومية بديلًا عن الدين، مما يؤدي إلى انهيار عقائدهم، ويعمل على تمزيقهم سياسيًّا، حيث تثور العداوات المتوقعة بين الشعوب المختلفة.

يلاحظ نشاط نصارَى بلاد الشام -وخاصةً لبنان- في الدعوة إلى الفكر القومي أيام الدولة العثمانية؛ وذلك لأن هذا الفكر يعمق العداوةَ مع الدولة العثمانية المسلمة التي يكرهونها، وينبِّه في العرب جانبًا من شخصيتهم غير الدينية، مما يبعد بهم عن العثمانيين.

من بعض الجوانب يمكن أن يعد ظهور الفكر القومي العربي رد فعل للفكر القومي "التركي الطوراني".

ومن الجدير بالذكر أن كانت في نشأتها لا يرمي أهلها إلا الخلاص من قبضة رجال الدين، وتنفس الصعداء من الأغلال التي كانت عليهم، ولكن ما أن تمَّ لهم ذلك الخلاص المنشود، حتى انتقلوا نقلة أخرى فصاروا لا يقنعون بذلك الخلاص، وإنما تطلعوا إلى ظلم الآخرين، والبغي عليهم، واستعمار الضعفاء من الناس، واستعبادهم، وحصل من وراء ذلك شر عظيم، وفتن عريضة وحروب، ثم انقلب السحر على الساحر -كما تقدم- فأصبحوا في دوامة القومية، لا تعدل ولا ترحم، ونبغت قرون الشر في رأس كل فريق من القوميين كما تقدم بيانه.

القومية العربية وآثارها السيئة على المجتمعات الإسلامية

عناصر الدرس

تأثر القومية العربية بالقومية في أوروبا

سنتعرض للكلام على القومية بشكل خاص، وهي القومية العربية، وآثارها السيئة على المجتمعات الإسلامية:

مما لا جدالَ فيه أن القومية عمومًا سبق أن نشأت في أوربا قبل أن تطل بظلامها على الديار الإسلامية، ويرى كثير من الباحثين أن ظهورها في أوربا كان في الفترة التي كان رجال الفكر والتحرر -كما يسمون أنفسهم- يبحثون عن بديل للعقيدة النصرانية الخرافية الجائرة، والانفلات من قبضة رجال ذلك الدين الجامد المتخلف، وكان ذلك في حدود القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، واشتد عودها في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أثنى دعاة القومية على الثورة الفرنسية التي كانت هي البداية الأولى لظهور القوميات، حيث عُرِفَ بعدها أن الحكم يجب أن يكون للشعوب وليس لفئة من الناس هم الحكام، وأن الحرية يجب أن تشمل جميع الأمة بالتساوي، وشعار الجميع الإخاء، وأصبح هذا المبدأ الثلاثي: الحرية، المساواة، الإخاء، هو مصدر إلهام الجماهير في زعم دعاة القومية.

وقد زعموا أن القومية العربية إنما أثارها التوجه الأوربي للقومية، حيث نشأ دعاة القومية العربية متأثرين بذلك التيار في أوربا، فأصبحوا يلهثون للحاق بركبهم، والواقع أن الذي أثار القومية العربية وكان لهم اليد الطولى في الدعوة إليها في بلاد المسلمين، إنما هم النصارى العرب لإدراكهم فائدة التفاف العرب المسلمين على القومية بدلًا عن الدين الذي لا يتوافق مع دمج المسلم وغير المسلم في حظيرة واحدة، فجاء القوميون العرب من النصارى وغيرهم وأخذوا يكيلون المديح

لهذه القومية، وأن العرب في حاجة شديدة إلى قيامها إن أرادوا العزةَ والمنعةَ، واحترام سائر الأمم لهم بزخرف من القول، وظلت تستعر نارها، وتشتد تدريجيًّا من معين الحقد على الدولة العثمانية.

ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلةً في حركة سرية تألفت من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرًّا لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٢م.

وفيما يلي إشارة إلى أهم الجمعيات ذات التوجه القومي حسب التسلسل التاريخي:

- الجمعية السورية: أسسها نصارَى منهم: بطرس البستاني وناصيف اليازجي سنة ١٨٤٧م في دمشق.
- الجمعية السورية في بيروت: أسسها نصارى منهم: سليم البستاني ومنيف خوري سنة ١٨٦٨م.
- الجمعية العربية السرية: ظهرت سنة ١٨٧٥ ميلادي، ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا.
- جمعية حقوق الملة العربية: ظهرت سنة ١٨٨١ ميلادي، ولها فروع كذلك، وهي تهدف إلى وحدة المسلمين والنصارى.
- جمعية رابطة الوطن العربي: أسسها نجيب عازوري سنة ١٩٠٤م، بباريس وألف كتاب (يقظة العرب).

-جمعية الوطن العربي: أسسها خير الله سنة ١٩٠٥م بباريس، وفي هذه السنة نشر أول كتاب قومي بعنوان (الحركة الوطنية العربية).

-الجمعية القحطانية: ظهرت سنة ١٩٠٩م وهي جمعية سرية من مؤسسيها خليل حمادة المصري.

-جمعية العربية الفتاة: أسسها في باريس طلاب عرب منهم محمد البعلبكي سنة ١٩١١م.

-الكتلة النيابية العربية: ظهرت سنة ١٩١١م.

-حزب اللامركزية: سنة ١٩١٢م.

-الجمعيات الإصلاحية: أواخر ١٩١٢م، وقد قامت في بيروت ودمشق وحلب وبغداد والبصرة والموصل، وتتكون من خليط من أعيان المسلمين والنصارى.

-المؤتمر العربي في باريس: أسسه بعض الطلاب العرب سنة ١٩١٢م.

-حزب العهد: ١٩١٢م وهو سري، أنشأه ضباط عرب في الجيش العثماني.

-جمعية العَلَم الأخضر: سنة ١٩١٣م، من مؤسسيها الدكتور فائق شاكر.

-جمعية العلم: وقد ظهرت سنة ١٩١٤م، في الموصل.

هذا، وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها، ولم تصبح تيارًا شعبيًّا عامًّا إلا حين تبنى الدعوة إليها الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، حين سَخَّر لها أجهزة إعلامية وإمكانات دولته.

ويمكن أن يقال: إنها الآن تعيش فترة انحسار أو جمود على الأقل.

وكذلك أصبحت الدعوة في تركيا إلى القومية الطورانية التركية، والذين دعوا إلى القومية الطورانية التركية كانوا من اليهود، وهذا شيء ثابت؛ حتى إن أحد المؤرخين الأمريكان اسمه "واتسون" يقول: إنه لا يوجد أحد في حركة الاتحاد والترقي -الحركة القومية التركية- من أصل تركي حقيقي، وإنما هم من اليهود وغيرهم، أي: يدعون إلى القومية التركية وليس فيهم رجل واحد من أصل تركي. والذين يدعون إلى القومية العربية ليس فيهم مسلم، وأكثرهم أيضًا أصولهم أعجمية ونصارى.

أهم مشاهير دعاة القومية

١. أبو خلدون ساطع الحصري:

لقد تفانى هذا الشخص في الدعوة إلى القومية العربية بخصوصها، وأعاد وأبدى فيها وجعلها دينه ومصدر إلهامه عليها، عليها يوالي وعليها يعادي؛ لحاجة في نفس يعقوب، وغرضه ربط العرب بها بدلًا عن ربطهم بدينهم وربطهم كذلك بالغربقلبًا وقالبًا. ومن الغرائب أن بعض الباحثين يذكر أن لغته الأصلية الأولى هي التركية وليست العربية، فما الذي حمله على هذا التقديس للعربية والتعصب لها؟

وقد تأثر في دعواه إلى القومية بالقومين الأوروبيين وحذا حذوهم، إلا أنه كان يرى أن القومية ترتكز على أمرين هما: وحدة الأمة، ووحدة التاريخ، دون ما سواهما، خصوصًا الدين الذي تواطأ على إبعاده جميع القوميين، تنقل في مناصب مختلفة أهمها شغله وزارة التربية، وقد وصف بأنه فيلسوف الفكرة

القومية العربية، ومرجعُ القوميين العرب، وقد جد في دعوته إلى القومية بحذر شديد، فكان يساير الحكام والمذاهب المختلفة الملحدة وغير الملحدة مع غمزه في دين الإسلام، وتفضيل رباط القومية على رابطة الإسلام، وأن الإيمان بالقومية العربية يجب أن تكون في حسبان كل عربي، وأن تجتمع الكلمة عليها قبل كل شيء، وأن انضمام الأقوام الذين يتكلمون لغة واحدة وتاريخهم واحد، وآمالهم وآلامهم واحدة، يجب أن يجعلوا القومية هي الرباط العام بينهم، ويجب أن تقوم دولتهم وثقافتهم عليها.

وأنحى باللائمة في تأخر ظهور القومية إلى تمسك الناس بحكامهم ولم يقل بدينهم؛ حذرًا منه حسب تعاليم الأديان، وكان هؤلاء يعيقون تطلع الشعوب إلى الانضواء تحت راية القومية؛ لئلا يضعف الولاء للحكام حسب زعمه، وكان دائمًا يثير الحماس في نفوس العرب، ويبشرهم بأن النصر سيكون في النهاية للقومية، وأنها ستكون هي الرباط الوحيد بين الشعوب وليس الإسلام الذي يطلب أن تقوم الشعوب -بزعمه- على التعصب له بعد أن تعقدت الأمور، وظهرت النوازع السياسية المختلفة، وتغير مفاهيم الناس.

٢. مصطفى الشهابي:

كان من النشطاء في الدعوة إلى القومية العربية، وكان يسميها عقيدة القومية العربية، وأن من يناضل في سبيلها فيصاب يسمى شهيدًا عنده، وزعم كذلك أن الناس في القديم كانوا يجتمعون على رابطة التدين، ولكن حينما ظهرت العقيدة القومية أظهرت تفوقًا كبيرًا على رابطة التدين، وأن العرب أحسوا حينما تمسكوا بالقومية أنهم سيحققون كل ما يريدونه لشعوبهم في السياسة وفي الاقتصاد وفي

جميع مرافق الحياة؛ بسبب وجود جامع اللغة فيما بينهم على مختلف ديارهم، مضافًا إليها تاريخهم المشترك الذي لا يجدون فيه ما كان بين أسلافهم من التكاتف والتفاني، وما قدموه من خدمة لبعضهم بعضًا على مر التاريخ، وما أدت إليه هذه المواقف من قوة ومنعة وصمود في وجوه أعدائهم من غيرهم بزعمه!!

فانظر كيف يرمي بأنظار الناس إلى التاريخ الجاهلي، ويتناسَى فضل الإسلام، وكان يردد دائمًا: أن الفرق بين القومية العربية والإسلام أن القومية أدق وأقوى في الارتباط؛ لأن العقيدة الإسلامية لم تقتصر على ما اقتصرت عليه القومية من شد أزر العرب فقط، وإنما كانت شاملة للعرب وغيرهم؟!

ويرى أن رباط الإسلام لا يهتم بالعرب، ولا يجعل لهم مزية على غيرهم، أو احترامًا لحقوقهم خاصةً بهم، ولا يعطيهم التميز الذي تعطيه لهم القومية العربية، وهو تحريض سافر على إقصاء الإسلام عن الحياة.

٣. محمد معروف الدواليبي:

من مشاهير دعاة القومية العربية والمغالين في تقديسها، وقد زعم أن العرب قبل أن ينتبهوا للقومية العربية كانوا في فراغ مميت وانحطاط شديد، وأن ظهور دعاة القومية العربية من تباشير الخير العميم، ودعا بكل حرارة إلى أن يجند كل عربي نفسه لخدمة القومية، وإعلاء شأنها، والإيمان الراسخ بعقيدة انتشار القومية، وانضواء كل العرب تحت رايتها التي سترفرف فوق كل بلد عربي، ويستظل بظلها كل عربي.

وكان يعتقد أن على العرب ألا ينظروا إلى رابطة الدين وانضواء الناس على مختلف لغاتهم تحت لوائه؛ لأن هذه النظرة الشاملة ليست هي القومية العربية

الخالصة التي يجب أن تقدم على الروابط العامة ؛ لأن رابطة اللغة العربية -من وجهة نظره- هي الأساس قبل الإسلام وبعده، وكان العرب قبل الإسلام على مذاهب وأفكار شتى من جاهليين ووثنيين، ونصارى ويهود، ولم يكن لهم رابط إلا اللغة العربية والتاريخ المشترك وهو يهدف إلى إقصاء فكرة أن الدين الإسلامي يجب أن يكون هو الرابط العام، ولكن لا أدري لو سئل هذا السؤال: وكيف كان حالهم حينما كانوا لا تربطهم إلا اللغة والتاريخ المشترك قبل الإسلام، لا أدري بماذا سيجيب؟

وله مبالغات في مدح اللغة واجتماع كل أمة عليها، وأنها مصدر إلهام ومحبة وتوافق، وأن الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها يجب أن يستنيروا بالقومية في جميع مجالات حياتهم، وما داموا كلهم يتكلمون اللغة العربية...

إلى آخر ما عنده من الترهات والهَذيان.

٤. جمال عبد الناصر:

ومن المشاهير في تقديس القومية رئيس مصر جمال عبد الناصر، الذي كانت له صولات وجولات وألقاب فخمة، وتزعم في هذا العصر الدعوة إلى القومية العربية، وعمل ما في وسعه في سبيل تقويتها وانتشارها، بل وجعلها دينًا مقدسًا وعقيدة أساسية، واستحوذ على كثير من مصادر الإعلام في وقته، وسخرها لترديد أفكاره القومية، وتمجيد العروبة، وأنها هي المنقذ الوحيد لإزالة المستعمرين، والطريق القويم إلى التقدم ونبذ الرجعية. وأن العرب سيعيشون في الجنة التي وعدهم بها الدين، سيعيشونها في هذه الدنيا تحت ظل راية القومية العربية إن استقاموا على الالتزام بتقديس القومية والاشتراكية.

وكانت له صولات وجولات ودعايات هائلة حتى مَرَّغَ الله أنفَه تحت رجليه بهزيمته أمام إسرائيل في دقائقَ معدودة، فإذا بهذا الجبار الذي كان يمدح بأنه أبو الأحرار، وقامع الرجعية، ورائد العروبة !! و.. و.. بل كان يقال: لن ننهزم وناصر فينا، ثم انحلت المعركة عنه، فإذا به دمية صغيرة، وأن فأسه كان من طين، ولقي الخِزي والهوان وهو ينظر إليه.

أثر القومية على العالم الإسلامي

من هنا يجد الإنسان المفارقةَ، ويعلم أنها كانت كلها تهدف لتحقيق التمزق والفُرقة بين المسلمين؛ لمعرفتهم بأخطار الحركة القومية في أوربا التي قد عانت وذاقت الأمرَّين من الفكر القومي، والتمزق القومي، فجاءت وصُدِّرت هذا الفكر إلى العالم الإسلامي، في حين بدأت هي تكوِّن التحالفات والتكتلات الأممية والعالمية التي ظهرت في الحرب العالمية الأولى، ثم في الثانية، وبعد الحرب العالمية الثانية انتهت القوميات في أوربا واختفت.

والآن يريدون إخفاء الوطنيات تمامًا لتصبح أوروبا أمةً واحدةً لا وطنيةَ فيها فضلًا عن القومية، ولأنهم ذاقوا مرارة القومية فأرادوا أن يُصدِّروها؛ لتفتيت العالم الإسلامي؛ فظهرت الدعوة الطورانية أو التركية، وأرادت أن تفرض اللغة التركية على جميع العرب، وفي المقابل ظهر الدعاة القوميون العرب -وأكثرهم من النصارى، ثم تبعهم الشيعة والدروز وأمثالهم، ينادون بالعروبة واللغة العربية والأمة العربية.

في الحرب العالمية الأولى كانت البداية عندما اتفق فيما يسمى اتفاقية "سايكس بيكو" على تقسيم الخلافة العثمانية بين دول الغرب، فجاءت الحركة القومية

العربية وجيشت جيوشًا ؛ وحاربت مع الإنجليز ضد الدولة العثمانية ، فعندما أراد الصليبيون أن يدخلوا إلى القدس كانت رايتهم تضم جموعًا عديدة ؛ منها : الإنجليز ، والعرب القوميون -الذين انضموا إلى الإنجليز في قتال إخوانهم في الإسلام "الترك"- ودخل الإنجليز القدس ، وبانتهاء الحرب العالمية انتهت الخلافة العثمانية تمامًا ، وتمزق العالم الإسلامي ، ونفذت اتفاقية "سايكس بيكو".

وظهرت الأفكار الوطنية والقومية ، وكانت في مصر أكثر ما تكون وطنية ، وأما في بلاد الشام فإنها كانت قومية.

ثم تطورت الحركة القومية وجمعية العربية الفتاة -كما يسمونها- وحرصت على تأسيس رابطة قومية تجمع العرب ، وبارك الغرب هذه الرابطةَ وشجعها ؛ بل إن الذي اقترحها في الأصل كمنظمة هو "أنطونيو إيدن" الذي كان وزيرَ خارجية بريطانيا ، ثم أصبح رئيس وزراء بريطانيا ، فاقترح فكرة إنشاء جامعة الدول العربية ، فأنشأ بروتوكول الإسكندرية ثم جامعة الدول العربية.

وكان الذين أسسوها واجتمعوا ووقعوا ميثاقها هم -قبل قيام هذه الجامعة- كانوا أعضاء في جمعية العربية الفتاة وأشباهها من الجمعيات التي كانت قائمة في ذلك الزمن ، وأوضح الكتب على هذا كتاب (نشأة القومية العربية) لمحمد عزت دروزة ؛ لأنه كان واحدًا منهم ، وكذلك الشاعر خير الدين الزركلي صاحب (الأعلام) ، واحدًا من هؤلاء القوميين ، وشعره وحياته يذكر فيها هذا الشيء كذلك.

رئيس بلاد الشام شكري القوتلي :

كان من جمعية العربية الفتاة ، ووقَّع ميثاق جامعة الدول العربية ، فنشأ الفكر القومي بعد ذلك حتى قامت ثورة الحزب البَعثي ، واستطاع بقيادة "ميشيل عفلق"

أن يؤسس فكرة عقيدة قوية جدًّا تحكم -الآن- العراق وسوريا، وله وجود قوي في ليبيا وفي السودان وهم -الآن تقريبًا- أقوى حزب في موريتانيا.

وبعد الحرب العالمية الثانية نُسيت القوميات تمامًا في أوربا، فأصبحت التكتلات عقائدية وعسكرية، وأصبحت أوربا في الحقيقة معسكرين: حلف وارسو، وحلف الناتو شمال الأطلسي، فأما حلف شمال الأطلسي فيضم الولايات المتحدة الأمريكية ومعه دول غرب أوربا كلها على اختلاف مللها ومذاهبها الدينية وقومياتها. وأما حلف وارسو فيضم الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية الشيوعية على اختلاف أجناسها وأعراقها، التي أصبحت كتلةً واحدةً بعد الحرب العالمية الثانية التي انتهت عام ١٩٤٥م.

وبعدها وُقع ميثاق جامعة الدول العربية؛ ثم ظهرت هذه الأحزاب وأسس حزب البعث، فلما ظهر المعسكر الشرقي الاشتراكي اندمجت الفكرة الاشتراكية في الحركات القومية والوطنية؛ لأنها كلها مستوردة من الغرب، فقامت الثورة المصرية، وحَوَّلَها جمال عبد الناصر من فكرة وطنية إلى فكرة قومية، وقَبْل جمال عبد الناصر لا تجد في مصر إلا إشارات إلى العرب أو العروبة ككل، وإنما كانت الفكرة الراسخة في مناهج التعليم، وفي الصحافة والإعلام والشعر، هي الشعارات الوطنية الفرعونية...إلخ. وبعد أن جاء جمال عبد الناصر أنشأ إذاعة صوت العرب، والصحافة العربية، والفكر العربي، والأمة العربية من المحيط إلى الخليج، فأجج الفكر العربي القومي.

وفي المقابل -أيضًا- جاء البعثيون بشِعار: أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، فكان هذا هو شعار حزب البعث، فبدءوا ينشرون هذا المبدأ، وكان الصراع على أشده بين هؤلاء وهؤلاء، مع أن جمال عبد الناصر دعا إلى الاشتراكية مع

القومية العربية، وأولئك مع الوَحدة العربية دعوا إلى الاشتراكية؛ إذًا هؤلاء اشتراكيون وهؤلاء اشتراكيون، لكن الخلافات الحزبية بينهم، واختلاف الولاءات، هذا مع الغرب وهذا مع الشرق كانت على أشدها. والذي يجمع الجميع أنهم لا يريدون الإسلام، فالغرب سواء كان شرقًا أو غربًا لا يريد أن يكون هناك أي تجمع باسم الإسلام، كما عبر "لويس" وغيره في أوضح ما يمكن، فقال: "إن الغرب أراد ألا يكون هناك أية رابطة أو جامعة إسلامية، وإنما يكون المبدأ القومي هو الذي يجمع هذه الشعوب جميعًا".

موقف الإسلام من الدعوة إلى القومية

إن أول ما يدل على بطلان فكرة القومية وأنها شر لا خير فيها، أن وراء قيامها اليهود والنصارى وسائر الملاحدة، فماذا ننتظر أن تأتي به من الخير للبشرية أو للمسلمين بخصوصهم بعد هذه التيارات المنشئة لها؟!!

ألم يكن غرض القوميين هو تفتيت أي مجتمع متماسك والانفراد بكل تجمع لا يتفق وأهدافهم؟ ألم يتفرق المسلمون بعد دخول القوميات بينهم اعتزاز كل قطر بقوميته، ومآثره الجاهلية؟ وأصبح المسلمون بصفة عامة لا يلوي بعضهم على بعض بعد أن تقطعت الدولة الإسلامية إلى أوصال ممزقة، يقاتل بعضهم بعضًا في حروب أهلية، تأخذ الأخضر واليابس، والقومية تمدهم بكل المبررات لهذا السلوك الذي حذر منه الإسلام؟

وبالرغم من تلك المناداة الجوفاء التي أطلقها دعاة الفكرة القومية من أن الناس سيعيشون في منتهى السعادة حينما يطبقون تعاليم القومية بحذافيرها، وأن كل قطر يلتزم بها سيصبح محترمًا، فكانت النتيجة أن حَل بهم الشقاء والذل، سواء

أكانوا من العرب أو من غيرهم، بل لقد شقي بها مَن كان مهد نشأتها من الدول الأوربية، ونداءات مَن ينتسبون إلى العرب بخصوصهم إنما هي دلالات على حمقهم ورعونتهم، وإلا فأي مستند لهم أفي القرآن الكريم؟ أم في السنة النبوية؟ هل وجدوا نصًّا فيهما يمجد العروبة أو يدعو إليها؟

كلا، نعم ورد في القرآن الكريم ما يفيد نسبة الشخص إلى قومه، وهذا معروف، فإن لكل شخص قومًا، وفيه نسبه بحسب الواقع، وهي أمر معروف وبدهي، وليس في القرآن الكريم الافتخار بالقومية أو الدعوة إلى التجمع حولها، أو جعلها بديلًا عن الدين، بل ما ورد في السنة يدل على عكس ذلك، حيث وصفها الرسول ﷺ بأنها دعوى جاهلية، وأنها خبيثة يجب الانتهاء منها.

ودعاة القومية تجدهم في تلمسهم لأي أمر يمدحون فيه القوميات الجاهلية، يذكرون بعض الصفات الحميدة من الصدق والكرم والشجاعة والإيثار، ونحو ذلك، ويجعلونها حضارة عريقة لهم ويهولون من أمرها؛ ليحببوا الناس إلى الرجوع إليها. ويذكرون كذلك بعض الآثار من العمران أو التحف، ثم يقفون أمامها خاشعين ذليلين، زاعمين أن أهل العصور المتأخرة لا يمكنهم بحال عمل ذلك، أو ما يقاربه؛ وذلك ليملئوا فراغ قلوب من يصغون لكلامهم ممن قصر فَهمهم للإسلام.

ومن غرائب الأمور أن ينادي القوميون سواء أكانوا من العرب أو من غيرهم، بأن في التمسك بالقومية تحقيقًا للوحدة والتآلف، فهل تمت الوحدة الشاملة التي ينادي بها زعماء القومية العربية أو غيرهم؟ أم أن القومية كانت هي المعول الهدَّام للوحدة في كل بلد حلت به من بلدان العرب أو من غير العرب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

لقد ظن دعاة القومية - إن أحسنا بهم الظن - أنها رابطة حقيقية لتوحيد من يتعصبون لهم أيًا كانت تلك القومية ؛ إما وطنية أو اللغة بعينها، أو تاريخًا مشتركًا، ولكنها في الحقيقة سَراب: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

فقد ثبت بتجارب الأمم على مر التاريخ أن الذي يوحد الناس حقيقة، ويؤلف بين قلوبهم ويجعلهم كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، إنما هو الالتزام بمنهج الله تعالى ودينه القويم، وما عدا ذلك فإنه خُدع وتضليلات يُراد من ورائها مصالح بشرية تزول بزوال تلك المصالح، شأن التشريعات والاجتماعات الجاهلية التي أبت شرع الله تعالى، ورضوا بالتحاكم إلى الطاغوت، والاجتماع على ما يمليه عليهم.

وعلى القوميين أن يتفهموا مقالة الناس: "الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل"، أو قولهم: "الاعتراف بالحق فضيلة".

لم يكن لدعاة القومية أسس خاصة في الدعوة إليها، وأنى يجدون ذلك وهم مختلفون فيما بينهم اختلافًا كثيرًا، فلم يجدوا غير آراء تصوروها لبناء القومية، ثم اختلفوا أيضا فيها - شأن الباطل دائمً.

وقد عرفتَ فيما سبق أن من القوميين مَن ذهب إلى أن أساس القومية هو الاتحاد في اللغة، ومنهم من قال: الاتفاق في التاريخ، ومنهم من جعلها الأرض، ومنهم من قال: هي المصلحة المشتركة بين أفراد الأمة، وجعل سبب اختلافهم يعود إلى هذه الآراء التي لا تركن إليها النفس تمامًا، ولا تصل إلى حد القناعة التامة، فلهذا كل أدلى بدلوه، أو رمَى بحجره عله يصيب.

أ. أما اللغة:

فالقول بأنها رباط قومي، كذِب ينقضه واقع حياة الناس، فقد وقع أن أممًا كثيرة تتكلم لغةً واحدةً، ولكن بينهم من التفاوت بل والعداوة ما لا يخفَى، وفي المقابل فإنه قد تجمع أقوام واتحدوا مع أنهم يتكلمون لغات مختلفة، مثل سويسرا اتحدوا مع أنهم يتكلمون ثلاث لغات.

ب. وأما التاريخ:

فإن التاريخ مراحل تمر بها البشرية تشتمل على صعود وانحدار، على خير وشر، وتقدم وتأخر في جميع نواحي الحياة، ويحوي كذلك اختلافات كثيرة؛ أما بالنسبة للمسلمين فإن تاريخهم الحقيقي المشرق إنما يبدأ بظهور الإسلام، يحنون إليه خلفًا عن سلف، إلا من أفسدت الحضارة الأوربية فطرته منهم، حين يحن إلى الحضارات الجاهلية السابقة، ويتباكى عليها ويفتخر بها.

ج. أما الأرض:

فقد صادف دعاة القومية في بناء قومياتهم على الأرض المشتركة متاعب وتناقضات جمة، وذلك أن الذين يتكلمون لغة واحدة وفوق أرض واحدة، ليس بالضرورة أن يكونوا كلهم من جنس واحد، و على لغة واحدة، من البداية إلى النهاية في أي أرض، فقد تنشأ لغة جديدة في بلد وتنتهي عن بلد لأمور كثيرة اعتقادية أو سياسية، إذ لا يمكن لأي أمة أن تدعي أنه لا يوجد لأي شخص بينهم انتماء إلى غيرهم.

ومن الأمثلة القريبة على ذلك الأمة العربية قبل الإسلام وبعده، إذ أنه قبل الإسلام كانت الأرض العربية هي شبه الجزيرة، ولكن بعد مجيء الإسلام دخلت أمم أخرى في الإسلام، وحين أن الإسلام لا يشعِر أحدًا بأنه غريب عنه، وأن الأرض كلها مخلوقة لأجله، فقد دخلت تلك الأمم في الإسلام، وأحبوه وأحبوا لغته وصارت هي اللغة الأساسية بينهم، كمصر والمغرب وغيرهما من البلدان التي أصبحت غربية، تعتز بدينها ولغتها، فهل يقال: إن الأرض هي التي وحدت بينهم وبين سائر إخوانهم العرب المسلمين؟ إن قالوا هذا، فقد ظهر كذبهم، وإن قالوا: إنه الإسلام، فقد قالوا بالحقيقة التي تناقض دعواهم صلاحية التجمع القومي على الأرض بدلًا عن الإسلام.

إن الإسلام لا يقف في طريق الشخص إذا انتسب لقومه أو لوطنه أو لأهله، بل إنه يشجِّع هذا المسلك ويحبذه إذا كان على أساس التواصل وصلة الرحم، بل أخبر الله -تبارك تعالى- أن انقسام الناس إلى شعوب وقبائل هو الحكمة بينها ﷻ بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد نهى الرسول ﷺ أن ينتسب الشخص إلى غير أبيه، أو ينتمي إلى غير مواليه، ولا يمنع كذلك أن ينتسب الإنسان إلى الوطن الذي يعيش فيه، ولا لومَ عليه إذا أحبه لا على أساس الفخر الجاهلي، وإنما لأنه وطنه، آواه، فإن تلك الأمور كلها لا حرجَ فيها، وواقع تعيشه البشرية كلها، ولا يمنعها الإسلام، إلا في حالة واحدة وهي الحالة التي يصبح ولاء الناس ومعاداتهم ومحبتهم واجتماعهم وافتراقهم كله قائم على دعوى القومية، والتعصب لها، وتقديمها على الأخوة الإسلامية.

وأما حينما يصل التعصب للقومية إلى أن يقدم الشخص ولاءَه ومحبته للآخر؛ لأنه من قومه، بينما يبتعد عن الآخر من غير قومه حتى وإن كان صالحًا تقيًّا، فهذا لا يعترف به الإسلام بل تعترف به القومية الجاهلية، وما أكثر ما ورد عن سير السلف الصالح -رضوان الله عليهم- من الصحابة ومَن بينهم إحسان، ما أكثر ما ورد عنهم تقديم أخوة الإيمان على أخوة النسب أو الدم، ولنا في مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار في أول الإسلام خير شاهد على ذلك، فإن قصصهم العطرة وسيرتهم المرضية لا تزال تضيء نورًا وهاجًا، وعبيرًا فواحًا إلى يومنا هذا؛ تخليدًا من الله -تبارك تعالى- لهم، وإكرامًا لأوليائه.

وأما القومية العربية التي دعا إليها ساطع الحصري فهي قومية جاهلية مغرضة، لها نفس الأهداف التي كانت نُصب أعين المتربصين بالإسلام، كما أنه هو نفسه أحد أولئك وإن ظهر بمظهر الغيور على مجد العرب كما يزعم، فإن العرب لا مجدَ لهم بغير الإسلام، بل هم أمة كانوا في حمئة الجاهلية كسائر الأمم، حتى أنقذهم الله بالإسلام، ورفع شأنهم به، ومن زعم غير هذا فقد جانب الحقيقة، وكذَب على التاريخ، وتشبع بما ليس فيه، ولا قيمةَ لأمجاده التي يزعمها قبل الإسلام، فإن زعمه هذا هو من جنس مزاعم هذا العصر المعكوسة التي تسمي الأشياء بغير اسمها، فتستحل الحرام وتحرم الحلال بذلك، حيث أضحت الخمر مشروبات روحية، والربا فائدة، والزنا حرية شخصية، وعداوة الآخرين من غير وطنه وطنية، والآراء الفاجرة حرية الكلمة، واحترام الماديات والعلامات، وبعض الأماكن واجب وطني، لا يجوز الخروج عليه، والمساس به، وكأنه جزء من الدين.

فما الذي يبقى لله -تبارك تعالى- في قلب اقتنع بترهات القوميين، ونسي أن المجد الحقيقي إنما هو في اتباع النور الذي أنزله الله -تبارك تعالى.

العولمة والروحية

عناصر الدرس

تعريف العولمة، وبيان أهدافها

من المذاهب الفكرية المعاصرة الهدامة في هذا العصر: العولمة، والروحية، حيث إن الأولى لها طابع اقتصادي في الظاهر، وأما الثانية فلها طابع روحي عقائدي.

أولًا: تعريف العولمة، وأهدافها:

العولمة: لفظ مأخوذ من عالَم، وكما أن الناس اختلفوا فيها ما بين مندد ومسدد، فقد اختلفوا كذلك في تعريفها، ولكن يكاد يتفق الجميع على حد أدنى، وهو اصطباغ عالم الأرض بصبغة واحدة شاملة لجميع من يعيش فيه، وتوحيد أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية من غير اعتبار لاختلاف الأديان والثقافات، والجنسيات والأعراق.

فمهما تعدّدت السياقات التي ترِد فيها العولمة، فإن المفهوم الذي يعبّر عنه الجميع في اللغات الحيّة كافة، هو الاتجاه نحو السيطرة على العالم وجعله في نسق واحد. ومن هنا جاء قرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة بإجازة استعمال العولمة بمعنى: جعل الشيء عالميًّا. وكل هذا لا يخرج عن اعتبار العولمة -في دلالتها اللغوية أيضًا- هي جعل الشيء عالميًّا، بما يعني ذلك من جعل العالم كلِّه وكأنه في منظومة واحدة متكاملة. وهذا هو المعنى الذي حدّده المفكرون باللغات الأوربية للعولمة "Globalization" في الإنجليزية والألمانية، وعبروا عن ذلك بالفرنسية بمصطلح "Mondialisation"، ووضعت كلمة العولمة في اللغة العربية مقابلًا حديثًا للدلالة على هذا المفهوم الجديد.

وتظهر مشكلة العولمة في هذا التعريف، فطالما أن الأعراق متنوعة، والثقافات متعددة، والأديان مختلفة، والأهواء متباينة، فمَن يحكم هذه الصبغة الواحدة؟

من يضع ضوابطها ويحدد قوانينها؟ ثم كيف يُلزَم تاجر صغير كان يعيش في أرضه آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، بمزاحمة غيره من العمالقة له في أرضه؟ وإذا كان هذا محتملًا لكون العصفور يرزق مع النسر، وتلك الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا؟ فبأي مبرر تلغَى عادات الناس وأنماطهم الاجتماعية؟ ومن الذي يضع الصبغة الجديدة للوحدة الاجتماعية؟ وكيف ألزم بلايين البشر بغسل أدمغتهم، وتنظيفها من فكرهم الأصيل لآخر دخيل؟

ولهذه الإشكالات وغيرها كان من الطبيعي أن يكون في المجتمعات الإسلامية والعربية شبه إجماع بين أطراف الرأي العام السياسي فيها، ماركسيهم وقوميهم وإسلاميهم، يقول: بأن العولمة بالموجهات الرئيسة التي تحركها لا تتضمن أي جديد، بل هي شكل من الاستعمار لا تختلف في أهدافها عن أهداف الموجات الاستعمارية السابقة. فلا يمكن لرأس المال المهيمن، وللشركات العملاقة المتعددة الجنسيات أن تنزع نحو أهداف أخرى غير السيطرة على الأسواق وغزو موارد الكوكب، واستغلال العمل المأجور والرخيص أنّى وجد. والفرق بين المشروعين الاستعماريين، القديم والجديد، هو أن المشروع الجديد يحتاج إلى التأقلم مع الظروف العالمية التاريخية المتغيرة، أي: صعود هيمنة الولايات المتحدة الأحادية على العالم، وتحويل حلف شمال الأطلسي إلى التحالف العسكري السياسي الوحيد في العالم، في خدمة مجموعة صغيرة من الدول الصناعية.

كما أن الاستعمار الجديد يستخدم خطابًا للمشروعية يشدد على قيم نشر الديمقراطية، واحترام حقوق الشعوب، بدل الخطاب الذي حرك قوى الاستعمار الأسبق الذي ركز بشكل رئيس على قيم تمدين الشعوب الهمجية، أعني: كل الشعوب غير الأوربية، وتحضيرها أو إدخالها في الحضارة الفعلية. ولئن كانت للاستعمار الأول أشكال تدخله أشكال تدخُّله العسكرية، فإن الاستعمار الجديد

يعمد إلى إلى أساليب جديدة لا تقل فعاليةً عن السابقة على الرغم من أنها اتسمت بقسط أكبر من الأغطية القانونية.

ثانيًا: نشأة العولمة، وتطورها:

اختلف الباحثون في التأريخ لنشأة العولمة على قولين:

الأول: يرى بعض الباحثين أن ظاهرة العولمة قديمة، عمرها خمسة قرون، أي: ترجع إلى القرن الخامس عشر -زمن النهضة الأوربية الحديثة- حيث التقدم العلمي في مجال الاتصال والتجارة، ويدل على ذلك: أن العناصر الأساسية في فكرة العولمة وهي: ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم، سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات، أو في انتقال رءوس الأموال، أو في انتشار المعلومات والأفكار، أو في تأثر أمة بقيم وعادات غيرها من الأمم يعرفها العالم من ذلك التاريخ.

ولكن يقال: ثمة أمور مهمة جديدة طرأت على ظاهرة العولمة في السنوات الثلاثين الأخيرة منها:

- اكتساب تيار العولمة مناطق مهمة في العالم كانت معزولةً، ومن هذه المناطق الدول الأوربية الشرقية والصين.
- الزيادة الكبيرة في تنوع السلع والخدمات التي يجري تبادلها بين الأمم والشعوب، وتنوع مجالات الاستثمار التي تتجه إليها رءوس الأموال.
- سيطرة تبادل المعلومات والأفكار على العلاقات الدولية.
- ارتفاع نسبة السكان في دخل كل دولة التي تتفاعل مع العالم الخارجي.

- النشاط المتزايد والفعال للشركات المتعددة الجنسيات في مجال تبادل السلع وانتقال رأس المال والمعلومات والأفكار، واتخاذها العالم كله مسرحًا لعملياتها في الإنتاج والتسويق، وما تبع ذلك من هدم الحواجز الجمركية، وإلغاء نظام التخطيط، وإعادة توزيع الدخل، والنظر في دعم السلع والخدمات الضرورية للسكان، وتخفيض الإنفاق على الجيوش والجانب العسكري.

الثاني: يرى فريق آخر أن العولمة ظاهرة جديدة، فما هي إلا امتداد للنظام الرأسمالي الغربي، بل هي المرحلة الأخيرة من تطور النظام الرأسمالي العلماني المادي النفعي، وقد بَرزت في المنتصف الثاني من القرن العشرين نتيجة أحداث سياسية واقتصادية معينة؛ منها: انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦١م، ثم سقوط الاتحاد السوفيتي سياسيًّا واقتصاديًّا عام ١٩٩١م، وما أعقبه من انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالتربععلى عرش الصدارة في العالم المعاصر، وانفرادها بقيادته السياسية والاقتصادية والعسكرية؛ ومنها: بروز القوة الاقتصادية الفاعلة من قبل المجموعات المالية والصناعية الحرة عبر شركات ومؤسسات اقتصادية متعددة الجنسيات، مدعومة بصورة قوية وملحوظة من دولها.

يرى "توماس فيردمان" الصحافي اليهودي الأمريكي الذي يكتب في "نيويورك تايمز": إن العولمة الحالية هي مجرد جولة جديدة بعد الجولة الأولى التي بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بحكم التوسع الهائل في الرحلات البحرية باستخدام طاقة البخار، والتي أدت إلى اتساع حجم التجارة الدولية بشكل لم يسبق له مثيل.

ويرجع صاحبا كتاب (فخ العولمة) البداية الحقيقية للعولمة إلى عام ١٩٩٥م، حيث وجّه الرئيس السوفيتي السابق "غوربا تشوف" الدعوةَ إلى خمسمائة من قادة العالم في مجال السياسة والمال والاقتصاد في فندق "فيرمونت" المشهور في "سان فرانسيسكو"؛ لكي يبنوا معالم الطريق إلى القرن الحادي والعشرين. وقد اشترك في هذا المؤتمر المغلق أقطاب العولمة في عالم الحاسوب والمال وكذلك كهنة الاقتصاد الكبار، وأساتذة الاقتصاد في جامعات "ستانفورد"، و"هارفرد" و"أكسفورد"، واشترك فيها من السياسيين الرئيس الأميركي "جورج بوش الأب، ووزير خارجيته "شولتز"، ورئيسة الوزراء البريطانية "مارجريت تاتشر"، ورئيس وزراء مقاطعة "سكسونيا" وغيرهم.

ثالثًا: أبرز دعاة العولمة، ورموزها:

يعتبر "روبرت زوليك" الذي يطلق عليه البعض قيصر العولمة الأمريكي من أبرز دعاة العولمة والتجارة الحرة، وقد تم ترشيحه لرئاسة مؤسسة البنك الدولي.

والباحث الأمريكي "توماس فريدمان" ويعد من أبرز المدافعين عن الرؤية التفاعلية للعولمة.

هؤلاء بعض مشاهير دُعاة هذا المذهب في هذا العصر، وقد ذكرتهم على سبيل التمثيل وإلا فهم وغيرهم لا يمثلون حقيقة دعاة العولمة، وإنما الذي يمثلها في واقع الأمر مؤسسات وهيئات كبرى، بل وراءها دول كبرى.

يقول الدكتور مصطفى رجب: إنّه على الرغم من أن هذا السؤال يشير بصورة غير مباشرة إلى طرف خفي هو الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها تحتل في هذه المرحلة التاريخية من مراحل تطور النظام العالم مركز الصدارة. كما أنها تمثل الدولة العظمى الوحيدة التي تنفرد بالتفوق العسكري، والذي يسمح لها

بالتدخل في مختلف أرجاء المعمورة، إلا أنها ليست الدولة التي تقود العولمة. والأصح إنّ العولمة تُدار من خلال السياسات الاقتصادية والتفاعلات المالية، والضغوط السياسية لمجموعة متنوعة من الفاعلين.

وهؤلاء الفاعلون يضمون دولًا وشركات ومؤسسات دولية، أمّا الدول فهي الدول المتقدمة التي وصل فيها التطور التكنولوجي إلى ذراه، وفي مقدمتها بطبيعة الحال الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وألمانيا والاتحاد الأوربي باعتباره كتلةً واحدةً، أمّا الشركات فهي الشركات دولية النشاط التي برزت قوتها الاقتصادية الكاسحة حوالي الستينيات، ووصلت الآن إلى السيطرة على نسبة عالية من الدخل القومي العالمي.

وهناك أخيرًا المؤسسات الدولية الكبرى أبرزها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وأخيرًا أحدث هذه المؤسسات: وهي منظمة التجارة العالمية الدولية، ويمكن القول: إنّ هذه المنظمة الأخيرة التي تأسست حديثًا وكانت نتاج تطور محادثات اتفاقية "الجات" التي استمرت عقودًا، ستلعب الدور الحاسم في مجال العولمة الاقتصادية في المستقبل القريب، بحكم سياساتها المعلنة وهي حرية التجارة، وفي ضَوْء الآليات القانونية الملزمة للدول التي وقعت على معاهدتها، والتي تتضمن جزاءات اقتصادية رادعة لمن يخالف قواعدها.

كما يرى بعضهم: أنّ مؤسسة الماسونية هي وراء العولمة، وعلى الرغم من أنه لا ينبغي أن يعطَى هذا العامل أهمية أكبر من حجمها، لكن في الوقت نفسه لا ينبغي أن نغفلها كليًّا، ونتغاضَى عن كونها جزءًا من عوامل التأثير في هذا الاتجاه دون الخوض في الأدلة التي قدمها الذين أثبتوا تورط اليهود في هذا الأمر.

رابعًا: أهداف العولمة، وتأثيرها على العالم الإسلامي:

ترتبط عملية العولمة بتدويل النظام الاقتصادي الرأسمالي، حيث تمّ توحيد الكثير من أسواق الإنتاج والاستهلاك، وتمّ التدخل الأمريكي في الأوضاع الاقتصادية للدول، وخاصة دول العالم الثالث، عبر المؤسسات المالية الدولية: كصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، التي تمارس الإملاءات الاقتصادية المغايرة لمصالح الشعوب.

وبالتالي تحقق العولمة لأصحابها عدة أهدف كبيرة في المجال الاقتصادي هي:

أولًا: السيطرة على رءوس المال العربية، واستثماراها في الغرب.

ثانيًا: الهيمنة الأمريكية على اقتصاديات العالم من خلال القضاء على سلطة وقوة الدولة الوطنية في المجال الاقتصادي.

ثالثًا: تحقيق مصالح المجموعات الغنيّة في الدول الغربية والقوى المتحالفة معها في الدول الأخرى على حساب شعوب العالم.

وترتّب على هذا الهدف ما يلي:

لقد كانت نتيجة العولمة خطيرة في حياتنا الاقتصادية، فضلًا عن الجوانب الأخرى، وقد حصَرها بعض الاقتصاديين العرب بالنقاط الآتية:

١. إنهاء دور القطاع العام، وإبعاد الدولة عن إدارة الاقتصاد الوطني.

٢. عولمة الوحدات الاقتصادية وإلحاقها بالسوق الدولية؛ لإدارتها مركزيًّا من الخارج.

٣. العمل على اختراق السوق العربية من قبل السوق الأجنبي.

٤. إدارة الاقتصاديات الوطنية وفق اعتبارات السوق العالمية، بعيدًا عن متطلبات التنمية الوطنية.

٥ .العمل على إعادة هيكلة المنطقة العربية في ضوء التكتلات الدولية.

ويمكن أن يُضاف إلى ذلك:

٦. الإغواء الاقتصادي: ويعني: إغواء الدول المتواضعة تقنيًّا وعلميًّا واقتصاديًّا بمشاركة العمالقة في مشاريع عابرة القارات.

٧. السيطرة الاقتصادية ذات المظاهر المتعددة.

ثانيًا: الأهداف والآثار السياسية:

١. فرض السيطرة السياسية الغربية على الأنظمة الحاكمة والشعوب التابعة لها، والتحكم في مركز القرار السياسي وصناعته في دول العالم لخدمة المصالح الأمريكية والقوى الصهيونية المتحكمة في السياسة الأمريكية نفسها، على حساب مصالح الشعوب وثرواتها الوطنية والقومية وثقافتها ومعتقداتها الدينية.

٢. إضعاف فاعلية المنظمات والتجمعات السياسية الإقليمية والدولية، والعمل على تغييبها الكامل كقوى مؤثرة في الساحة العالمية والإقليمية.

٣. إبقاء الدول الإسلامية -خاصةً- منقوصة السيادة، حتى تبقى هذه الدول ضعيفةً وتابعةً للهيمنة السياسية الغربية.

٤. إضعاف سلطة الدولة الوطنية، أو إلغاء دورها وتقليل فاعليتها، وقتل روح الانتماء في نفوس أبنائها.

٥. إضعاف دور الأحزاب السياسية في التأثير في الحياة السياسية في كثير من دول العالم - خاصةً الدول الإسلامية.

٦. إنّ العولمة لا تكتفي بواقع التجزئة العربية والإسلامية الآن، بل تحاول إحداث تجزئة داخلية في كل بلد عربي أو إسلامي؛ حتى ينشغلوا بأنفسهم وينسوا تمامًا أنهم أمة عربية واحدة، ينتمون إلى جامعة إسلامية واحدة.

ثالثًا: الأهداف والآرء الثقافية:

تقوم العولمة في الجانب الثقافي علي انتشار المعلومات، وسهولة حركتها، وزيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات، أي: تقوم علي إيجاد ثقافة عالمية، وعولمة الاتصالات عن طريق البَث التليفزيوني عبر الأقمار الصناعية، وبصورة أكثر عمقًا خلال شبكة الإنترنت التي تربط البشر بكل أنحاء المعمورة. كما تعني العولمة الثقافية توحيد القيم، وخاصةً حول المرأة والأسرة، باختصار: تركز العولمة الثقافية على مفهوم الشمولية ثقافة بلا حدود، وآلة ذلك الإعلان والتقنيات.

ولعلّ من أخطر أهداف العولمة ما يعرف بالعولمة الثقافية، فهي تتجاوز الحدود التي أقامتها الشعوب لتحمي كيان وجودها، وما له من خصائص تاريخية وقومية وسياسية ودينية، ولتحمي ثرواتها الطبيعية والبشرية، وتراثها الفكري الثقافي، حتى تضمن لنفسها البقاءَ والاستمرارَ والقدرة على التنمية، ومن ثمّ الحصول على دور مؤثر في المجتمع الدولي.

ومن آثار العولمة في الهوية الثقافية:

شيوع الثقافة الاستهلاكي: لأنّ العولمة تمجِّد ثقافة الاستهلاك التي استُخدمت كأداة قوية فاعلة في إطلاق شهوات الاستهلاك إلى أقصى عنان، ومن ثَمَّ تشويه التقاليد والأعراف السائدة في العالم الإسلامي.

تغريب الإنسان المسلم، وعزله عن قضاياه وهمومه الإسلامية، وإدخال الضعف لديه، والتشكيك في جميع قناعاته الدينية، وهويته الثقافية.

إشاعة ما يسمى بأدب الجنس وثقافة العنف التي من شأنها تنشئة أجيال كاملة تؤمن بالعنف كأسلوب للحياة، وكظاهرة عادية وطبيعية. وما يترتّب على ذلك من انتشار الرذيلة والجريمة والعنف في المجتمعات الإسلامية.

ومن آثار العولمة في طمس الهوية الثقافية للأمة الإسلامية: انتشار الأزياء والمنتجات الأمريكية في كثير من الدول الإسلامية؛ لأنّ هذه السلع تحمل في طياتها ثقافة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها، وظهور اللغة الإنكليزية على واجهات المحلات والشركات، وعلى اللعب والهدايا، وعلى ملابس الأطفال والشباب.

رابعًا: الأهداف والآثار الدينية:

العولمة آتية من الغرب الصليبي الكافر الذي يعتمد الأنظمة والمفاهيم العلمانية اللادينية. ولقد حذّرنا الله -تبارك تعالى- من اليهود والنصارى، فقال عز وجل:
﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

فمن أهداف العولمة الدينية:

١. التشكيك في المعتقدات الدينية، وطَمْس المقدسات لدى الشعوب المسلمة لصالح الفكر المادي اللاديني الغربي، أو إحلال الفلسفة المادية الغربية محل العقيدة الإسلامية.

٢. استبعاد الإسلام وإقصاؤه عن الحكم والتشريع، وعن التربية والأخلاق، وإفساح المجال للنظم والقوانين والقيم الغربية المستمدة من الفلسفة المادية والعلمانية البرجماتية.

٣. تحويل المناسبات الدينية إلى مناسبات استهلاكية، وذلك بتفريغها من القيم والغايات الإيمانية إلى قيم السوق الاستهلاكية، فعلى سبيل المثال: استطاع التقدم العلمي والتقني الحديث أن يحوّل شهرَ رمضان -شهر الصوم والعبادة والقرآن- وعيد الفطر خاصةً من مناسبة دينية إلى مناسبة استهلاكية.

٤. الأهداف والآثار الاجتماعية والخلقية.

من مخاطر العولمة في الجانب الاجتماعي: أنها تركز على حرية الإنسان الفردية، إلى أن تصل للمدى الذي يتحرر فيه من كل قيود الأخلاق والدين والأعراف المرعية، والوصول به إلى مرحلة العدمية، وفي النهاية يصبح الإنسان أسيرًا لكل ما يعرض عليه من الشركات العالمية الكبرى التي تستغله أسوأ استغلال، وتلاحقه به بما تنتجه وتروج له من سلع استهلاكية أو ترفيهية، ولا تدع للفرد مجالًا للتفكير في شيء آخر وتصيبه بالخوف.

وأيضًا تكريس النزعة الأنانية لدى الفرد، وتعميق مفهوم الحرية الشخصية في العلاقة الاجتماعية، وفي علاقة الرجل بالمرأة، وهذا بدوره يؤدي إلى التساهل

مع الميول والرغبات الجنسية، وتمرد الإنسان على النظم والأحكام الشرعية التي تنظم وتضبط علاقةَ الرجل بالمرأة. وهذا بدوره يؤدي إلى انتشار الإباحية والرذائل، والتحلل الخلقي، وخَدْش الحياء، والكرامة والفطرة الإنسانية.

الروحيـــــــــــــــــــــة

أولًا: التعريف: الروحية الحديثة دعوة هدامة، وحركة مغرضة مبنية على الشعوذة، تدَّعي استحضار أرواح الموتى بأساليب علمية وتهدف إلى التشكيك في الأديان والعقائد، وتبشر بدين جديد، وتلبس لكل حالة لباسها. ظهرت في بداية هذا القرن في أمريكا ومن ورائها اليهود، ثم انتشرت في العالمين العربي والإسلامي.

ثانيًا: ظهور الروحية: ظهرت الروحية على أيدي بعض الكذَّابين الذين انتسبوا إلى الروح في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وزخرفوا أقوالهم بالكذب، وانجذب إليهم كثير ممن يطمحون إلى العلو في الأرض، ونَهْب أموال الناس بالباطل؛ للإثراء على حساب المغفلين، وبالتالي فقد انخدع بهم كثير من الجهلة في أوربا، ثم امتد ذلك إلى البلاد الإسلامية، وقد ظهر هذا المذهب في أوربا كغيره من المذاهب الضالة التي وُجهت لحرب طغاة الكنيسة، والانفلات منهم ومن سائر التعاليم الإلهية، والتطلع إلى استكشاف المجهولات، فأصبحت الروحية جماعة خطيرة على الأديان يغذيها الخبث اليهودي والإلحادي في تشويه الأديان والعقائد، وعدم الاعتداد بما يقال في الدين من العذاب أو النعيم، أو الأخلاق، أو الأمور الغيبية.

واهتمت هذه الجماعة بخرافة تحضير أرواح الموتى، وقد نشطت هذه الدعوى في بداية أمرها في أمريكا، ولم يعرف لها مؤسس على التحديد فيما يذكر الباحثون،

ثم امتدت إلى العالم الإسلامي، وتلقفها المتصوفة الخرافية وغيرهم، وأصبح لها علماء مشاهير ومؤلفات ومؤسسات وجمعيات مثل المعهد الدولي للبحث الروحي بأمريكا، وجمعية "مارلبورن الروحية" بانجلترا.

يزعمون أنهم يستحضرون روح أي شخص متى شاءوا، ويتباحثون معها كل مشاكلها، وأنها أجساد تحس بطريقتهم الغامضة التي تستند إلى الجن والسحر، ويزعمون أنهم يأتون بمثل ما تأتي به الأنبياء، وأن معجزات الأنبياء جاءت على طريقتهم، ويسخرون من الأنبياء والمتدينين، ويمجدون الملاحدة، ويدعون إلى نبذ الأديان والانصهار في دين واحد، وغير ذلك من مبادئهم الكثيرة التي تدل على أنها دعوة ملحدة.

ثالثًا: أهم عقائد الروحيين:

يقولون: بأنهم يحضرون الأرواح ويستدعون الموتى؛ لاستفتائهم في مشكلات الغيب ومعضلاته، والاستعانة بهم في علاج مرضى الأبدان والنفوس، والإرشاد عن المجرمين، والكشف عن الغيب، والتنبؤ بالمستقبل.

يزعمون أن هذه الأرواح تساعدهم في كشف الجرائم والدلالة على الآثار القديمة، كما يدعون أنهم يعالجون مرضى النفوس من هذه الأرواح كذلك.

دعون أنهم يستطيعون التقاط صور لهذه الأرواح بالأشعة تحت الحمراء.

يحاولون إضفاء الجانب العلميعلى عملهم، وهو في الواقع لا يخرج عن كونه شعوذةً وخداعًا وتأثيرًا مغناطيسيًّا على الحاضرين، واتصالًا بالجن.

يقومون بهذا التحضير في حجرات خاصة شبه مظلمة وفي ضوء أحمر خافت، وكل ما يدّعونه من التجسد للأرواح ومخاطبتها لا يراه الحاضرون، وإنما ينقله

إليهم الوسيط، وهو أهم شخص في العملية. الوسيط عندهم: يرى غير المنظور، ويسمع غير المسموع، ويتلقى الكتابة التلقائية، وله قدرة على التواصل عن بعد.

لا يثبتون للأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- إلا هذه الوساطة فقط.

يتحكمون في حضور جلسة التحضير من حيث الكم والنوع، وإذا وجد نساء يكون الجلوس: رجل، امرأة، ... كما يعزفون الموسيقا أحيانًا، وكل هذا لصرف أذهان الحضور عن حقيقة ما يجري، ويزعمون أن لكل جلسة روحًا حارسًا يحرسها.

يعتقدون أن معجزات الأنبياء هي ظواهر روحية كالتي تجري في غرفة تحضير الأرواح، ويقولون: أن بإمكانهم إعادة معجزات الأنبياء.

ويرفضون الوحي، ويقولون: إنه ليس في الأديان ما يصح الركون إليه، ويسخرون من المتدينين.

يقولون: بأن إلههم أظهر من إله الرسل، وأقل صفات بشرية وأكثر صفات إلهية.

يلوحون بشعارات براقة كالإنسانية والإخاء والحرية والمساواة؛ للتمويه على السُّذَّج والبسطاء.

كل عملهم منصب على زعزعة العقائد الدينية والمعايير الخُلقية.

يدَّعون أن الأرواح التي تخاطبهم تعيش في هناء وسعادة رغم أنها كافرة؛ ليهدموا بذلك عقيدة البعث والجزاء، ويقولون: إن باب التوبة مفتوح بعد الموت كذلك، وأن الجنة والنار حالة عقلية يجسمها الفكر ويصنعها الخيال.

عندهم نصوص كثيرة تمجد الشيوعيين، والوثنيين، والفراعنة، والهنود الحمر، ويقولون: إنهم أقوى الأرواح.

يبررون الجرائم بأن أصحابها مجبورون عليها، وبالتالي لا يعاقبون.

يسعون لضمان سيطرة اليهودية على العالم؛ لتقوم دولتهم على أنقاض الخراب الشامل. أعلنت مجلة "سينتفك أمريكان" عن جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية، ولكنها لا تزال تنتظر مَن يفوز بها، وكذلك الحال بالنسبة للجائزة التي وضعها الساحر الأمريكي "دنجر" لنفس الغرض. وهذا من أكبر الأدلة على بطلانها.

رابعًا: حقيقتها، وأشهر زعمائها:

ثبت أن للروحية اتصالات شخصية وفكرية بالماسونية وشهود يهوه، كما أن نوادي "الروتاري" تشجع هذه الظاهرةَ، وتمد لها يدَ المساعدة، وتتولى ترويجها، كما أنها تأثرت باليهودية في كثير من معتقداتها. ولم يُعرف لها مؤسس في أوربا وأمريكا، ولكن الدعوة إليها قد نشطت في بداية هذا القرن الميلادي من قبل عدة شخصيات؛ منها:

- "جان آثر فندلي" وكتابه المشهور (على حافة العالم الأثيري).
- "أدين فردريك باورز" وكتابه المشهور (ظواهر حجرة تحضير الأرواح).
- "آثر كونان دويل" في كتابه (حافة المجهول).
- اليهودي المعروف: "دافيد جيد".
- "وود سمث".

كما ظهرت لها في تلك البلاد عدة مؤسسات، مثل: المعهد الدولي للبحث الروحي بأمريكا، وجمعية "مارلبورن الروحية" بإنجلترا.

أما في العالم الإسلامي فقد تحمس لها عدة أشخاص وحملوا رايتها ؛ منهم :

- الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير أمين عام الجمعية المصرية للبحوث الروحية، وقد أصدر مجلة "عالم الروح" وهي الناطقة باسم هذه الدعوة الهدامة، وقد بدأ نشاطه منذ سنة ١٩٣٧م، وقام بترجمة كتابي "فندلي" و"باورز" سابقي الذكر.

- الأستاذ وهيب دوس المحامي ت ١٩٥٨م وهو رئيس الجمعية المذكورة.

- الدكتور علي عبد الجليل راضي رئيس جمعية الأهرام الروحية، له كتاب بعنوان (مشاهداتي في جمعية لندن الروحية).

- حسن عبد الوهاب، وكان سكرتيرًا للجمعية لفترة، ثم اكتشف زيفَ الروحيةِ الحديث، وأزاح الله عن عينيه غشاوة الضلال، واكتشف ما في هذه الدعوة الماكرة من سموم، وثبت له يقينًا الشخصيات التي تحضر في جلسات التحضير، وتزعم أنها أرواح مَن سبقونا من الأهل والأحباب، إن هي إلا شياطين وقرناء من الجن، يلبسون على الناس ما يلبسون.

- الشاعر اللبناني حليم دموس، الذي كان يقدس روحًا نصرانيًّا اسمه الدكتور داهش، ويرفعه إلى مقام النبوة، وله مقالات في مجلة "عالم الروح" بعنوان: "الرسالة الدهشية". والدكتور داهش له أتباع في لبنان وربما خارجه، كما أن له كتابات يمجد فيها الرسول ﷺ ويؤمن برسالته الخاتمة. وقد أنكر بعض أتباع الدكتور داهش أن يكون قد ادَّعى النبوة بمعناها الديني الإسلامي.

خامسًا: الروحية والملاحدة:

وإذا كان الروحيون يؤمنون بالروح على الصفة المذكورة، فقد قابلهم الملاحدة الماديون فأنكروا أن يكون للروح حياة بعد الموت، أو حتى وجود مستقلٌ فضلًا

عن الحياة بعد الموت، بل وجودها إنما هي تبع لوجود الجسم، وهو اعتقاد باطل كانوا على طرفي نقيض مع الروحيين، والحق هو مع الذين هداهم الله من المؤمنين الذين يعتقدون أن هذه الحياة إنما هي دار ممر إلى الحياة الآخرة، بعد موت الإنسان ومفارقة روحه لجسده، ويوجد ما يحصَى من الأدلة العقلية والنقلية على إثبات هذا المعتقد، وما يزعمه الماديون أن الروح ليست شيئًا خارجًا، أو شيئًا وجوديًّا، فهو كلام باطل يدل على قبح معتقداتهم، وضعف عقولهم، وقصور أفهامهم، ويدل على بطلان ذلك النقل من نصوص الكتاب والسنة، بل والكتب السماوية السابقة على ما فيها من تحريف، وكذلك دَلالة العقل كما قرره العلماء والعقلاء من الناس.

سادسًا: قضية الإلهام:

لقد اجتذبت فكرة تحضير الأرواح الكثير من الناس في الشرق وفي الغرب، مثقفين وغير مثقفين، فذهبوا في تثبيتها كل مذهب، ظانين أن وراءها نفعًا عاجلًا وحلًّا جاهزًا لما يدور في رءوسهم من حب الاطلاع على المغيبات، فإذا بهم يلهثون وراء سراب: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

ولقد كان لفكرة الكشف والتعلق به أقوى حافز عند بعض جهلة المسلمين، إلى الولع بفكرة تحضير الأرواح، ثم جاء الدافع القوي وهو القول بوحدة الوجود، فزاد الطين بلة، ورغم أن كثيرًا من الكتاب قد أسهموا بإسهام وافر في تثبيت هذه الفكرة من العرب ومن غير العرب. أما من العرب فمن أمثال الدكتور علي عبد الجليل الراضي، ومحمد فريد وجدي، والدكتور رءوف عبيد الذي أصدر مجلة "عالم الروح"، وأحمد فهمي أبو الخير أمين عام الجمعية المصرية للبحوث الروحية.

وأما زعماؤها في الغرب فهم "سلفر برش"، و"هوايت هوك"، حيث أقامها هؤلاء على القول بوحدة الوجود، رغم ذلك كله فقد رفضها أهل العقول، وسخروا منها، ورووا فيها الفكاهات المضحكة والتناقضات الواضحة في أفعال وأقوال وسلوك زعماء هذه الفكرة الضالة الخرافية، وعلموا يقينًا أن الهدف الأكبر من وراء دعوى تحضير الأرواح إنما هو استجلاب الناس إليهم، وخصوصًا العوام منهم؛ ليحصلوا على أموال الواحد منها، ليعتبر مكسبًا كبيرًا يحوزه هؤلاء، أهمها رفع مكانة أقطاب دعاة الروحية، وتعظيم أَمْرهم في نفوس الناس، والحصول على الأموال بدون مشقة، وإضعاف التدين في النفوس، والإسهام في خدمة اليهودية الحاقدة من وراء ستار.

ولذلك فهم يحاولون بشتى الوسائل ونشر أقوى الدعايات؛ لتقوية قضيتهم في تحضير الأرواح زاعمين أن هذه الأمور إنما حصلت لهم على سبيل الكرامة الإلهية؛ لوصولهم إلى حد معرفة الحقائق، والاطلاع عليها مباشرةً بدون واسطة أحد؛ أو لأنهم عرفوا -بزعمهم!!- كيفية الوصول إلى استحضار الأرواح، فَلَمْ يعد للغيب مكانة خارجة عن إرادتهم.

وحينما لهث الناس إلى معرفة بعض المغيبات -وخصوصًا بعد هذه الحركة العلمية، والتطور المادي، وظهور التنويم المغناطيسي، وجمعيات تحضير الأرواح- استغل هؤلاء هذه الكشوفات، وزعموا أنها أدلة لهم على صحة ما يذهبون إليه.

ومما ينبغي التنبيه له: أنه قد يحصل لبعض الصالحين ممن صفت نفوسهم نوع من الكشف بمعنى الإلهام، والنفث في الروع، ولكن ليس ذلك صفة مستمرة كما يدعي الروحيون في زعمهم أن الروح جسم مادي شفاف، يستحضرونه متى

أرادوا، وأن الموتى بعد الموت مباشرةً يكونون في عالمنا ومن حوالينا، ثم ينتقلون إلى درجة أرفع في هذا العالَم، وأنه يمكن مكالمة الروح بعد خروجها من الجسم، ورؤيتها مجسمةً بواسطة شخص يكون فيه الاستعداد لذلك عند إرادة تحضير الروح، فتستفيد الروح من استعداده، فتُكلم الناس بلغات يجهلونها، وتنبئ عن أمور الحاضرين من أقاربها.

ولا شك أن هذا كله دجلٌ وكذبٌ، وهوس فارغ، وتلك اللغات التي تخاطبهم بها تلك الأرواح إنما هي لغات الشياطين لا أرواح الموتى من بني آدم، وهذا جزء من مكر إبليس بأتباعه. وشبيه من هذا كذلك ما يدعيه بعض الصوفية من الإلهام والكشف، ونحوه.

والله ولي التوفيق. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع العامة

١. (**المذاهب الفكرية المعاصرة**)

غالب علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، ٢٠٠٦م

٢. (**الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**)

الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف ومراجعة: مانع الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ

٣. (**المذاهب المعاصرة**)

عبد الرحمن عميرة، الرياض، نشر دار اللواء، ١٤٠٥ هـ

٤. (**مذاهب فكرية معاصرة**)

محمد قطب، دار الشروق، ١٩٨٨م

٥. (**من قضايا الفكر الإسلامي في مواجهة التَّغريب واستلاب الهوية**)

محمد السيد الجليند، دار الهاني، ٢٠٠٧م

٦. (**الاتجاهات الفكرية المعاصرة**)

علي جريشه، دار الوفاء للطباعة، ١٩٨٨م

٧. (**الرأسمالية وموقف الإسلام منها**)

حمود أحمد الرحيلي، دار العاصمة للنشر، ١٩٩٥م

٨. (**فكرة القومية العربية في ضوء الإسلام**)

صالح عبد الله العبود، دار طيبة، ١٩٨٢م

٩. (الحركات القومية الحديثة في ميزان الإسلام)

منير محمد نجيب ، مكتبة الحرمين ، ١٩٨١م

١٠.(الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها)

جمعة الخولي ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٠م

١١. (الإسلام والعولمة)

سامي محمد صالح الدلال ، دار الإعلام الدولي ، ٢٠٠٤م

١٢. (العلمانية – نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة)

سفر عبد الرحمن الحوالي ، طبعة جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي ، ١٩٨٢م

١٣. (الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه)

محمود عثمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٧م

